AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 00979 3211

00-B4994
pw 26-6-00



FROM THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN
CAIRO

من مكتبة
الجامعة الامريكية بالقاهرة

AMERICAN UNIVERSITY
LIBRARY
CAIRO

DT
72
M9x
1949

على ضفاف النيل

(حواديت)

وهو تاريخ مصر
من مينا إلى يومنا

بقلم

توفيق مفرّج

خريج جامعة كولومبيا

صاحب كتابي آلام وأحلام
ورباعيات عمر الخيام

932
M89

٩٦٢
م ت ع

29327

الطبعـــة الأولى

إهداء الكتاب

لحضرة صديقي الكبير، صاحب المقام الرفيع، الرئيس الجليل مصطفى النحاس باشا رئيس الوفد المصري

بين يدىّ وأنا أكتب هذه السطور، ثلاثون مجلداً ونيف، فى مختلف اللغات، فى تاريخ مصر.

وقد استخلصتُ من كلّ هذه المجلّدات الضّخمة، الطويلةِ المملّة، المنبسطة فوق ألوف السنين، كتابى هذا «على ضفاف النيل».

وكنتُ، وأنا أضع هذا التاريخ، أرى بعينى فكرى، أولئك الأبطال الميامين، الذين جاهدوا فى سبيل استقلال مصر، وحياتها، وضحّوا بأنفسهم لإعلاء مجدها، وعزّها، ورفع نير الظّلم عن شعبها.

بل كنت أرى قوافل الشّعب المصرىّ تخترق مجاهل التاريخ، وهى تئنّ تحت نير الاستعباد والاستبداد، زاحفةً مع الأجيال، تتحمّل الظلم، والاضطهاد، والفقر، والجوع، والألم، فى سبيل المُثُل العليا، التى تمشّت إليها مصر!

ووسط هذا التاريخ الطويل ، الحاوى جميع أنواع الجهاد ، والعذاب ، والكفاح ، فى سبيل مصر ، رأيتك يا صديقى الكبير ، وأنت تجاهد ، وتكافح ، وتناضل ، وتتحمَّل مرارة السّجن ، والنفى ، والتَّشريد ، وذلّ الغربة ، والألم ، والعذاب ، فى سبيل مصر أيضاً .

وشاهدتُك تتمشَّى مع أولئك الأبطال القدماء ، الذين جاهدوا سعياً وراء استقلال مصر ، منذ فجر التاريخ إلى الآن .

وشاهدتُ بجانبك سيِّدةً كريمةَ النَّفس ، عاليةَ التَّهذيب ، عريقة ، الأصل ، تحيطكَ بحبّها ، وتغمركَ بعنايتها ، وتسهّل عليك مرارةَ الجهاد ، وتتحمَّل وإيَّاكَ قسوةَ الحياة ، وتتعرَّض معكَ للمخاطر ، فتشدُّ أزرك ، وتدفعك إلى الأمام ، فى سبيل مصر .

* * *

فإليكما أقدّم هذا الكتاب ، وهو : تاريخ جهاد مصر ، فى سبيل الاستقلال ، منذ أقدم الزمان ، إلى الآن .

المخلص

مصر القاهرة ١٥ أبريل سنة ١٩٤٩ — توفيق مفرّج

بعض المصادر التاريخية التى اعتمدت عليها فى وضع هذا الكتاب :

(١) تاريخ مسبيرو ــ مدنية مصر .

(٢) الهر أدولف أرمن ــ الحياة عند قدماء المصريين .

(٣) تاريخ عهد الإمبراطورية المصرية ــ للدكتور چيمس هنرى برستد ، أستاذ التاريخ بجامعة شيكاجو .

(٤) لوحات تل العمارنة الموجودة فى المتحف البريطانى بلندن .

(٥) تاريخ هيرودوتس (زار مصر فى القرن الخامس قبل الميلاد) .

(٦) مانيتون ــ أول مؤرخ مصرى ــ وهو كاهن من سمنود عهد إليه بطليموس الثانى كتابة تاريخ مصر .

(٧) ديدرو الصقللى .

(٨) استرابون .

(٩) يوسيفوس .

(١٠) ماكس مللر ــ الخرافات المصرية .

(١١) تدى ــ الحياة الدينية عند المصريين القدماء .

(١٢) رينرنر ــ فكرة الخلود عند المصريين .

(١٣) ويدمان ــ ديانة قدماء المصريين .

(١٤) بدج ــ أوزوريس والقيامة من الأموات .

(١٥) سبنس ــ خرافات قدماء المصريين .

(١٦) فلندرس بترى ــ مصر قبل التاريخ . و تاريخ مصر .

(١٧) توميسون ــ صحراء الفيوم .

(١٨) جامعة كمبردج ــ التاريخ القديم .

(١٩) ويجل ــ تاريخ مصر .

(٢٠) بيكى ــ تاريخ مصر منذ أول التاريخ إلى الدولة الثامنة عشرة .

(٢١) برستد ــ التقدم الدينى والفكرى فى مصر .

(٢٢) سايس ــ تاريخ ديانة المصريين القدماء .

(٢٣) ستندورف ــ تاريخ ديانة قدماء المصريين .

(٢٤) دروس ــ الفن المصرى القديم .

(٢٥) كابرت ــ أبيدوس وهيكل ساتى الأول .

(٢٦) موراى ــ الهياكل المصرية .

الخ . . . الخ . . .

يا مصـــــر

تحت سمائك الزّرقاء ، زحفت الأجيـــال ، والدُّهور ! .

وعلى ضفاف نيلك المبارك ، مشت الأمم والشُّعوب ! .

تتغيَّر الأيَّام ، وتندثر الأمم ، وأنتِ ، أنتِ يا مصر .

عظمتك ، كماء نيلك — ترتفع أحياناً ، وتنخفض أحياناً .

وكتِلك المياهِ أيضاً ، فيَّاضة فى ارتفاعها ، هادئة ، متواضعة فى انخفاضها .

* * *

أنت ابنة النّيل ، والنّيـــل أبوكِ يا مصر .

يُشبعكِ إذا جُعتِ ، ويسقيـــكِ إذا عطشتِ .

فحدثينى عن أبيـك يا مصر وقولى لى :

من أىّ عهـدٍ فى القرى يتدفَّق ؟

فيقطع الجبـــال والوديان ، ويخترق البحيرات ، ويحطّم الصخور ، ويسحق الغرانيت ، راكضاً إليك يا مصر .

ثم يحوّل الفيافى والقفـــار ، إلى جنَّات تجرى من تحتها الأنهـــار .

إن ضفافه احتضنت حضارة الفراعنة كل هذه الأجيال .

ومياـــهه !

ما ذاك ماء يجرى فى النيل ، إن هو إلا ذهبٌ إبريز .

* * *

أنتِ يا مصر ، خيطٌ من زمرد ، يمتدُّ من أسوان ، إلى أُون .

وعلى هذا الخيط بزغت أنوار المدنيَّة ، الخالدة ، المقدّسة .

فشُيّدت المدن ، وعُمِّرت القرى ، وانتشرت الخيرات ، وهبطت الأديان ، وقامت الهياكل والمعابد .

فى أدفو ، وأبيدوس ، وإسنا ، وطيبة ، ودندرة ، وتلّ العمارنة ، وممفيس .

هذه المدافن ، وتلك الهياكل ، هنّ قصور ، وسرايات قائمة تحت التراب ، حفظوا بها العلم ، والفن ، والدين ، والتاريخ .

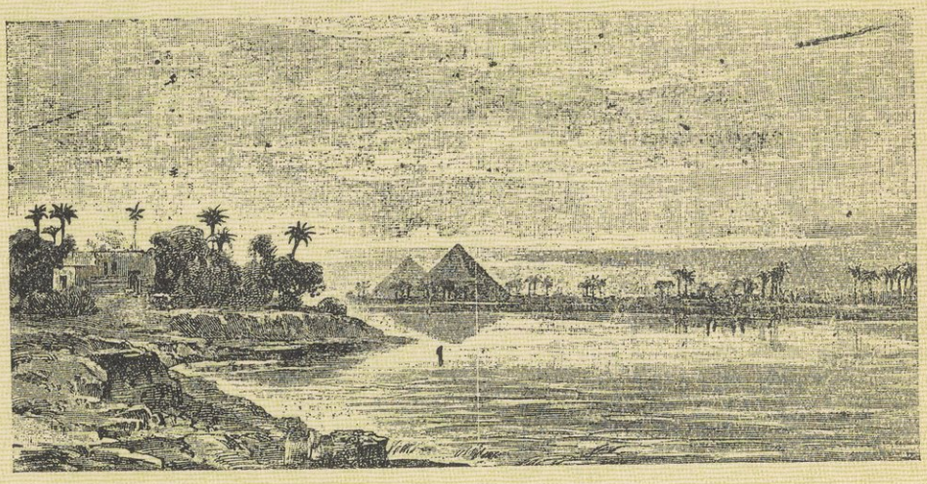

منظر عام للنيل-والفيضان وأهرامات مصر

لقد جئت من أعالى لبنان ، لأقف أمام أعالى الأهرام .

جئت هارباً ملتجئاً وما أنا أول الهاربين يا مصر(١) .

---

(١) جاء المؤلف الى مصر مع جلالة الملك فيصل بعد صدور الحكم بالاعدام عليه فى أثناء القضية العربية .

تركت دمشق ، وتحدّرت مع نهر الشريعة ، ماراً على اليرموك ، قاطعاً أقدس تراب العالم فى طريق إليك .

اجتزت صحراء سيناء فى بضع ساعات ، خلتهـــا أربعين سنة (١) من شدة شوقى إليكِ يا مصر .

التفتُّ إلى تلك الصحراء الواسعة ، فأبصرت أولاد يعقوب ، (وقد عمّت المجـــاعة فى كل الأرض) ، آتين من فلسطين هرباً من الجوع ليشتروا قمحـــاً من مصر .

ثم عـدت بأفكارى ألفى سنة إلى الوراء ، فرأيت « يسوع » على جحش ابن أتان ، يقطع المســـافات الشاسعة ، مضطجعاً على الرمال الصفر ، ملتجئاً إلى مصر ، هرباً من غضب « هيرودس » وظلمه ، واستبداده .

ثم وصلت إلى شواطئك الجميلة ، وأغمضت عينىّ ، فرأيت قارباً صغيراً تدفعه الأمواج ، وقد ظهر فيه رجلٌ طويل القامة ، عريض الجبهة ، عرفت حالا أنه فيلسوفى المقدس العظيم « أفلاطون » .

فمشيت وراءه إلى أن رأيته وقد جلس أمام داره فى هليوبوليس ، يشرب من كأس فلسفتـه ، وقد فضّل شمس مصر المحرقة ، بما فيهـــا من الحقائق ، على شمس بلاده المنعشة ، المملوءة بالجهـــل والتعصّب .

لقـــد اضطهدوه فى بلاد الحكمة ، ففرّ هارباً إلى مصر .

---

(١) أربعون سنة قضاها بنو اسرائيل تائهين فى الصحراء .

ثم رأيت « ديموقراطيس » ، وقد جاءك ملتجئاً مبتسماً للحرية التى كان يتمتع بها شعبك .

أما « زينوفانوس » ، فقد عبس تحت سمائك الصّافية ، لأنه لم يحتمل الغربة ، وقد طال زمن منفاه والتجائه إليك يا مصر (١) .

حتى بالأمس فرّ إليك أحرار العثمانيين هاربين من ظلم عبد الحميد .

وبالأمس أيضاً جاءك الفوج الأخير هارباً من ظلم « جمال » السفّاح .

وكم من جمالٍ ، وكم من هاربٍ ملتجىءٍ إليك يا مصر ! .

* * *

لقد تغلغلت فى تاريخك القديم ، فأبصرت شبه ثورة بين شعوبك الكثيرة .

ورأيت « مينا » الذى يلقبه المؤرخون بشارلمان مصر ، يؤسّس مملكة على أنقاض الحكومات المحلية الكبرى ، التى كانت قائمة فى عين شمس منذ آلاف السنين ، ويوقظ روح القومية المصرية فى صدور أبناء بلاده .

لقد ترك طيبة تظل المدينة المقدّسة التى يحجّ إليها المصريون ، لكنه بنى ممفيس بالقرب من المكان القائمة عليه مصر الآن .

ومن هذا التاريخ ابتدأتِ أن تكونى يا مصر دولة مستقلة ، وأمّة مترابطة ، متكاتفة ، متضامنة ، فالتفت نحوك العالم الصغير فى ذلك الحين ، وأسرع ابن هلاّس النشيط ، راكباً زورقاً

(١) جميع فلاسفة اليونان جاءوا الى مصر — منهم مضطهد ، ومنهم للعلم والمعرفة .

صغيراً من أخشاب بلاده ، ليستفيد من الخيرات التى يسكبها النيل فى سهولك ، وعلى ضفاف نهرك المبارك العظيم .

لقد بقيتِ أجيالاً طويلة يا مصر ، وأنتِ جزيرة واقعة بين بحر من الرمال ، وبحر من الماء ، إلى أن أتتك عصابة قرصان من أبناء اليونان ، فكانت تطوف بمكر حول شواطئك الرملية لا تتجاسر على الدخول .

لكنى أراها الآن ، وقد اغتنمت فرصة هرب مليكك « سكابو » إلى السودان فدخلت بزوارقها الضيقة ، وسط نيلك الواسع .

وقد أكَّد « سمتيكوس » للمصريين أن اليونان لا تخرج زيتاً فقط لكنها تخرج رجالاً أيضاً .

إن هذه أول مرة فى التاريخ داست أقدام الأوربيين ترابك المبارك ، ومنذ ذلك الحين تلاعبت بك الأيدى الأجنبية فكانت سبباً لتذمّر شعبك المستمر حتى هذا اليوم .

ومن أغرب ما رأيت فى تاريخك ، أنه رغم وطنيَّة شعبك ، ومحبته لبلاده ، لم يقم منه بيت ملكىّ ، بل جميع الذين جلسوا على عرشك الذهبى ، كانوا ملوكاً أجانب متمصّرين .

فالفراعنة الأولون ، جاءوك من السودان .

والهكسوس الرُّعاة ، من بلاد العرب .

والبطالسة ، من اليونان .

والإسلام ، من الجزيرة .

ومحمد علىّ ، من قَوَله فى ألبانيا التابعة للأتراك .

أما فى ذلك الحين ، فقد قاوم المصريون الاحتلال اليونانى مقاومة عنيفة إلى أن ارتقى عرشك ملوك متمصرون ، دعاهم الشعب أصدقاء اليونان ، فتألّم فتيان المصريين لأنهم كانوا ينظرون لبلادهم كأنها هيكل مقدس ، ويعتبرون كل الأجانب غرباء يدنّسون ذلك الهيكل .

لكن هؤلاء اليونان خدموا مصر خدمة تذكر ، وأوصلوها إلى أعظم درجات الرقّى والعمران ، وأخضعوا لها سورية ، واستولوا على غابة الأرز فى لبنان ، وبنوا من خشبها أسطولا اقتحموا به العالم ، ونشروا سيطرتهم بسرعة غريبة على شواطىء البحر المتوسط .

ثم حفروا قناة السويس لأول مرة ، فأصبح أسطول مصر ، يدور حول جميع أفريقية .

لكن يا للغرابة ، فإن كل ذلك لم يهج أبناءك ، وقد عجز اليونان مع كل علومهم وفرط ذكائهم ، وجمال أجسامهم ، أن يستجلبوا محبة المصريين .

وكما رواه المؤرخ « هيرودوتس » أن فى كل مصر لم تكن فتاة مصرية واحدة ترضى أن يقبلها يونانى غريب .

إن اليونان هذّبوا العالم بأسره ، ونشروا فلسفتهم على شواطىء البحر المتوسط بل قذفوا بها إلى أواسط أوربا .

لكن مصر كانت منذ فجر التاريخ ، مدرسة كبرى لليونان ، وللعالم أجمع .

فقد زارها « أوفيدس » ، و « هوميروس » وفى مدارسها درس

« صولون » الشريعة ومنها أخذ « بيتوكوريوس » نظريته ومبادئه .

فى مصر تعلم « تاليس » أبو الفلسفة مبادىء الهندسة ، ونادى وهو جالس فى عين شمس (١) إنَّ الزمن أهم كل شىء ، لأنه عرف كل شىء مضى ، وسيعرف كل شىء آتٍ .

وكان « تاليس » أول من قال إن الماء هو أول الكائنات ، وأن منه وجد كل شىء ﴿وَجَعَلْنَا من الماءِ كلَّ شىءٍ حَىٍّ﴾ .

وهو رأى قديم ، ذهب إليه قدماء المصريين وقالوا إن الخلية البشرية الأولى ، جاءت من البحر . وكان الكهنة المصريون أول من نادى بأن الماء أصل كل حياة ، وعنهم أخذ « تاليس » نظريته المشهورة . وفى هياكل مصر تعلم « فيثاغورس » الفلسفة وعاد إلى أثينا ليعلمها لليونانيين ، حتى أن نظرية الخلود التى نادى بها أفلاطون ، كانت معروفة لدى كهنة مصر ، ولا يبعد أن أفلاطون أخذها عنهم كما أخذ قصة الطوفان ، وحكاية انهيار الأطالسة المريع .

وفى مصر سكن « هيرودوتس » سنين طويلة ، ولم يقم فى اليونان ، عالم أو مفكر ، إلا جاء مصر ليكتسب من علومها ، وحكمة كهنتها ، يوم كانت جامعة العالم بأسره ، وملجأ لكل طالب معرفة ، أو سرّ من أسرار الطبيعة .

مصر هى البلاد التى ولدت فيها « الميثولوجيا » ، وعنها أخذ اليونان كل ما عندهم من الخرافات ، والأساطير ، والتقاليد .

---

(١) مكان بالقرب من هليوبوليس .

لقد وجد قبل التاريخ فى « أون » المعروفة الآن « بعين شمس » دولة قوية ، عظيمة ، ذات مدنيَّة وعبقريَّة خاصَّة ، عرفت الكثير من العلوم ، والمعارف ، والأسرار ، وأصل الوجود ، والكائنات ، والديانات ، وعبدت إلهاً واحداً منزَّهاً عن المادة ، خالداً ، أبدياً ، هو البداية ، والنهـــاية .

وكان كهنة المصريين القدماء الذين أسَّسوا مملكة هليوبوليس ، قد هاجروا إليها منذ ألوف السنين ، من بلاد كانت على جانب عظيم من المدنية ، والعمران ، والفنون .

هـذه هى بلاد « الأطالسة » التى وجدت قبل ظهـور البحر الأبيض المتوسط ، حينما كانت أوروبا ، وأفريقية ، وآسيا ، قارة واحدة متصـــلة ، غير منفصلة .

وكانت دولة الأطالسة فى مكان ما ، فى اليابسة التى يقوم البحر المتوسط عليها الآن .

ثم طغى الأوقيانوس الأتلنتيكى ، على هذه البـلاد العظيمة ، فغرقت فى قاع البحر بمـا فيها من سكّان ، وجبال ، ووديان ، وضاعت علومها ، وآدابها ، ومدنيتها .

وحدث قبل ضياع بلاد الأطالسة ، أن هاجر بعض أبنائها ، لسبب مجهول ، وجاءوا إلى مصر ، وتركوا بلادهم قبل أن يبتلعها البحر الأبيض المتوسط ، واستقروا فى عين شمس وهليوبوليس ، وكانوا على جانب عظيم من العلوم والدين والحضارة .

وربما كان ذلك هو ما وصل إلينا من قصة الطوفان .

إن قصة الطوفان كانت معروفة عند كهنة مصر ، وعنهم أخذها اليونان ، وتحدّثوا عنها ونشروها فى العالم .

هؤلاء العلماء الحكماء ، الذين هاجروا من بلاد الأطالسة ، منذ عشرة آلاف سنة قبل ظهور الملك مينا ، وقيام الدولة المصرية الأولى ، هم كهنة مصر الحقيقيون ، الذين أنشأوا دولة عين شمس وعلّموا المصريين أسرار الطبيعة والكون ، وربما كانوا على إلمام بالكهربائية وسواها من العلوم والفنون والآداب والدين ، وهم الذين وضعوا أسس المدنية المصرية القديمة .

وقد جاء « أفلاطون » إلى مصر قبل المسيح بأكثر من ثلاثمائة سنة ، وسمع أخبار القارة الأطلسية (الأتلنتيد) من كهنة مصر ، ووصف حضارة الأطالسة فى أحد مؤلفاته ، وأرجعها إلى ما يقارب عشرة آلاف سنة قبل المسيح ، ووصف ما سمعه من كهنة عين شمس ، عن الانهيار الفجائى الذى طمرها فى قاع البحر ، فكان منها الجاليات التى عمّرت مصر وأمريكا ولبنان ، وقد قدر بعض المؤرخين سكان الأطالسة ، بنحو خمسة وستين مليون نسمة .

إن وادى النيل فى نظر العالم اليوم ، أشبه بمقبرة مهجورة ، ومزار تاريخى قديم ، يقصدها الأوروبى والأمريكى للسياحة والنزهة ، لكنها كانت لأبناء العالم القديم ، مرجع كل علم ومعرفة ، وفن ، وتاريخ . وكانت هياكلها مدارس سرية لتعليم الدين ، والفلسفة لأبناء الكهنة والملوك .

أمام هياكلها العجيبة ، وقف اليونانى مندهشاً ، صامتاً ، ساكتاً ،

صاغراً ، ومن تلك الهياكل سرق معرفة نحت التماثيل ، وصنع الأجسام .

كان يرى بعينه أطفال المصريين ، يداعبون التمساح الأليف ، ويشاهد جثة أبيس المحنطة ، مرزومة بالجدار الأحمر ، والكتّاب ينقشون لغة الحيوانات على الغرانيت .

وكان هؤلاء اليونانيون الأذكياء يطوفون فى معابدك ، ويدهشون من عظمة أبى الهول ، مضطجعاً على الرمل المحرق ، وبين مخالبه الهيكل العظيم .

أما كلمة أبى الهول ، فلا علاقة لها بالكلمة العربية ، لأنها جاءت من كلمة الإله « هور أى هورس » .

لقد دخلوا فسحة الكرنك المملوء بالأعمدة العظيمة ، كأنها غابة أشجار باسقة ، مؤلفة من فدادين مبلطة بالحجر الصلب .

إن اليونان مدينة لمصر بكل ما فيها من الفلسفة ، والعلوم ، والفنون ، وقد ذهب المؤرخون إلى أن الفضل فيما وصلت إليه « هلاس » ناتج عن التجارة الحرة بين القطرين . . .

وكانت اليونان تأتى بجميع أوراق الكتابة من مصر ، ولولا الورق الذى كان يصنعه المصريون ، لما سُجلت وحُفظت فلسفة اليونان ، بل ربما كانت قد ضاعت كما ضاع غيرها من تواريخ الأمم وعلومهم .

أما جلود الحيوانات فكانت نادرة جداً ، وكان تحضيرها لكى تصلح للكتابة أمراً عسيراً ، يقتضى نفقات كثيرة .

ومصر وحدها كانت معمل « البيروس » العظيم وهو ورق البردى .

وإنى أعتقد أن اليونانيين أخذوا العلوم ، والفلسفة ، والطبيعيات ، والهندسة ، وعلوم الفلك ، والدين ، عن مصر وفينيقية ، ثم صاغوا جميع ذلك فى قالب جديد قدّموه للعالم ، تحت اسم الفلسفة اليونانية .

* * *

ها إنى أرى قافلة كبيرة ، آتية إليك يا مصر .

إنها تحمل الصمغ ، من بلاد العرب !

واللؤلؤ ، من خليج العجم .

والسجّاد ، من بابل .

والفلفل والزنجبيل ، من ملبار .

والوشاحات ، من كشمير .

والقرفة ، من سيلان .

والشاش ، من بنغال .

والخام ، من كورمندال .

والكمون وكبش القرنفل ، من الأرخبيل الهندى .

والحرير ، من الصين .

والعقاقير ، من سوريا .

والأسفلت للتحنيط ، من البحر الميت .

والخشب الطيب ، من أرز لبنان .

والخمر والزيت ، من فينيقية وفلسطين .

وقد كانت جميع تلك القوافل تخرج منكِ حاملة الحبوب والمواشى

والزجاج الجميل الملوّن ، والسبحات المختلفة الألوان ، والأدوات الفنية والأقمشة الجيدة ، وقد كان الكتّان يصدر من مصانع ممفيس كما يصدر اليوم من مصانع منشستر ؟

أنظرى إلى أسطول — فينيقية التجارى — لقد وصل فى النيل إلى أمام ممفيس ، إنه مؤلف من خمسة وأربعين مركباً شراعياً مملوءة بالتحف والنفائس .

لقد كنت فى ذلك الزمان يا مصر ، أعظم مملكة ترعاك عين حكومة ديمقراطية عادلة .

وإذا استغرب الناس ذلك ، وذكّرونى ببنيان الأهرام ، فليتذكروا هم أيضاً أن مصر بلاد غنية ، كثرت فيها الخيرات ، والأيدى العاملة . فخاف الكهنة من ثمرة البطالة ، ونتائجها ، فدفعوا الجمهور لإقامة التماثيل والمبانى .

ولا ينسى القارىء ، أن السودان لا يسكب النيل فقط فى مصر ، لكنه يصبّ أيضاً على مصر نهراً من الرجال والفتيان ، الذين لم ينقطع مجراهم حتى يومنا الحاضر .

فلا يتخيّل لنا أن المصريين هم الذين بنوا الأهرام .

إن كهنتهم وضعوا تصميم شكله الهندسى ، ورسموا قواعده وطريقة تشييده ، لكن الذين بنوا الأهرام هم الغرباء من أسرى الحرب من أبناء جميع الأمم والشعوب .

أما المصريون أنفسهم فقد كانوا يفتخرون بأنهم رفعوا الأهرام ، وأقاموا أبا الهول ، دون أن يشتغل مصرى واحد فى ذلك العمل العظيم .

والأهرام مربع الشكل، وكل قسم من قاعدته يبلغ ٧٥٠ قدماً، وارتفاعه ٥٠٠ قدم، مبنىّ بحجارة صلبة جاءوا بها من جبل المقطم رغم أن بعضها يبلغ طوله نحو عشرين ذراعاً، وعرضه ثلاث. وهى من حيث الدقة فى الصنعة، والإتقان فى البناء، بحيث لا تدخل شعرة بين الحجر والحجر.

وما الأهرام يا مصر، سوى دموع متحجرة، ذرفها شعب بائس إرضاءً لشهوة ملك ظالم، فحفظها التاريخ شاهد عدلٍ ينطق بظلم الانسان.

أما الكهنة الحكماء الذين وضعوا الأساس الهندسى، فقد كانوا منصرفين إلى ما هو أجلّ وأعظم، إذ كانوا يراقبون مجرى النيل ليصونوا البلاد من المجاعة. وقد لاحظوا فى بدء فيضانه ما دعاهم للاعتقاد بأن لذلك الفيضان علاقة بظواهر جوية، فقادهم ذلك إلى درس علم النجوم، واكتشاف السنة الشمسية.

والمصريون اخترعوا السنة الشمسية، وقسموها إلى ٣٦٥ يوماً مع إضافة يوم واحد لكل أربع سنوات، وعنهم أخذها «يوليوس قيصر»، ثم نقّحها البابا غريغوريوس الثانى عام ١٨٥٢، فنسب إليه (التقويم الغريغورى) مع أنه فى الحقيقة من وضع كهنة مصر القدماء.

والأرقام التى يستعملها الأطباء اليوم للإشارة إلى الجرام والقمحة مأخوذة عن حكماء مصر وأطبائها.

وما اختراع الكتابة الهيروغليفية، إلا دليل واضح على أن

فى مصر وجدت غاية سامية ، نبيلة ، فوق السياسة ، والفتوحات ، وحبّ المال .

ولقد كان لهؤلاء الكهنة الأذكياء ، نفوذ عظيم فى مصر ، فقيّدوا الملوك بقيود منعتهم من الاستبداد بالرعية ، ومن وضع يدهم على ثروة البلاد وأطيانها .

فكانوا أول من اخترع آلة الحرث ، ومسح الأطيان ، وقسّطوا الخراج على الناس ، ووضعوا الشرائع والقوانين .

وقد راجعت تاريخك يا مصر ، وقلّبت صفحة من تاريخ ملوكك الأولين ، فوجدت أن رئيس جمهورية أمريكا اليوم ، مع كل ديمقراطية تلك البلاد ، يتمتع بحقوق كثيرة لم يحصل عليها ملوك مصر مع كل ما كان لهم من العظمة والجبروت .

لقد كان الملك ينهض باكراً لسماع صلوات الكهنة ، وليس له من السلطان أن يحكم من تلقاء نفسه حتى على أصغر المصريين .

إن ما اقترفته بعض دول أوروبا الهمجية من معاملة الأسرى إبان هذه الحرب الأخيرة ، يذكّرنى برقّى المصريين يوم كانوا يحتفلون بأسيرهم الحربى الذى يقاومهم بشدة وبأس ، وليس ذلك فقط ، بل كانوا يخلعون عليه النعم والهدايا ، اعترافاً بشجاعته .

إن تاريخ مدنيّة مصر ، زاخر بأفضل وأرقى الآداب الاجتماعية التى تفتخر بها أوروبا اليوم .

فقد كان الجندى المصرى لا يحمل سلاحاً إلا حين الحرب .

أما الأهلون فلم يكونوا بحاجة إليه البتة لاستتباب الأمن والعدل .

وقد كان للمرأة احترام ومقام، يضارع مقام الرجل، فتستقبل الضيوف، وتجلس معهم، كما نراها فى الرسوم القائمة على جدران الهياكل.

وقد كانت تدفن مع الرجل، جنباً إلى جنب.

وقد رأينا فى مجموعة القوانين التى أصدرها رمسيس الثالث سنة ١٢٠٠ قبل الميلاد، ما هو بالحرف الواحد:

«يحق للمرأة أن تعيش فى هذه الحياة كما تريد، وليس لأحد حق فى اعتراضها على الإطلاق».

لقد قلّبت صفحات كتاب محكمة الأموات المشهور، فوقفت مندهشاً من ذلك القانون العسكرى المقدّس الذى يستحيل إيجاد قوة أفضل منه لحفظ نظام المجموع.

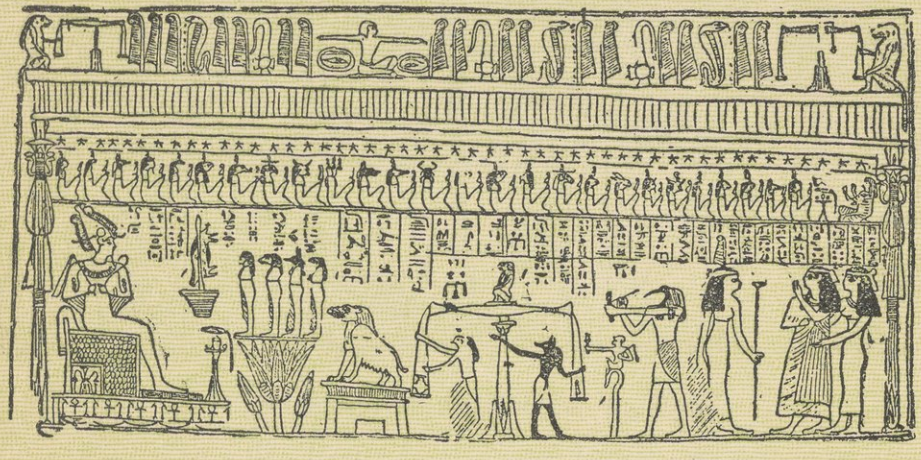

محاكمة الميت ووزن قلبه وروح الانسان واقفة تراقب الوزن والاله انيبوس يسجل فى دفتر الأموات نتيجة المحاكمة

ورأيت جميع ملوكك يحاكمون بعد موتهم أمام جماهير الشعب ليكونوا عبرة لسواهم. فقلت فى نفسى: إن هذه المحاكمة العلنية

وحدها كافية للتأثير على العامة ، وتدريبهم على الصلاح ، وتعويدهم على الارتياح عند كل إتيان عمل شريف مجيد .

تعـــالى نحضر جلسة محكمة الأموات يا مصر .

إنهم يحضرون جثة الميت أمام كرسى القضاء ، فإن شهد الناس له بالصلاح والتقوى ، أمر القضـــاة بدفنه مكرّماً محترما .

وإن شهد الناس ، أنه كان شريراً أو مجرماً قاتلاً ، حرّم عليه الدفن داخل قبره الذى بناه فى حياته ، ومنعت عنه الاحتفالات المقدّسة .

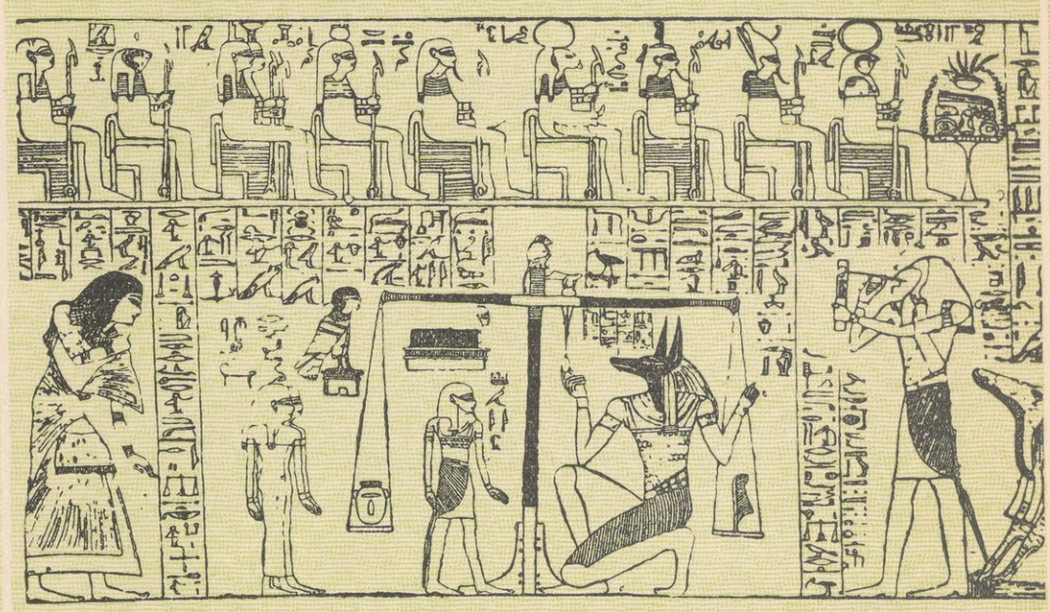

محاكمة النفس بعد الموت ووزن قلب الميت

فى فصل من كتاب الأموات تجد أوزوريس جالساً وسط غرفة سقفها من النار دليلا على الحق ، وأمامه الاله انيبوس يزن قلب الميت ، وأولاد حورس الأربعة ، ثم الاله توت يسجل الوزن ووراءه الوحش بابى منتظراً ليأكل الميت اذا وجد قلبه ناقصاً . وفي أعلى الرسم تجد صورة لاثنين وأربعين قاضياً الذين يحاكمون الأموات . أما اذا وجد قلب الميت كاملا فيدخل الميت الى السماء الى أفراح أوزوريس ليعيش هناك بهناء الى الأبد

وإذا استدان المصرى مالاً ولم يفِ ذلك المال ، كان جزاؤه ألّا يدفن أيضاً فى قبره أو قبر آبائه وأجداده .

ويجرى هذا الحرمان على أولاده ، وأولاد أولاده ، إلى أن يفى أحدهم دين والده .

وفى أثناء المحاكمة يضعون قلب الميت فى الميزان الإلهى المقدّس ، وفى الكفّة الأخرى يضعون رمز العدل والصلاح .

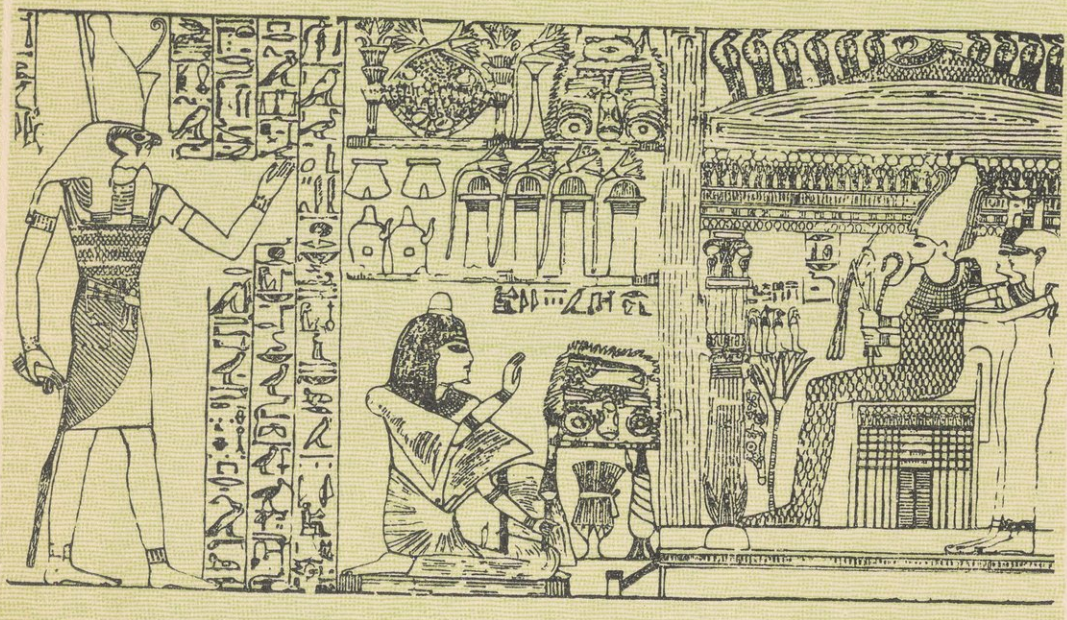

محاكمة الروح . تقديم الميت الى الاله أوزوريس

وتقف الروح أمام الميزان تراقب الوزن ، فإن لم يكن القلب ناقصاً فى الوزن ، صعدت الروح إلى أحضان أوزوريس ، لتتمتع بأمجاد الآلهة ، ونعم السماء .

أما إذا وجد القلب ناقصاً ، فيلاقى الميت الفناء ، والهلاك ، ويبتلعه الوحش الكاسر المدعو « بابى » .

التحنيـــط

ها إنى أرى الكاهن الأكبر، يحنط جثة فرعون العظيم.

إنه يخرج دماغ القحف من الأنف، ويثقب الخاصرة، ثم يخرج الأمعاء والكلى فيغسلهما بخمر النخل، ويردهما إلى الجوف.



التحنيط عند قدماء المصريين

ها إنى أراه يملأ الرأس، وجوف الأمعـــاء بالمرّ والقرفة، والأطياب، والعقـاقير، والعطور، ويدهن الجسد بالزيت المعطر مدة ثلاثين يوماً، وبعدها يضعه فى ماء النطرون أربعين يوماً.

أنظر إليه يلفّه بلفائف مغموسة بالمرّ بعد أن تدهن اللفائف بماء الصمغ، للوقاية من الهواء.

ولم يكن التحنيط سوى الدليل المفحم على إيمانهـم بالقيامة، والحيـــاة الأبدية.

إن المصريين جعلوا كل اهتمامهم للحياة بعد الموت.

وهذا الإيمان بالحياة الأخرى، هو الذى قادهم لتحنيط الأجسام وألهمهم فكرة بناء الأهرام، والمقابر الكثيرة الكائنة فى طيبة، وبنى حسن، والدير البحرى. لأنهم اعتبروا الروح خالدة، وبعد مفارقة الجسد تعيش فى عوالم أخرى، لكنها تحتاج إلى الجسد لتعود ثانية إلى الحياة.

فإن اضمحل الجسد وتلاشى، فالواجب إيجاد مثال له من الخشب لكى تتعرف الروح عليه، وتعود إليه.

ومن هنا نشأت فكرة التحنيط.

وهذا هو السر فى أن المصريين كانوا يحفرون رسوم أجسادهم على خشب توابيتهم.



تابوت رعمسيس الثاني
وبداخله المومياء محنطة

ويقدر المؤرخون أنه من زمن مينا، إلى ظهور السيد المسيح، حنّط المصريون نحو مائتى مليون جثة، وضعوها فى قبورها، ووضعوا بجانبها الماء والغذاء.

أما أجسام الفقراء فكانت تنظف أحشاؤها ثم تغطّس فى ماء النطرون، ثم تجفّف وتلف بحصير وتدفن.

الطب عند قدماء المصريين

إن الطب قديم فى مصر كالدين ، لا تستطيع أن تحدّد ابتداءه بل إننا نعلم أن الكهنة كانوا الأطباء ، والأطباء كانوا الكهنة .

وقد سَرَت هذه العادة من مصر إلى جميع الأمم الشرقية .

لقد كنت بالأمس فى قرية من قرى لبنان ، فمرض طفل فى مزرعة ليس فيها طبيب ، فأحضروا الكاهن الموجود بالقرية ليشفيه .

وبما أن الكاهن كان هو الملك ، لذلك كان الملك هو الكاهن والطبيب أيضاً .

وفى عصر الدولة الأولى كان الملك « أتونيس » طبيباً ، وقد ألّف وكتب فى الطب حسبما ذكر لنا المؤرخ « مانيتون » .

ويبدأ التاريخ المصرى للطب من الدولة الثالثة فى مدينة ممفيس ، فى عهد الملك « زوسر » فقد كان وزيره الأول كاهناً وطبيباً ومهندساً ، وأصبح هذا الكاهن ، الطبيب ، والمهندس ، الوزير — إلهاً للطب عند قدماء المصريين ، وتورّط المصريون فى عبادته ، فأصبح إلهاً يعطى الحياة لمن

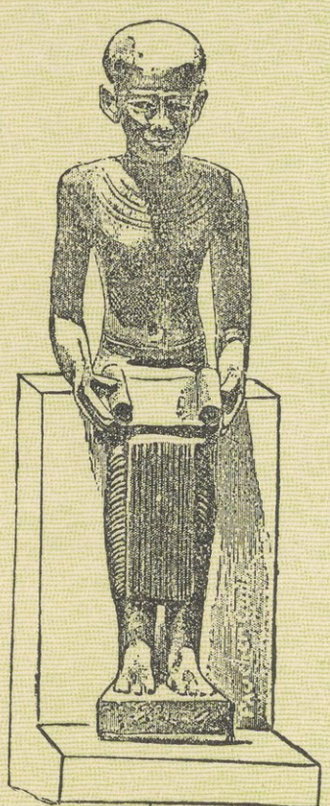

أمنحوتب — اله الطّب

يشاء . وعُرف هذا الطبيب باسم « أمنحوتب إله الطب » .

ثم جاء بعده حكيم وطبيب اسمه « أمن هوتب بن هابو » فرفعه المصريون إلى درجات الآلهة . وكان الأطباء كثيرين بقدر الكهنة وعدد الملوك . وكان على كل كاهن أن يتخصص فى فرع واحد من الطب كما أصبحت الحالة فى عصرنا الحالى .

وقد كان المصريون أول من مارس عادة الختان ثم أخذها عنهم الفينيقيون وبقية الأمم ، إلى أن جاءت الديانة المسيحية فأبطلتها .

وقد استُدعىَ الطبيب المصرى إلى بلاد العراق ، لعلاج إبنة أمير بوكتان .

ولا شك أن علم الكيمياء بدأ أيضاً فى مصر ، بل أن مصر نفسها كان اسمها فى القديم « كمت » ، أى الأسود — نسبة إلى تربة مصر السوداء — لكن علم الكيمياء لم يتقدم ولم يعرف كما هو على حقيقته إلا أيام العرب ، وهم الذين دعوه علم الكيمياء مشتقاً من اللفظة المصرية القديمة « كمت » .

والسحر يمتزج بالطب ، يتعاونان يداً بيدٍ ، بل إن كثيراً من الأمراض العصبية التى عجز الطب عن شفائها ، جاء السحر فشفاها .

وكان الاعتقاد السائد ، أن الجسد قد يدخله الشيطان ، فلا يخرج منه إلّا بالتمائم والتعاويذ .

وإننا لنجد كثيراً من تعاويذ الشفاء مكتوبة على أوراق البردى ، حتى أن الكثيرين يعتقدون أن الكلمة الأولى التى يكتبها الأطباء على وصفاتهم هذه الأيام (الروشتة) هى الكلمة القديمة التى كان

يستعملها الأطباء المصريون القدماء وهى كلمة « Ra » أى الإله « رع » .

فقد كان الكاهن المصرى يبدأ كتابة وصفته باسم « رع » وهذا أشبه بالكثيرين فى هذه الأيام الذين يبدأون عملهم باسم الله ، ويكتبون كل شىء مبتدئين باسم الله أيضاً .

أما الوصفات التى كانت مستعملة فى مصر فى عهدها الأول ، فكثير منها لا نزال نستعملها فى هـــذه الأيام .

وقد وجد الباحثون والمنقبون قراطيس كثيرة فى مدافن مختلفة أشبه شىء بكتب الطب فى هذه الأيام ، وجميعها مدرجة على ورق البردى .

فمنها الدرج البردى المعروف باسم أدوين ، ومنها درج هرست ، ودرج إيبرس ، ودرج برلين ، ودرج كاهون ، وسواها ، حتى أنهم وجدوا على أحد الدروج البردية عبارة خاصة برجوع الشيخ إلى صباه ، ووجدوا فى هذه الدروج ، وصفات لإخراج حصوات الكلى ، وسلّ العامود الفقرى ، والنقرس ، والروماتزم ، والتهاب المفاصل ، والشلل ، والكساح ، والبول السكرى .

وقد كانوا يكثرون من وصف الخضروات ، وذلك دليل على أنهم علموا شيئاً عن الفيتامينات ، وهم أول من استعملوا النشادر ولا نزال نحن نستعمله حتى اليوم .

وهناك وصفات مصرية تحتوى على الشبت (Dill) لإيقاف نزف الدم ، والكزبرة (Coriander) والكمون (Cumin) والكراوية (Caraway) والحلبة (Funigreek) .

وزرعوا شجر الخروع ، واستعملوا زيته علاجاً للإمساك ، ووصفوا الأفيون للأرق ، كما ورد فى درج إيبرس .

هياكل ومعابد قدماء المصريين

إن تاريخ مصر، محفورٌ ومنقوش ومسجّل على واجهات المعابد وأعمدة الهياكل، وجدران المقابر، ولوحات القصور، حيث تجد اليوم فصولاً من كتاب الموتى، وتاريخ المواقع الحربية، والأعياد والحفلات الرسمية، ومناظر الحيـــاة الخاصة والعامة، وصور الملوك والآلهة بأشكال مختلفة حسب الحوادث ومجرى الأحوال.

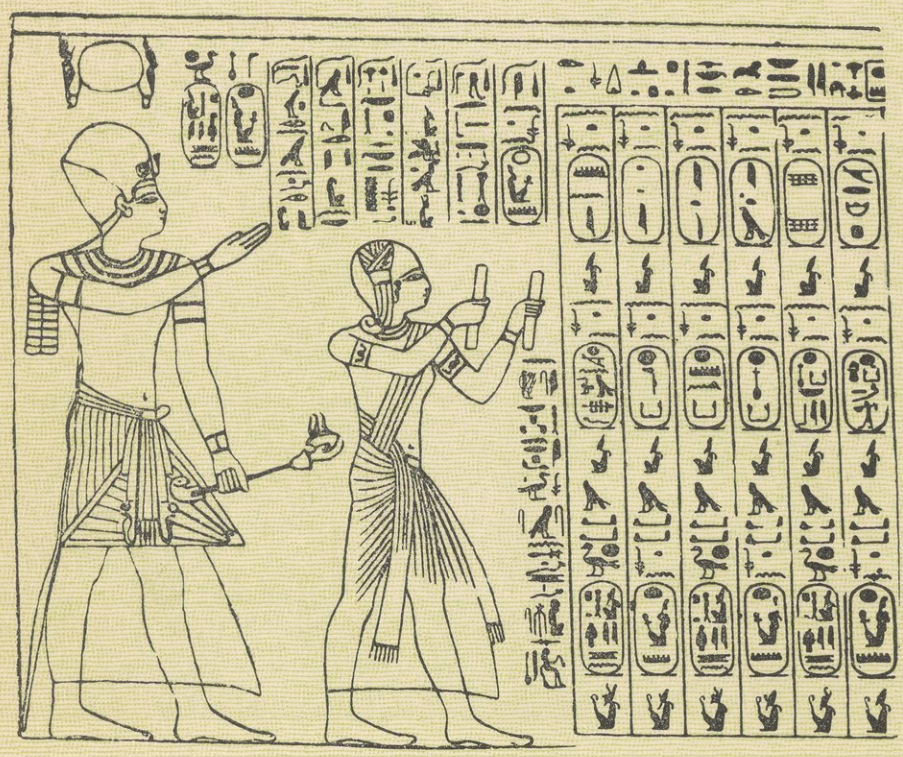

ساتي الأول وابنه رمسيس الثانى وقائمة أسماء الملوك
فى هيكل أبيدوس

ومما يستوقف النظر أن المدن المصرية القديمة هى هى لا تزال قائمة كما كانت أيام الفراعنة الأقدمين .

تبدلت أسماؤها وتغيرت معالمها ، لكن موقعها ومعابد آلهتها لا تزال شاهدة على ما كانت عليه .

وكانت كل مدينة مصرية ، مركزاً لإله تعبده ، وتجلّه وتقدسه . والحقيقة أن المدينة كانت تقوم إلى جانب المعبد لا إن المعبد يبنى فى المدينة كما يجب أن يكون .



هيكل الاله حورس في ادفو — وهو الابن الوحيد لازيس وأوزوريس

فهذه هياكل أنس الوجود ، وإسوان ، وإدفو ، التى يقوم فيها هيكل الإله حورس ، وهذه كوم امبو ، وهذه طيبة المعروفة الآن

بالأقصر . لقد كانت طيبة مدينة قديمة جداً تدعى « أبتْ » فتحوّلت مع الزمن إلى « قبط » وكانت أعظم المدن المصرية فى عصور الدولتين ١٨ ، ١٩ إلى أن هدمها قمبيز الفارسى .

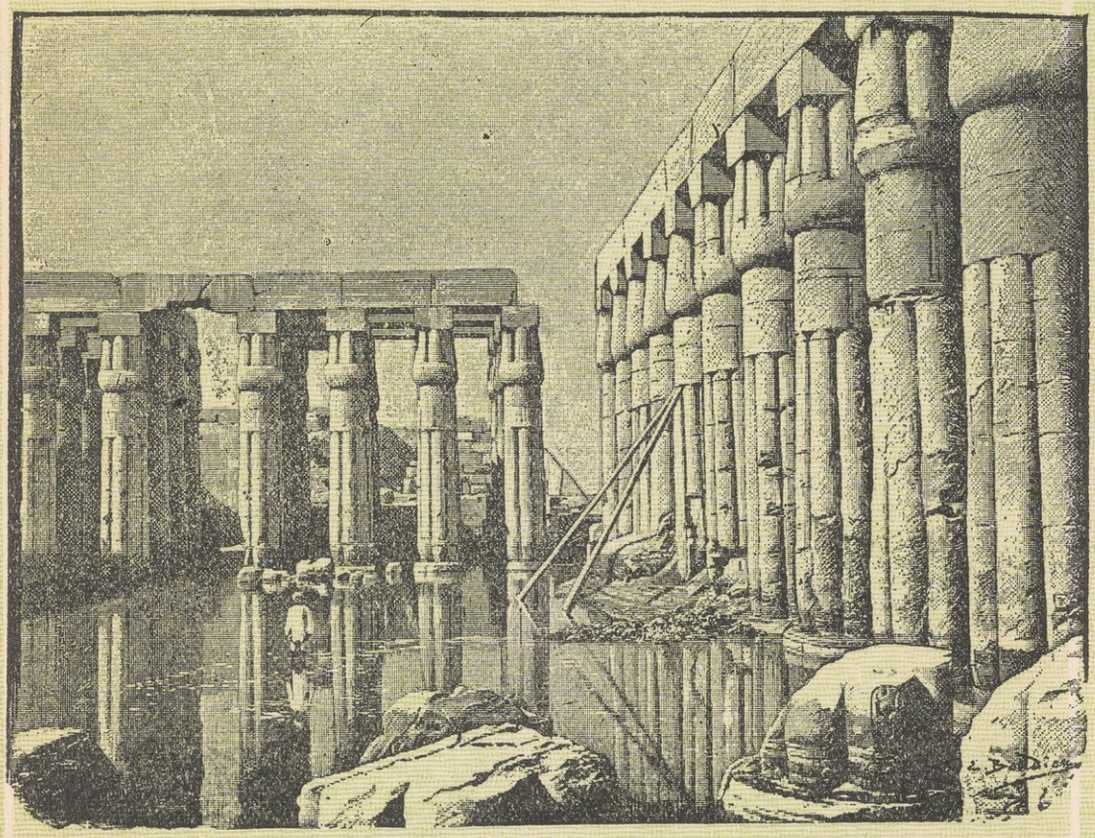

طيبة — هيكل الأقصر وقت فيضان النيل

وورد ذكرها فى أشعار « هوميروس » والياذته حيث تغنى بجمالها وأعجب بغنـــاها .

وذكرتهـا التوراة فى سِفْر النبى « ارميـــا » ٢٥ - ٤٦ . وقد أطلق عليهـا اليونانيون إسم طيبة وهو اسم إحدى مدنهم ، أما اسمها المصرى فهو « نو » أى المدينة .

وقد تخصصت طيبة لعبادة الإله آمون ، فشيدوا فيها هيكلاً لهذا الإله غاية فى الفن وخلاصة الإبداع ، أعنى به الكرنك ، وبنوا أيضاً معبد الأقصر وهو من الجلال والمهابة والفن والإتقان بحيث يعدُّ ثانى الهياكل بعد هيكل الكرنك .

وقام بجوار طيبة معابد ومدافن أهمها وادى الملوك والدير البحرى ومدينة « هبو » .

وكانت مساحة طيبة تزيد على تسعة أميال ، وقد دعاها اليونان بالمدينة ذات المائة باب ، وكانت طيبة تجنّد نصف مليون جندى فى حالة الحرب .

أما الآن فالمعابد والهياكل باقية لكن المدينة التاريخية العظيمة تقلّصت إلى قرية صغيرة .

وهذه أيضاً دندره . كانت المسكن المقدس للآلهة « هاتور » آلهة الحب والجمال والنساء .

أما إبيدوس ، التى تدعوها العامة بلدة العرابة المدفونة (البلينا) ، ففيها معبد ومدفن « أوزوريس » حيث كان يتهافت قدماء المصريين على أن يدفنوا بعد موتهم بالقرب من إبيدوس ، تبركاً من أوزوريس ، وطمعاً فى الوصول إلى الجنة بشفاعته ومسعاه .

وهذه « سوط » المعروفة الآن بأسيوط مركز عبادة أنوبيس إله الموتى ، وقد كانت رأسه رأس ابن آوى ، وكان ابن آوى يتردد كثيراً على المقابر والمدافن فى ظلام الليل . فاعتقدوا أنه يحمى الموتى والمقابر فجعلوه إله الموتى .



طيبة — معبد الكرنك من الشمال

ومنها « هرموبوليس » المعروفة الآن بأشمون وكانت مركز عبادة الإله « توت » إله الحكمة والمعرفة .

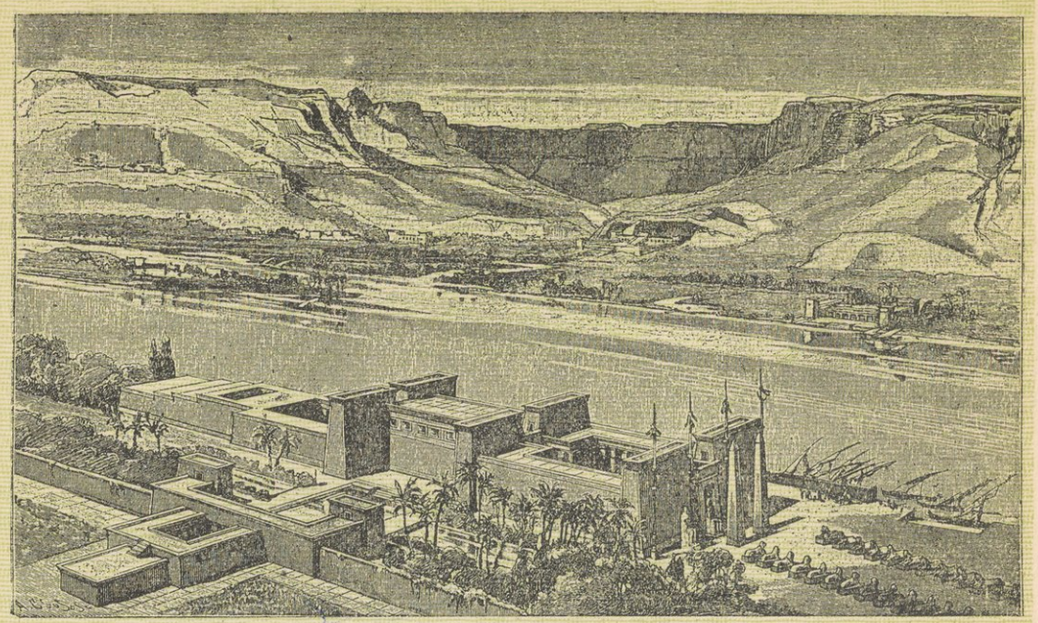

مدينة طيبة (الأقصر) وهيكل الكرنك
وأمامه الي الجهة الثانية من النيل تقع مدافن الفراعنة فى وادي الملوك

أما « تل العمارنة » مركز عبادة الإله الواحد ، فتقوم مكانها الآن قرية « الشيخ قنديل » .

وهكذا تمرّ على مدن قديمة سائراً مع النيل إلى مدافن بنى حسن ، واهناس ، إلى ممفيس وأبو سير (بوزيروس) وسقارة ، ودهشور ، إلى أن تصل إلى مدينة الأطالسة « أون » ، المعروفة الآن بمدينة الشمس « هليوبوليس » حيث خرجت أديان المصريين وفلسفتهم وآدابهم وتاريخهم .

وإذا سرت تماماً مع النيل ، وصلت إلى « تايس » حيث يقوم هيكل إله الحرب « نيت » ومنها إلى بوباسطيس « تل بسطه » حيث هيكل ومدفن القطط المحنّطة المعبودة — ومنها إلى « تنيس » (صا الحجر) حيث معبد الإله « سات » .


(الفنتين)
اسوان
كوم امبو
ادفو
اسنا
الاقصر (طيبه)
اندره
العرابه المدفونه
(ابوديس)
اخميم
اسيوط
تل العمارنه
بني حسن
الاشمونين
اهناسيا (هربوبوليس)
منف (البدرشين)
بيت رهينه
دهشور
سقاره
القاهره
هليوبوليس
اون
افاريس
الزقازيق
تل اتريب
(بنها)
تانيس
صان الحجر
بوزيروس
ابوصير
بورسعيد
البحر الابيض المتوسط
الاسكندريه

وبعد « تنيس » تصل إلى أرض « جاسان » بين البحر الأحمر والأبيض، حيث سكن اليهود فى عهد زعيمهم، يوسف بن يعقوب ابن إسحق بن إبراهيم.

وقد كانت « جاسان » فى ذلك الزمن، أفضل أرض مصر وأخصبها.

وبمدينة « أفاريس » على مصب النيل تنتهى المدن المصرية، الحافلة بالعلم، والدين، والتاريخ.

وقد كان لآمون أعظم آلهة المصريين، هيكلٌ فخم فى واحة سيوة، بالقرب من الإسكندرية.

وقد ذهب الإسكندر الكبير، يسأل كهنة آمون، إذا كان هو ابن جوبيتر أم لا!

بل إن كبار اليونان، والرومان، كانوا يقطعون المسافات الشاسعة لزيارة معبد آمون.

وقد زار هذا الهيكل القائد القرطاجنى الشهير « هانيبال » ليستشيره فى هجومه على روما، فجاء الجواب يتحمل النصر والفشل فى آن واحد.

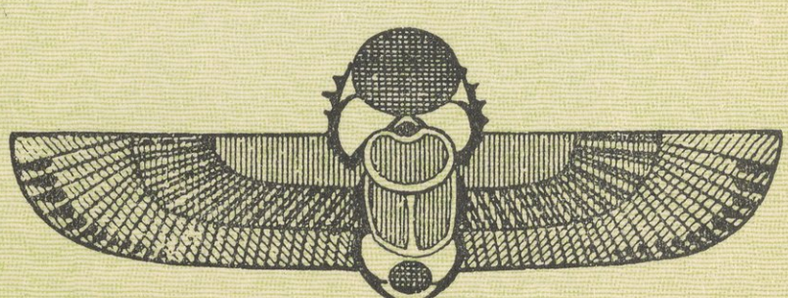

لغـــة المصريين

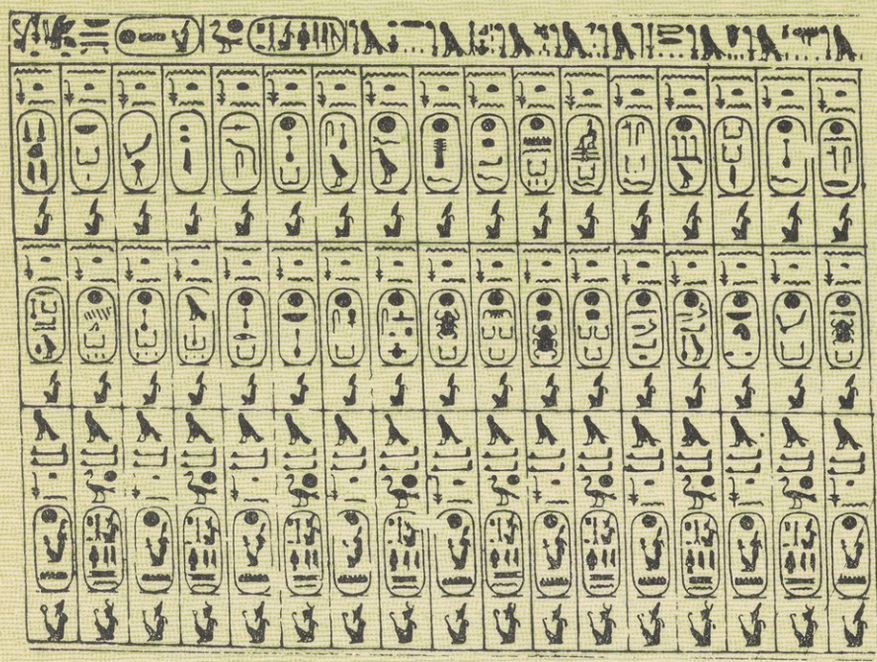

اللغة الهيروغليفية القديمة

كانت اللّغة الهيروغليفية ، لغة العلم ، والأدب ، والدين ، عند قدماء المصريين .

وأقدم ما وصل منها إلينا ، نقوش الكهنة فى الدولة الأولى . وهى صور تُكتب عمودية أو من اليمين إلى اليسار .

واللغة الهيروغليفية هى لغة الدين المقدسة .

واستمرّ استعمالها إلى القرن الرابع بعد الميلاد ، فاختفت الديانة الوثنية ، واختفت معها اللغة الهيروغليفية .

أما الخط الثانى فهو الخط الهيراطيق ، وهو مختصر الهيروغليفى ويكتب من اليمين إلى اليسار .

أما الخط الديموطيقى فهو خط الشعب فى أواخر التاريخ المصرى فى عهد الأسرة السادسة والعشرين .

أما الخط الأخير فهو الخط القبطى وأكثره مكتوب بالأحرف اليونانيـــة .

ولم يستطع العلماء فكّ رموز اللغة المصرية القديمة ، حتى اكتُشف حجر رشيد « روزيتا » عام ١٧٩٩ وهو مكتوب على أيام بطليموس الخامس وعليه ١٤ سطراً باللغة الهيروغليفية و ٣٢ سطراً باللغة الديموطيقية و ٥٤ سطراً باللغـــة اليونانية(١) .

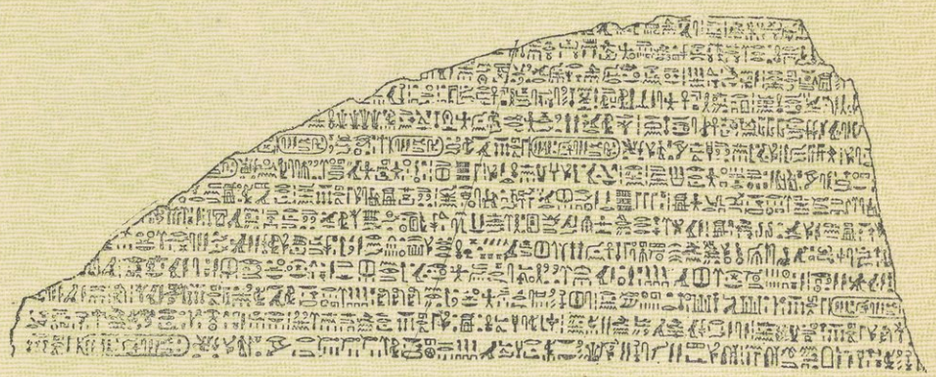

حجر رشيد (روزيتا) الذي كان الواسطة لاكتشاف معرفة اللغة الهيروغليفية

وقد حلّ رموزه البحاثة « شامبليون » الفرنسى مع زميله الدكتور « توماس بنج » الإنكليزى ، فسهّل على العلماء قراءة جميع الحروف المصرية المحفورة على الأعمدة والهياكل والمقـــابر . وانفتح تاريخ مصر على مصراعيه أمام المؤرخين والباحثين والمنقبين .

---

(١) حجر رشيد اكتشفه في رشيد المسيو « لاشاد » أحد ضباط الحملة الفرنساوية سنة ١٧٩٨ أثناء اشتغاله بترميم قلعة رشيد فحملوه الى فرنسا حيث حل رموزه المسيو شامبليون .

ديانة المصريين

أما ديانة المصريين ، فكانت صورة مصغّرة ، من الديانة المسيحية نفسها .

« أوزوريس » تزوج أخته « إيزيس » فولدت ابنها الوحيد : « هورس » (الأب والإبن والروح القـــدس) .

والحق يقال إن مصر علّمت العالم خلود النفس ، والحياة الثانية ، فسهّلت الطريق لمجيء المسيحية .

وقد جاء فى الأساطير أنه لما ولد « أوزوريس » سمع المصريون صوتاً من السماء يقول « هذا هو الإله العظيم الآتى إلى العالم » .

ويقابل ذلك ما جاء فى الإنجيل عن ولادة السيد المسيح من أنه سُمع صوت من السماء يقول « هذا هو ابنى الحبيب الذى به سررت » .

أما « ساتى » فكان الشيطان كما نعرفه فى توراة العهد القديم .

ولا شك أن اليهود أخذوا فكرة الدينونة من قدماء المصريين ثم اقتبستها عنهم بقية الأديان .

وقد رأيت أثناء زيارتى لمعبد الأقصر ، صورة الإله آتِ يبشّر « إيزيس » ، بميلاد طفلها الذى سيكون إلهاً . إن ذلك منقوش على جرانيت المعبد ، وهو أشبه بصورة الملاك جبريل آتِ ليبشّر العذراء بميلاد السيد المسيح .

وقبل أن يظهر « مينا » الملك المصرى الأول ، كانت هليوبوليس (بيت الشمس) مدينة عظيمة مشهورة بالعلم والدين وعاصمة المملكة المصرية القديمة التى لا نعرف شيئاً عنها .

وقد ظهر الدين فى هليوبوليس بمعناه الحقيقى وهو عبادة إله واحد ، رب السموات والأرض خالد لا يموت .

ومن هليوبوليس ، انتشر الدين فى جميع ممالك مصر ، فأصبح لممفيس إله ، ولطيبة إله ، بل لكل مدينة وقرية إله . لكن مرجع جميع هذه الآلهة ، هو الإله الواحد الذى علّمته هليوبوليس لمصر ، وهو الإله القادر على كل شىء ، وجعلوا الشمس رمزاً له ، لأنه أصل كل حياة — أما اسمه فكان « آتون » .

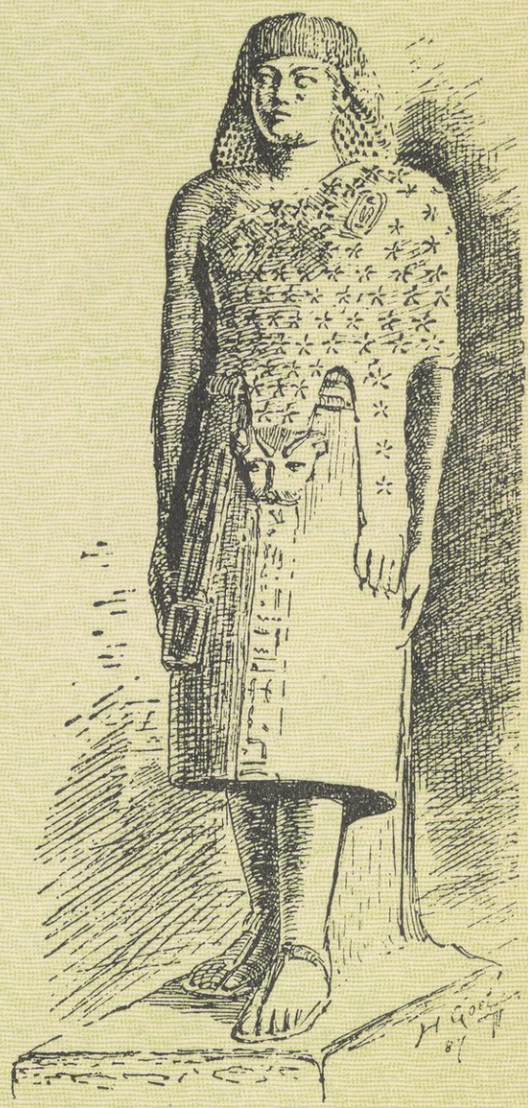

تمثال «أمن أن» رئيس كهنة «أون» هليوبوليس والأصل موجود في متحف تورين فى ايطاليا

إن المصريين لم يعبدوا الحيوانات كأنها حيوانات . بل كانوا يعتقدون ، أن

أرواح الآلهة تتقمّص أو تحـــلّ ، فى بعض الحيوانات . ومن هنـا نشأت عبادة هـــذه الحيوانات ، التى تقمّصت فيها أرواح الآلهة . كالعجـــل أبيس ، والبقرة هاتور .

لقد وجدوا « الجُعل » مختفياً فى الرمال ، فاعتقـــدوا بأقدميّته ، وأزليته وتجـدّده ، وخالوه موجوداً بذاته وجوهره ، يتوالد من نفسه ، فقادهم ذلك إلى الإيمان بأن الإله « رع » ، أى الشمس تقمّص فيه .

أما فى منفيس ، فكانوا يعبدون الإله « فتاح » ، واعتقدوا أن روح « فتاح » حلّت فى العجل « أبيس » ، وكلما مات عجل حلّت روح « فتاح » فى عجل آخر ، فقادهم ذلك إلى عبادة العجل أبيس الذى تجد جثته المحنطة فى معبد السرابيوم بسقارة ، مقبرة مدينة ممفيس .

وفى طيبة كانوا يعبدون الإله « أمون » وزوجته « توت » وابنه الوحيد « خونصو » ويعتقدون أنهم ثلاثة فى واحد وأن المصريين عبدوا آلهة كثيرة متعددة ، لكن هذه الآلهة كانت بمثابة الأنبياء الكثيرين عند المسيحيين . وكلهم تابعون للإله الثالوث الأعظم ، الإله الأكبر الواحد المتعالى .



عبـــادة الأشجار

على أن عبادة الأشجار لم تكن نادرة فى مصر ، فمثلا نجد أن شجرة الجُّميز كانت مأوى للآلهتين « نوت » و « صخور » ، وقد



مصرى قديم وزوجته يتضرعان أمام شجرة الجميز التي تسكن بها روح الآلهة

وضع تابوت أوزوريس فى جنبها ، وكذلك شجرة السّرو كان يحل فيها روح الإله « مين » ، وقد كان وجود أى شجرة من هذه الأشجار فى مكان ما يجعلها موضع تقديس ، لأن روح

الإله التى هى رمز له كانت تسكن فيها .

وكانت السماء فى نظرهم على شكل امرأة منحنية الجسد ، مستندة إلى الأرض ، بيديها ورجليها .

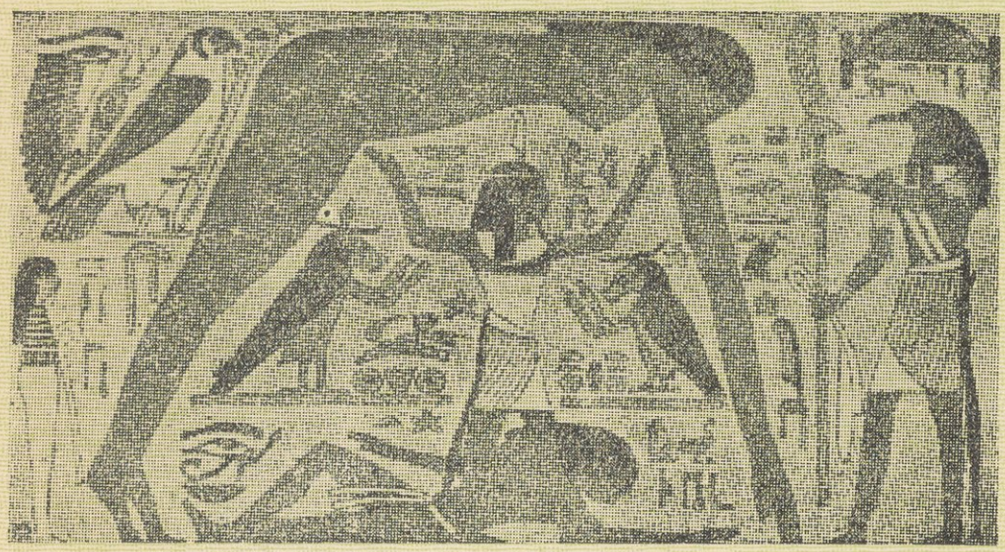

السماء كما تصورها المصريون امرأة منحنية الجسد مستندة الي الأرض بيديها ورجليها

وتخيلوا أن للشمس جناحين تطير بهما فى الأفق ، ولذلك صار قرص الشمس رمزاً دينياً هاماً .

أما شعاع الشمس فكان رمزاً لدموع الآلهة التى تسكبها حزناً على البشر .

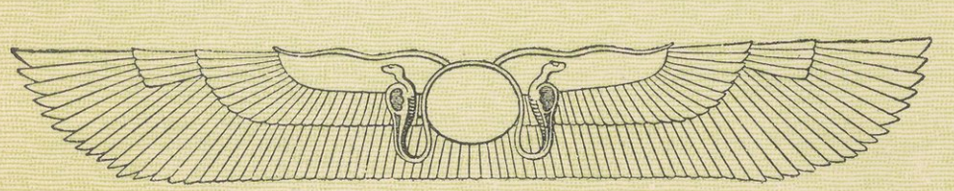

الدّين

لقد بحثت فى صميم التـــاريخ الدينى القديم .

لقد درست ، واطّلعت على مؤلفات ومجلدات كثيرة .

فوجدت أن المصريين عبدوا طول حياتهم ، وجهادهم على هذه الأرض ، إلهاً واحـداً جعلوا له فى كل بلد من أقطار مصر ، إسماً غير اسمه فى القطر الآخر .

فهو « أتون » فى هليوبوليس ، و « رع » فى منفيس ، و « أمون » فى طيبة ، و « أوزوريس » فى إبيدوس (البلينا) والعرّابة .

ثم جعلوا لأنفسهم إلهاً لكل غرض ولكل غاية ، للريح ، والهواء ، والماء ، والموت ، والحرب ، والحب ، والطب ، والأطفال . .

لـكن جميع هذه الآلهة كانت تابعة للإله الأكبر ، كما هى حالة القديسين عند النصـارى ، والأولياء عند المسلمين .

إن المصريين عرفوا هـذا الإله الواحد ، وعبدوه بأشكال مختلفة وأسماء مختلفـة .

وعرفوا آدم ، وجعلوه إسماً للإله الأكبر ، ثم حرّفوه إلى « أتوم » . . .

إن الصلاة والسلام على الأنبياء ، وإنزالهم فى أكثر الأحيان منزلة الإلهة ، أمر مألوف فى مصر وجميع البلاد العربية .

بالأمس رأيت سيدة مصرية تتضرّع إلى السيدة زينب طالبة منها الرحمة والمساعدة .

ورأيت رجلاً يتضرّع للسيد البدوى ، وآخر لسيدنا الحسين .

وفى كثير من البلاد الشامية والعراقية يبتهلون إلى الحسن والحسين أولاد على بن أبى طالب .

وإذا زرت اليوم الأقطار النصرانية فى لبنان ، وجدت فى كل قرية قديساً يعبده الناس ، ويلجأون إليه ضارعين ، طالبين رحمته ومساعدته فى الشفاء ، والنجاة من المصائب والأمراض .

ففى قرية ، تجد مار يوسف ، يسيطر على أهالى تلك القرية .

وفى سواها ، تجد مار جرجس ، وفى غيرها مار يوحنا ، ومار إلياس ، ويعقوب ، وبطرس ، وبولس ، وتجد دميانة ، ومريم ، وألوفاً من هؤلاء القديسين والقديسات .

حتى فى إيطاليا نفسها ، تجد مريم العذراء ، أم السيد المسيح فى كل مدينة ، تخالف مريم العذراء فى المدن الأخرى .

وهكذا كان للمصريين ، آلهة كثيرة كأولياء المسلمين وقديسى النصارى اليوم .

أنها آلهة كثيرة مرجعها إله واحد .

لقد اعتقدوا بوحدانية الله ، ثم تطرّقوا مع الزمن إلى عبادة صفات الإله الواحد ، فجعلوا لكل صفة منها إلهاً مستقلا عن الآخر .

فلم تكن البقرة هاتور ، سوى رمز للعطف والحنان .

كما كان العجل إبيس ، رمزاً للقوة والنشاط .

وقد كانت جميع آلهتهم رمزيّة ، دائريّة ، ترمز فى نهاية الأمر إلى الإله الواحد ، الذى كان مركزه فى منتصف الدائرة .

وقد كانت زهرة اللوتس مقدّسة لأنها كانت مستديرة تشبه الدائرة — وكان العقل عندهم دائرة أيضاً ، وهو مظهر الإله الأكبر ، يتوسط الدائرة .

وكانت حبوب اللوتس تنمو داخل غلافها ، ثم تمزّقه وتنمو فى الماء رافعة نفسها فوقه على شكل دائرة .

ومن المدهش ، أن أميراً هندياً ، جاء قبل المسيح بخمسمائة سنة ، فأخذ فكرة الدائرة عن المصريين .

وكان هذا الأمير الشاب ولىّ العهد لمملكة أبيه ، وعلى جانب عظيم من الجاه ، والثروة ، والنفوذ ، لكنه وهب جميع ما يملك ، وتنازل عن الملك وطاف فى الهند وتيبت ، يبشّر بهذا المبدأ الدينى ، إلى أن وصل به الطواف إلى بلاد الصين ، فاعتنقت الصين هذا المبدأ ، وجعلته دينها الرسمى ، المقدّس .

أما الأمير الهندى ، فكان اسمه « جوتاما » لكن أتباعه دعوه « بوذا » أى الرجل العالم بكل شىء .

وعُرف الدينُ الجديد بالديانة البوذية التى نادى بها الإله الهندى « جوتاما » ، الذى اقتبس حكمة مصر . وجعل ديانته كدائرة يتوسطها الإله الأكبر .

وليس فى العالم بأجمعه شعب ، تغلغلت مراسيم الدين ، فى حياته العامة ، والخاصة ، كالشعب المصرى .

فى البيت والمعبد ، وفى الأفراح والأتراح ، وفى الطب والعلم والأدب ، وفى الحفلات والمراسيم ، وفى الرسم والنقش ، وفى المقابر والهياكل ، وفى الاهرام وأبى الهول ، تجـــد فى كل صورة من صور حياتهم رمزاً للدين ، مبدأه الدين ، ومرجعه الدين .

ذلك لأن الدين طغى على كل شىء سواه .

وأصبح المصرى يعيش للعالم الآتى ، لا لهذا العالم الفانى ، لأن المبدأ الأساسى فى حياة المصريين كان الروح لا الجسد ، لأن الروح خالدة إلى الأبد ، أما الجسد فيفنى .

واعتقد المصريون — كالمسيحيين — بالحياة الخالدة ، واعتبروا أن الأموات تتحوّل إلى طيور بعد وفاتها ، وتعلو فى السماء إلى فوق طبقـــات الهواء حتى تصل إلى « رع » أى الشمس فتصبح هناك نجوماً أزلية تعيش إلى الأبد .

وإنى أعتقد أن الخلود أو الأبدية عند قدماء المصريين كان

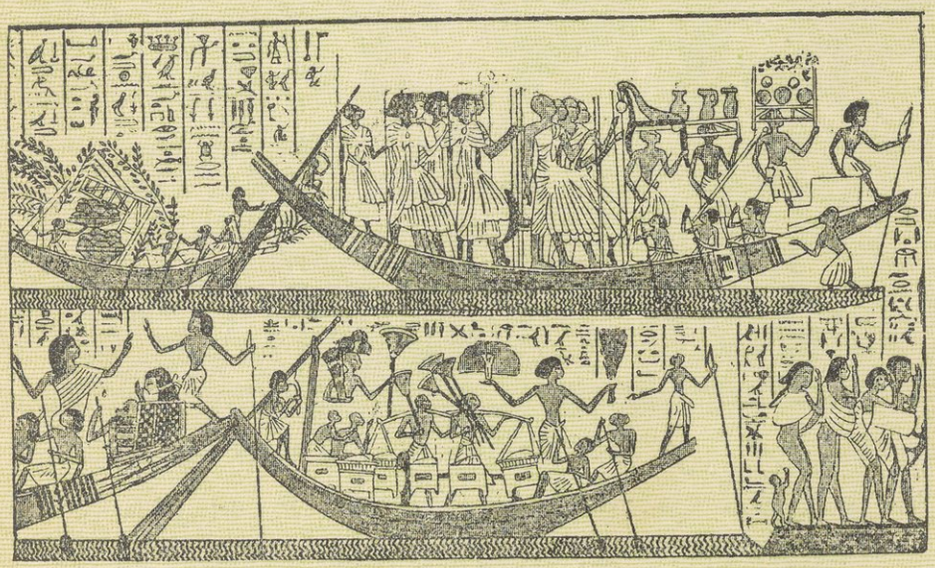

مراكب الجنازة حاملة أمتعة الميت وأصدقاءه

معناه التجدد الدائم ، وتكرار حلقة الزمن وسلسلة الوقت ...

وقد كان الموت فى نظرهم طريقاً يعبر منه الإنسان ليجدد حياة أخرى . لذلك كانوا يدفنون مع الميت أمتعته وأثاث بيته وكل ما كان يملك فى حياته ، ولم يكن الموت سوى نوم طويل الأمد .

وإنى أجزم أن الكثير من الطقوس الدينية الموجودة عند النصارى مأخوذ من عبادات قدماء المصريين .



المراكب تحمل الندابات وأهل الميت

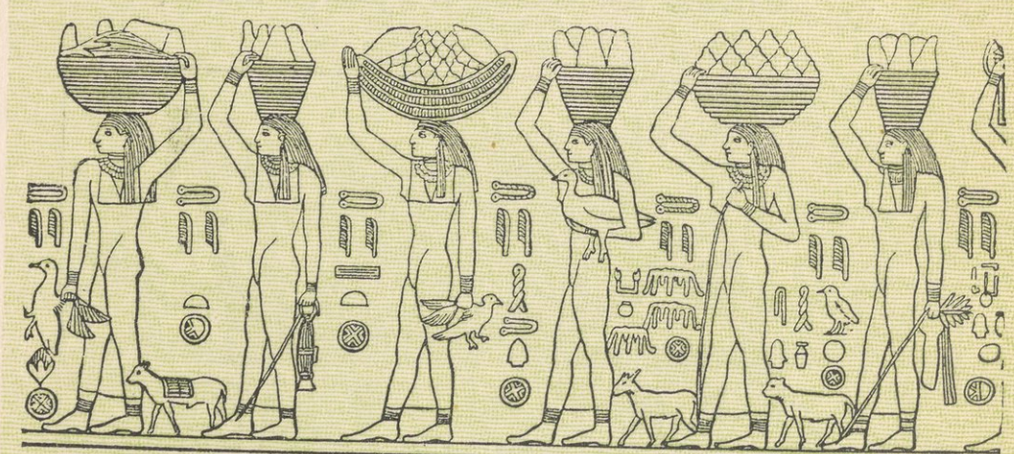

وجدت هذه الصورة محفورة على الجرانيت في مقبرة الملكة ثي أم الفرعون اخناتون ونجد كثيراً منها فى المقابر لأنها تمثل حياتهم التى سيعودون اليها بعد الموت. وهى منظر فلاحات مصريات حاملات محصولات مزروعاتهن وبيدهن الفراخ والغريب أننا نرى اليوم ذات المنظر فى جميع أسواق المدن والقرى

عبـــادة العجـــل

أما عبادة العجل، فقد بدأت منذ القدم، وهى معروفة فى التاريخ حتى أن اليهود فى فترة من تاريخهم، قدّسوا العجل وعبدوه بعد أن تعلموا عبادته فى مصر.

إن الشعوب بأجمعها عبدت هذا العجل. لأنها وجدت أنه الحيوان القوىّ الأليف، الذى يحسن التوليد، ويحتمل الحرب والقتال، وتتمثّل فيه القوة الجسدية العنيفة.

وقد ذكر منيتو المؤرخ المصرى القديم — أن كيخوس — أحد فراعنة الدولة الثانية كان أول من عبد العجل.

لكن المؤرخ «إليان»، يعود بعبادة العجل إلى فرعون مينا، أول ملوك المصريين.

وبقيت عبادة العجل فى مصر، إلى أيام الاسكندر، والإمبراطور تيطوس — وكل منهما قدّم القرابين إلى العجل، وسجد له.

وكان إذا مات العجل المعبود، حنّط الكهنة جسده، ودفنوه باحتفال عظيم.

والاعتقاد السائد أن البرق يهبط من السماء على بقرة، فتلد هذا العجل بلونه ووصفه المرغوب، فكأنها تتّحد بالسماء لتلد هذا العجل المختلف بشكله عن بقية العجول.

إذاً فعبادة العجل لم تكن لجميع العجول بل لعجل واحد مقدّس مخصوص هبطت على أمّه قوة السماء والآلهة.

وفى سنة ١٨٥١ ميلادية ، اكتشف مريت باشا ، معبد السرابيوم الشهير فى سقارة ، حيث وجدت أجساد هذه العجول محنّطة ومدفونة فى توابيت من حجر الجرانيت ، الذى يزن كل ناووس منها على حدة نحو ٥٨ طناً ، نقلوها من إسوان ، إلى سقارة .

وهى مزيّنـــة بالرسوم ، والصور ، والحروف الهيروغليفية ، والنقش ، والحفر ، الذى يكاد يسلب العقول .

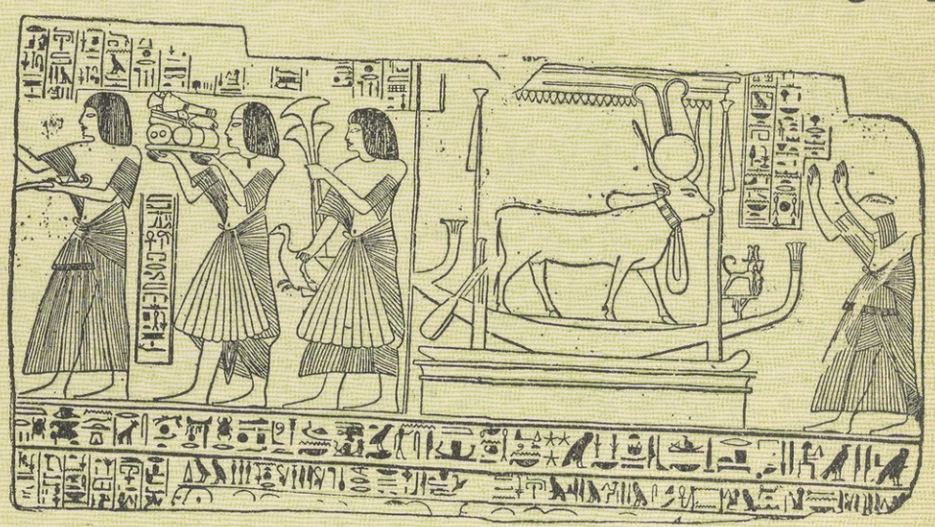

العجل ابيس على سفينة الشمس وأمامه الكاهن يقدم له العبادة
وفى الجانب الآخر ترى الكاهنات يقدمن الذبائح والقرابين

وكان الاعتقاد ، أنه إذا مات العجل ، صعدت روحه إلى السماء ، واتحدت بروح أوزوريس .

حتى أن عبادة العجل المتحد بأوزوريس ، عمّت الإمبراطورية الرومانية بأجمعها ، ودخلت منها إلى جميع ممالك أوربا ، ووصلت إلى الجزائر البريطانية ، حيث أقام الإنكليز الأقدمون معبداً للعجل المتحد بأوزوريس ، فى مدينة يورك الشهيرة .

وإذا حضرت احتفال المسيحيين ، بجنـــازة السيد المسيح ،

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO AUC - LIBRARY

يوم قيامه من الأموات ، لوجدته أشبه شيء باحتفال قدماء المصريين بعيد «أوبيت» (OPET) الذى يحتفل فيه بنقل تمثال الإله آمون ، من معبد الكرنك إلى معبد الاقصر .

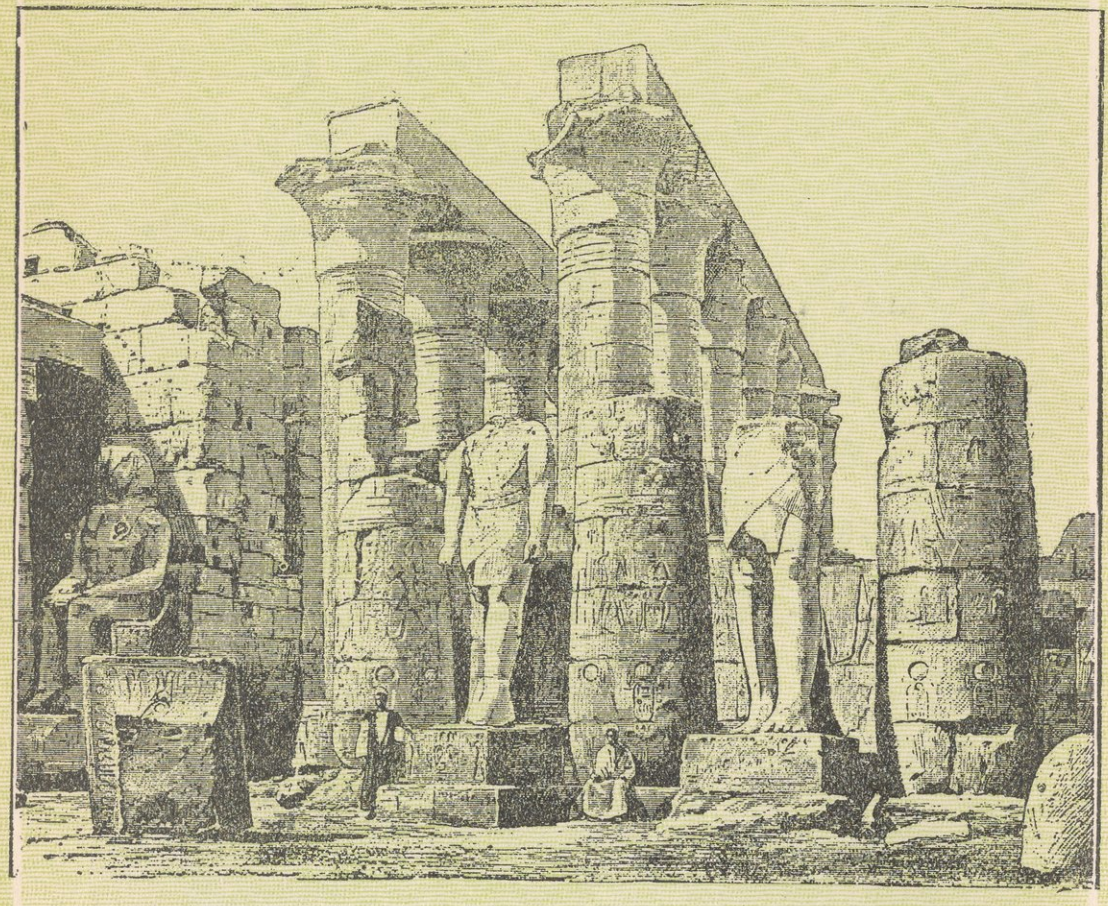

(معبد الأقصر) قاعة سانى الأول وتماثيل رمسيس الثانى

وقد أخذ الرومان ، واليونان ، أديان المصريين ، وتبنوها لأنفسهم ، لكنهم غيّروا الأسماء ، لتتّفق مع لغتهم ، وعوائدهم .

فقد دعوا أوزوريس — ديونيسوس .

ودعوا إيزيس — ديميترس .

وهورس — أبولّو .

وسات — تيفون .

وآمون — زيوس .

وهاتور — أفروديت .

وخنسو — هرقل ،

وباست — ارتاميس .

وفتاح — فلكان .

والعجل أبيس — سرابيس .

وقد أخذ اليونانيون بديانة المصريين ، وعبدوا آلهتهم جميعها، حتى أن هياكل ومعابد كثيرة ، بنيت فى أيام البطالسة ، على نمط معبد دندرة ، وإدفو ، ومعبد كوم امبو ، وأنس الوجود ، حيث أقام يوليوس قيصر وكليوباترا ، عاموداً للعبادة ، تذكاراً لزيارتهما لذلك المعبد فى رحلتهما الشهيرة فى النيل. لقضاء شهر العسل بعد زواجهما .

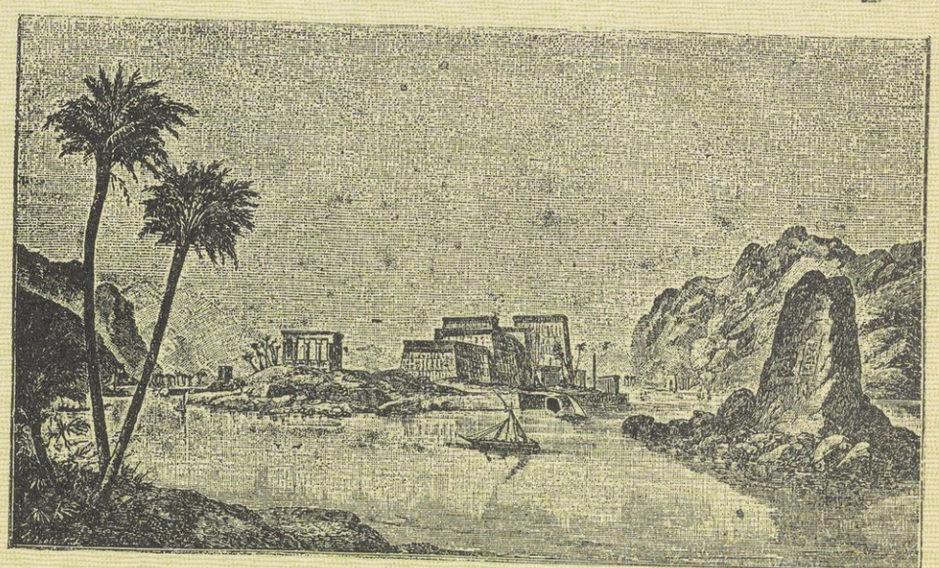

جزيرة أنس الوجود (فيلى المقدسة) بعد أسوان في منتصف النيل وقد زارها يوليوس قيصر وكليوباترا وأقاما بها عموداً أثرياً تذكاراً لتلك الزيارة

القطـــط

وكانت القطّة مقدّسة فى جميع العصور فى مصر ، لأن الإله « باست » تجسّد وتقمّص فيها .

وفى كتاب الموتى نص صريح ، على أن القطة، هى التى قطعت رأس الحيّة المنسابة فى الظـــلام ، وساعدت على قتل أعداء أوزوريس.

فكان المصريون يحترمون القطط، ويحرّمون قتلها ، ويحنّطون جسدها بعدموتها، ومن قتل قطة كان جزاؤه الموت .

لقد قتل رجل رومانى قطة خطأ، فرجمه الشعب المصرى إلى أن مات .



القطط المحنطة التي عبدها المصريون القدماء اعتباراً أن أرواح الآلهة تقمصت فيها وقد وجد الملايين من هذه القطط المحنطة في مدافن « بني حسن »

آلهـــة قدماء المصريين

قامت دعائم الدّين المصرى القـــديم ، على مثلّثين تشعّبت منهما بقية الآلهة والعبادة .

الثالوث الأول : ثالوث إبيـدوس (عرابة المدفونة بالقـرب من جرجا) .



الاله حورس

أوزوريس — الأب ، وعبادته فى مدينة إبيدوس .

إيزيس — الأم .

حـورس — الابن ، وعبادته فى طيبة .

* * *

الثالوث الثانى : ثالوث طيبة .

آمون — الأب وعبادته فى طيبة .

مُت — الأم .

خونسو — الابن .



الاله خنسو

* * *

الثالوث الثـالث : ثالوث منف .

فتـــاح .

سكمت — زوجته .

هرماكوس — الابن .

ومن الغريب ، أنه لم يقم إله مصرى ، إلّا كانت له امرأة ، سواء كانت زوجة ، أو رفيقة .

أما آلهـــة المصريين فاهمهم ما يأتى :



الاله رع اله الشمس

١ — الإله « رع » - إله الشمس . ورع هو الإسم الذى أطلقه المصريون على قرص عين الشمس ، التى ابتدأت عبادتها فى هليوبوليس .

لقد عبد المصريون الشمس ، منذ أول وجودهم . وقد اندمج « رع » بالإله « أيوم » - إله هليوبوليس القديم فعبدوه وشاهدوا العُقابَ يرتفع كثيراً حتى السحاب فاعتبروا أن له صلة بالشمس التى هى الإله ، لذلك نجد رسم « رع » عبارة عن جسم إنسان برأس عقاب .

وكان مسير الشمس من الشرق إلى الغرب ، ثم اختفاؤها فى الأفق دليل على أنها تسير فى عالم تحت الأرض فى مركب تقوده الآلهـــة توت ، ومعت ، وحورس ، ثم تقطع الظلام الذى تمثله الحية « أبيب » ، أو الوحش الذى كان يبتلع الشمس . وقد ابتـــدأت عبادة « رع » فى أون المعروفة بهليوبوليس .



الالهـة نيت سيدة مدينـة سايس

٢ — الإلهـة « رات » هى رفيقة رع ، وزوجته .

٣ — الإلهة « نيت » (سيدة مدينة سايس) وهى أم الإله « رع » ، وهى التى ولدت حينما لم يكن بشر على الأرض .

٤ — الإله « أوزوريس » . وظهر أوزوريس ودامت رحى التنازع بين كهنة رع ، وكهنة أوزوريس ، سنين طويلة ، انتصرت بعدها أوزوريس انتصاراً عظيما ، وكان الاعتقاد الأول أن رع هو الإله الأول ، وأوزوريس ابنه ، وقد دفن أوزوريس فى إبيدوس ، المعروفة اليوم بالعرابة المدفونة .

٥ — الإلهة « إيزيس » زوجة أوزوريس وأخته ، وحكايتها مشهورة وقد مرّ ذكرها .

٦ — الإلهة « موت » وكانت زوجة جب ، وأم أوزوريس ، وإيزيس ، ونفتيس ، وسات ، وهى التى كانت تلد الشمس كل صباح ، وهيكل عبادتها فى دندره .

٧ — الإله « أتون » الإله الواحد الذى يرمز له بقرص الشمس ، واهب الحياة والحرارة للعالم ، وقد أخذه كهنة هليوبوليس عن سواهم من الإطالسة وبعدهم من الفينيقيين ، وعبدته مصر أيام أخناتون كإله واحد .

٨ — الإله « أتوم » : أما أتوم فكان الإله الأول القديم لهليوبوليس وقد اتحد مع « رع » فكان « الجُعل » فى الصباح ، و « رع » فى منتصف النهار ، و « أتوم » فى المساء قبل الغروب .

وكان المصريون يصورونه فى شكل رجل عجوز ، قدمه فى القبر .

٩ — الإله « الجُعل » : وكان الجُعل إلهاً لأنه كان يدفن بيضه فى الرمل . ثم يفقس البيض بفعل حرارة الشمس ، فاعتقدوا أنه

يتوالد من نفسه ويستطيع خلق الشيء ، وإيجاده ، لأنه خلق نفسه وأوجدها . وقد كان الجُعل عند قدماء المصريين ، إشارة إلى القيامة ، لأنه كان ينهض ويقوم من الرمال .

١٠ – الإله « آمون » : هو الإله الذى لايراه أحد .

كان يتمثله المصريون رجلا بلحية طويلة وعلى رأسه ريشتان . وكانت طيبة عاصمة عبادة الإله آمون حيث يتحد مع الإله رع .

وكان « آمون » الإله الأعظم ، لأن ملوك طيبة وكهنتها ، كان لهم النفوذ الأعظم فى أرض مصر وهم الذين فتحوا سوريا ، وفلسطين ، وسلبوا كنوزها وأموالها ، وذهبها ، وسكبوه فى هياكل آمون .



الاله آمون ـ رع

١١ – الإلهة « مت » : كانت مت زوجة الإله آمون ، ومعبودة مثله ، وكان المصريون يدعونها سيدة السماء . بنى لها أمنحتب الثالث معبداً فخماً فى طيبة بجانب معبد آمون وقد ورد ذكرها فى كتاب الموتى .



الالهة مت
زوجة الاله آمون

١٢ – الإله « فتاح » هو إله ممفيس العظيم ، وقد تجسدت فيه الشمس المشرقة ، وهو الذى يفتح النهار كل صباح بشروق الشمس . وقد وجد

اسمه محفوراً على أحجار الأهرام ، وورد ذكره فى كتاب الموتى كمهندس بنى كل ما فى الوجود .

١٣ – الإلهة « سخمت » . هى رفيقة الإله فتاح وزوجته .

١٤ – الإله « بست » هو الذى تقمّص فى القطط . لذلك كانت القطط مقدّسة ومعبودة ، وهو يُمثّل بجسم امرأة ، ورأس رجل .

١٥ – الإلهة « هاتور » . هى حامية النساء ، وإلهة الحب ، والسعادة ، وسيّدة السماء ، وكان الاعتقاد أنها تتقمص فى البقرة فجعلوا البقرة رمزاً لها ، وهى أم الإله رع ، وزوجته ، وابنته . وكانت إلهة القمر كما كان رع إله الشمس . فإذا ظهر القمر قبل الشمس ، كانت هاتور أمه . وإذا ظهر القمر مع الشمس كانت هاتور زوجته ، وإذا ظهر القمر بعد الشمس ، كانت هاتور ابنته .

ولا يزال هيكلها قائماً فى « دندره » بالقرب من أسوان .

١٦ – الإله « هابى » إله النيل . وقد كان له خصائص الرجال والنساء ، وذلك دليل على القوة ، والنموّ ، والتوليد ، أو الخصب الذى يقدمه النيل لمصر .

١٧ – الإله « خنسو » . إله القمر ، وقد عبده اليونانيون تحت اسم « هرقل » ، وهو ابن أمون ومُت .

١٨ – الإله « إينوبيس » . إله الموتى ، وحارس القبور ، وهو ابن أوزوريس من أخته نفتيس ، وله جسد إنسان ، ورأس ابن آوى ، إشارة إلى أن هذا الحيوان يطوف ليلًا حول المقابر . وكان يقود الموتى إلى أحضان أوزوريس ، وإلى العالم الآخر . وهو كالكلب الذى يقود التائه فى الصحراء . ويعتبر إينوبيس إله التحنيط عند المصريين .



اينوبيس اله المقابر

١٩ – الاله « سات » إله الشر . وهو ابن حاب ومُت ، وأخ أوزوريس وإيزيس .

٢٠ – الإلهة « نفتيس » . زوجة سات وأخته وأخت إيزيس وأوزوريس ، وقد ورد ذكرها فى كتاب الموتى .

٢١ – الإله « توت » . إله السماء ، حامل سجلّ الأموات ، ومقيّد أعمال الروح ، ومخترع علم الفلك والنجوم ، وهو الذى اخترع حروف الهجاء ، وعلّم الناس الدين والتاريخ والكتابة .

٢٢ – الإلهة « معث » . وهى زوجة توت ، وإلهة العدل ، والنظام ، والحقيقة ، والقانون ، وكان هيكلها فى مدينة « سوط » المعروفة الآن بأسيوط .



الالهة معث إلهة العدل

كتاب الموتى

هذا هو السفر الجليل ، والكتاب المقدس ، الذى قامت عليه دعائم الحياة المصرية ، فى هذا العالم وفى العالم الآخر .

ما كان ليُدفن المصرى فى لحده إلا إذا وضع بجانبه أو نقش على قبره ، آيات ، وتعاويذ ، وأدعية ، من كتاب الموتى .

ويستطيع الانسان أن يدرك من قراءة كتاب الموتى أن المصريين كانوا يعتقدون بخلود النفس ، والحياة الأبدية ، فى العالم الثانى : وإن كان هذا الاعتقاد غير واضح وغير صريح . ولا ينسى القارىء أننا نتحدَّث عن الانسان ، قبل خمسة آلاف سنة ، لا بل عشرة آلاف سنة .

لم تكن السماء عندهم واضحة ، كما هى عند اليهود ، والمسيحيين ، والمسلمين .

فقد كان يتخيلّها المصرى ، قريبة فوق مرتفعات الجبال ، حيث يستطيع أن يصل إليها بسلّم ، أو هى تحت الأرض ، حيث ينتقل إليها فى سفينة .

وكانت جهنّم فى نظرهم حيواناً يدعى « بابى » يفترس الموتى إذا ثبتت إدانتهم ، وحكم عليهم بالفناء .

ويصف لك كتاب الموتى : الجنة ، والسماء ، والجحيم ، والمطهر ، ومحاكمة الأموات ، وكل ما سيلاقيه الإنسان فى العالم الآخر الذى ينتقل إليه بعد وفاته .

ويعلّمك كتاب الموتى: كيف تعيش، وتدافع عن نفسك، فى العالم الآخر، وكيف تتقمّص إلى حيوان يتحول إلى إله، وتتخذ لجسدك أى شكل من أشكال الحيوان، أو الطيور.

إن كتاب الموتى هو مجموعة التعاليم الدينية، والتمائم، والتعاويذ، والعلوم، والمعارف، وكل ما يحتاج إليه الميت فى العالم الآخر.

هو دائرة معارف ما بعد الموت.

هو كتاب الإنسان، من يوم ولادته إلى يوم مماته.

هو القوانين، والشرائع الإلهية.

هو أقدم كتاب فى الدنيا.

هو محكمة الأموات، بقضاتها، ومحاميها، وآلهتها.

هو شريعة الأحياء، وقانون الأموات.

هو الجنة والخلود، أو النار والفناء.

إن التعاليم فى كتاب الموتى، تحفظ الجسد سالماً، وتمنع عنه الفناء والبلاء، وتساعده على السكنى والوجود مع الآلهة فى النعيم.

وكان الشائع عند المصريين أن «أوزوريس» هو إله الأموات، وبشفاعته ووساطته يبقى الجسد حياً فيخرج منه جسداً نورياً تسكنه الروح إلى الأبد.

ومن هنا جاءت تعاليم كتاب الموتى، فى كيفية حفظ الجسد حياً سليماً بلا عطب ولا فناء، فقادهم ذلك إلى تحنيط أجسادهم.

وإنا لنعود بتاريخ كتاب الموتى، إلى الملك المصرى الأول

« مينا »، فقد قال الدكتور « بودج »، أحد المؤرخين: إن تاريخ المدنية المصرية يبدأ بتاريخ وجود كتاب الموتى.

وإنك لتجد شيئاً من هذا فى ورقة البردى التى كتبها الحكيم المصرى القديم الفيلسوف « انى » (Ani).

ووجد على قبر الملكة « خنام نفرت »، زوجة « مانتى هتب »، أحد ملوك الدولة الحادية عشرة، رموزاً هيروغليفية تفيد أن أحد فصول كتاب الموتى اكتشف فى عهد « هيسب تى » الملك الخامس من الدولة الأولى، وذلك سنة ٤٢٦٦ قبل الميلاد.

فإذا كان فصل من كتاب الموتى اكتشف سنة ٤٢٦٦ قبل الميلاد، فكم يكون عمر هذا الكتاب؟ ومتى كتب؟.

وقد وجد « مسپيرو » فصولا من هذا الكتاب على أهرام الملك « أوناس Onas » المبنى سنة ٣٣٣٣ قبل الميلاد، كما وجد فى أهرام « تيتا » بسقّارة فصلاً كاملاً من هذا الكتاب، ويعود تاريخ هذه الأهرام إلى سنة ٣٣٥٠ قبل الميلاد.

ويرى المؤرخون أن كتاب الموتى كان معروفاً عند ملوك الدولة الأولى أى منذ ٤٥٥٠ سنة قبل الميلاد، وظل معمولاً به وبقوانينه وشرائعه إلى القرن الثانى بعد ظهور الديانة المسيحية.

وقد قادتنى البراهين التاريخية إلى الجزم بأن كتاب الموتى كتبه كهنة هليوبوليس، قبل ظهور مينا والدولة الأولى.

ويقول كتاب الموتى أنه كان على الميت أن يقطع سبعة جبال، وعلى كل جبل إله يحرس ذلك الجبل، وبعد ذلك يصل إلى جنات النعيم.

والاعتقاد عند المسيحيين ، أن أمام الميت سبع سماوات .

وينص كتاب الموتى على أن أوزوريس هو القاضى الأعظم لمحاكمة الأموات .

ويشرح كتاب الموتى ، رحلة الشمس بعد غيابها تحت الأرض ، وكيف تسافر فى مركبها قاطعة العالم الأرضى ، لأن الشمس فى نظر القدماء لم تكن سوى جسم حىّ ومصدر كل حياة .

هكذا ورد فى كتاب الموتى .

وإذا بحثت فى حقيقة بدء نظر المصريين إلى العالم والدين ، تجد أن ثالوث مصر الأول كان الشمس ، والأرض ، والنيل .

أو الأم ، والأب ، والإبن .

ثم جعلوا إلهاً لكلٍّ من هؤلاء يمثلونه به .

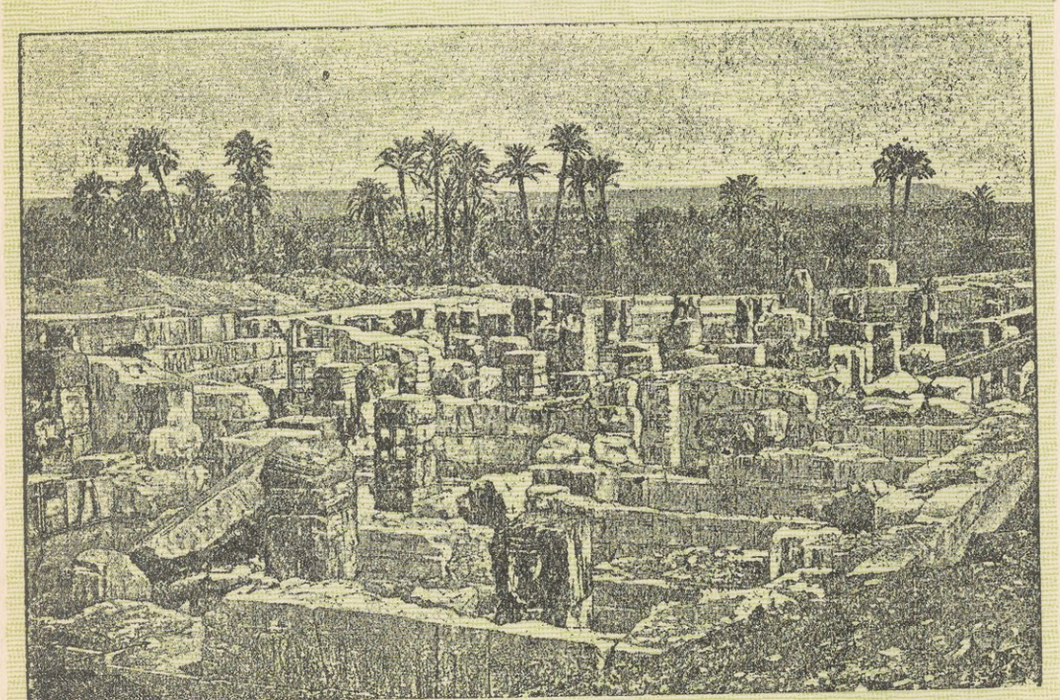

هيكل أوزوريس فى معبد أبيدوس

النقش والحفر فى اعمدة الهياكل



الالهةهاتور وامنوفيس الثالث

وأبدع المصريون فى صنع الهياكل وإقامة المعابد .

ولم تكن تلك الهياكل سوى مدارس سريّة لتعليم الدين لأبناء الكهنة وأبناء الملوك ليصبحوا ملوكاً وكهنة .

وكانوا يدفنون أسرارهم وأسرار علومهم وديانتهم واكتشافاتهم ومعارفهم فى أعماق تلك الهياكل ، فلما اندثرت تلك الهياكل ، اندثرت معها كل علوم قدماء المصريين . إذ من يدرى أنهم لم يكونوا على إلمام بالكهرباء ، ومخاطبة الأرواح إلى كل ما هنالك .

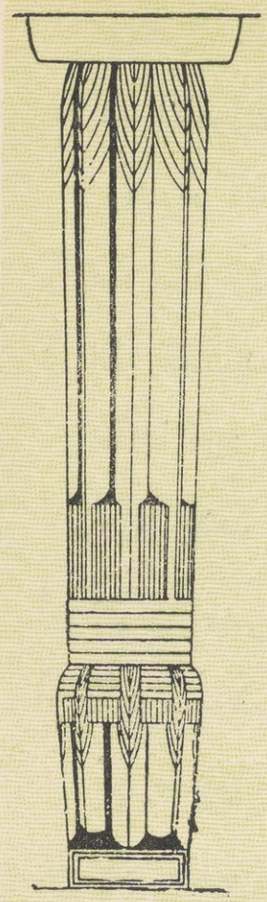

عامود يمثل زهرة اللوتس اشارة لدائرة العقل



عامود بشكل الالهة هاتور

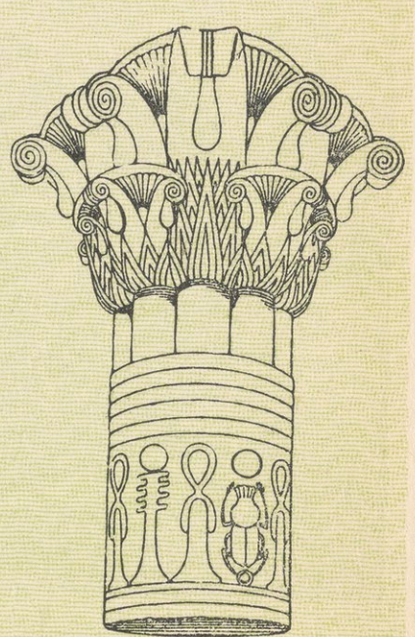

عامود بمعبد فيلي

(كا) و (با)

الروح و النفس

كان الميت فى عهود قدماء المصريين عبداً للأحياء ، فإذا تأخر أهله عن تقديم القرابين ، والمأكولات لروحه ، تعذّبت تلك الروح وماتت جوعاً .

وكان اسم الروح « كا » بلغة المصريين .

و « كا » هذه ما يدعونه بالعربية قرينة ، أى الجسد الثانى للإنسان وهى الروح التى تأتى لهذا العالم مع روحه ، وبكلمة أخرى هى النسخة الثانية من روحه وجسده .

إن « كا » كانت الروح .

أما « با » فكانت النفس .

وكانت « با » بعد موت الجسد ، تأخذ شكل طائر وتطير فى طبقات الجوّ . وإذا شئت ترجمة اللفظين إلى الانجليزية تقول إن « كا » هى « Spirit » ، وبا هى « Soul » .

ولكى تعيش هذه الروح بعد موت الإنسان ، ولا يتطرّق إليها الفناء ، كانوا يضعون المأكل والمشرب فى قبره لكى تتغذّى ولا تموت لأنها كانت أمينة مخلصة للجسد ، تبقى معه وتجلس بجانبه .

وكانت الروح تخلق مع الجسد ، وتحلّ فيه ، وتأخذ شكله ، وتحفظ شخصيته ، وهى التى تنهض مع الجسد فى يوم البعث .

الجسد يموت ، أما الروح فتحيا إلى الأبد .

لهذا أراد المصريون تخليد الجسد بتحنيطه ، حتى تجده الروح وتخلد فيه .

وهذا المبدأ دان به كثير من الأمم والشعوب ، بل إن المسيحية نفسها اعتنقته ونادت به .

إن المصريين أول من قالوا : إن روح الإنسان خالدة ، وإنها تنتقل بعد الموت إلى كائن آخر — وهذا هو التقمُّص أو التناسخ (١).

وقد اعتقد المصريون ، أن الروح تدور متقمِّصة من شخص إلى شخص ، إلى أن تكمل دورتها ، وهى ثلاثة آلاف سنة تعود بعدها إلى جسم الانسان نفسه ، وقد ذكر المؤرخون هذه الاعتقادات ، ولكنى لم أجد لها أثراً فى النصوص الدينية ، ولا فى كتاب الموتى .

ولا يزال الكثيرون فى الهند ومختلف البلاد الشرقية يعتقدون بالجسد الثانى .

وقد سرت هذه الفكرة إلى أوروبا وأمريكا ، ولها أتباع كثيرون فى مختلف بلاد العالم .



(١) التقمص من قميص ، والتناسخ من نسخ متعددة .

مرافعة الميت أمام القضـــاء الإلهى

لم أرَ أجمل ، وأفضل ، وأعدل ، من محاكمة الميت عند قدماء المصريين .

إن ديانتهم ، هى الوحيدة التى أعطت الميت ، حقّ الدفاع عن نفسه .

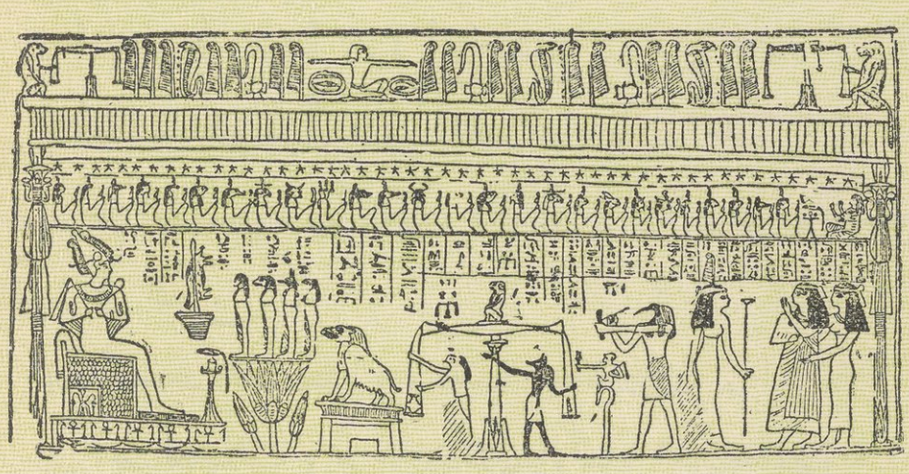

محاكمة الروح — الروح تقدم الجسد الى الاله أوزوريس

أنظر إلى مجلس القضاء المصرى المؤلّف من اثنين وأربعين قاضياً .

لقد جلس القضاة لمحاكمة الميت ، وارتفع ميزان العدل فى ساحة المحكمة ، فى الكفّة اليمنى قلب الميت رمزاً لأعماله ، وفى الكفّة اليسرى ، عيار الحق لوزن قلب الميت

أن « أوزوريس » هو رئيس القضاة — أنظر إليه جالساً على منصّة الحكم وبجانبه الإله « تحوت » يسجل حكم المحكمة ، ويقف

« أونوبيس » ليراقب كفتى الميزان .

أنظر إلى الروح تتقدّم الجسد أمام القضاة !

اسمع دفاعها وهى تقول :

لم أرتكب منكراً ، ولم أخن أحداً .

لم أشهد زوراً ، ولا لطّخت اسم أبى بالعار .

لم يأكل الحسدُ قلبى ، ولم أطلب مال غيرى .

لم أقتل ، لم أزنِ ، لم أسرق .

لم أشته امرأة قريبى ، ولا امرأة جارى .

لم أحرز مالاً حراماً ، ولم أبع القمح بثمن غال .

لم أخالف نظام الرىّ ، ولم أتلف مزروعات أحد .

لم أظلم اليتيم ، والأرملة ، والأعمى ، والأعرج ، والشيخ المتقدِّم فى السنّ .

لقد أطعمت الفقير ، وسقيت العطشان .

إلى آخر ما هنالك ، من أمثال الوصايا العشرة المعروفة فى توراة العهد القديم .

ثم تجلس آلهة الحق والعدل فى كفّة الميزان اليمنى ، ويوضع قلب الميت فى الكفة اليسرى ، فإن وجد قلبه ناقصاً ، افترسه الوحش الواقف بانتظاره .

وكان المطهر معداً بجانب المحكمة ، لتطهير النفوس التى ارتكبت هفوات صغيرة .

الشعب المصرى

لقد كان المصريون منقسمين إلى مراتب ثلاث :

الكهنة — والجيش — والشعب .

أما الكهنة ، فكانوا الفريق المقدَّس المعصوم عن الخطأ ، ومنهم الملوك ، والأنبياء ، والكتَّاب ، وحافظى الثياب المقدَّسة ، والمحنطين ورجال الدين .

وكانوا يعفون من دفع الضرائب ، ولهم أوقافٌ بلغت أحياناً ثلث أطيان القطر المصرى .

وقد كان الكهنة يهتمُّون اهتماماً عظيما بأجسامهم ، فيغتسلون مرتين فى النهار ، ومرتين فى الليل ، ويحلقون شعر أجسامهم مرة كل ثلاثة أيام .

أما ثيابهم الداخلية فمن الكتَّان الناصع البياض .

وكان طعامهم بسيطاً جداً اعتقاداً بأن أجسامهم يجب أن تبقى خفيفة لكيلا تكون ثقيلة على أرواحهم .

وقد كان للجيش بعض الامتيازات كالكهنة ، فلكل جندى ثمانية أفدنة يستغلها فى السِّلم ، وهو معفى من جميع ضرائب الحكومة .

أما الشعب فكان يؤلف طبقة العمال ، والصناع ، والفلاحين .

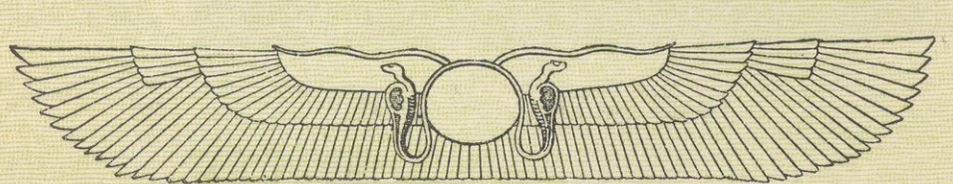

قصة أوزوريس، ومراثى إيزيس



ايزيس أخت أوزوريس وزوجته

صعد «رع» المعبود العظيم إلى السماء، لكنه ترك «أوزوريس» على الأرض.

لقد هرب «رع» من البشر، بعد أن سئم الاختلاط بهم، وبعد أن عاش أجيالاً طويلة لم يعرف الموت.

لقد ترك العالم والبشر يسبحون فى بحر من الجهل، والظلام.

فجاء « أوزوريس » ونشر بينهم الدين ، والعلم ، والنور ، والمعرفة ، وتزوج أخته « إيزيس » ، فكانت مثال الزوجة ، الأمينة ، الوفيّة الفاضلة ، الحكيمة .

خدم « أوزوريس » البشـــر ، فأحبّوه وعبدوه ، ودعوه الإله الصالح العظيم ، أما اسمه فمعنـــاه عرش وعين .

كان « أوزوريس » إله الموتى والعالم .

وقد عبده المصريون ، منذ الدولة الأولى فى عهد الفرعون الأوّل مينا . ووجد اسمه منقوشاً على لوح خشبي منـــذ أيام « هيسبتين » فرعون ، خامس ملوك الدولة الأولى .

ولمولد « أوزوريس » أسطورة هى أنه حين جاء إلى العالم مولوداً من أمه « توت » ، سُمع صوت من السماء يقول : « لقـــد وُلد ملك الأرض وكل ما فيها » .

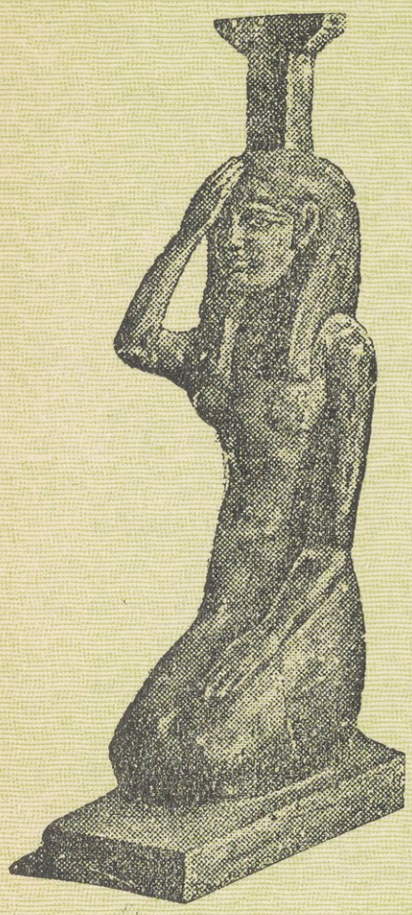

الالهة نفتيس شقيقة ايزيس
وهي تبكي أخاها أوزوريس

وحين ولد السيد المسيح ، سُمع صوت من السماء يقول : « هذا هو ابنى الحبيب الذى به سررت » .

ودبّ الحسد فى قلب أخيه « سات » المعروف عنـد الإغريق باسم « تيفون » ، إله الشر ، فتآمر مع ملكة أوتوبيا واثنين وسبعين

رجلاً من أصدقائه على قتل أخيه أوزوريس .

(وربما أن قصة قابيل وأخيه هابيل مأخوذة عن أسطورة أوزوريس وأخيه سات) .

فدعاه إلى وليمة عظيمة وأعدّ صندوقاً جميلا بحجم أوزوريس .

واحتال مع رجاله على أوزوريس ، فأدخلوه فى الصندوق ، ثم أقفلوه ، وسمّروه ، ورموه فى النيل . وحملته المياه إلى البحر ، ورمته الأمواج على شواطىء مدينة جبيل فى جبل لبنان ، بالقرب من شجرة ايثل (١) .

ونمت الشجرة حول الصندوق ، فأصبح فى جوفها ، وأصبحت الشجرة عظيمة جداً ، فقطعها ملك جبيل المسمى « بيروس » ، وجعلها عاموداً فى قصره .

وعلمت « إيزيس » بما حصل لزوجها ، فناحت عليه ، وقصّت شعرها حزناً ، ورثته بأجمل المراثى ، ثم أخذت تبحث عن الصندوق .

فعلمت من الأرواح أنه فى مدينة جبيل ، المعروفة قديماً بإسم « بيبلوس » ، وهى بالقرب من بيروت فى جبل لبنان . فسافرت إليها وجلست بجانب نبع الماء المتدفّق بقرب المدينة .

وجاءت وصيفات الملكة إلى الماء ، فتعرّفت عليهن إيزيس ، ومسحتهن بالطيب والعطور .

ولما عُدن إلى القصر ، أخبرن الملكة عشتروت ، فأرسلت

---

(١) وباللغة المصرية القديمة « اسر » وبالأفرنجية TAMARISKI ولا تزال الشجرة تنمو بكثرة فى مصر ولبنان .

وراء « إيزيس » وأخذتهـــا مرضعة لابنها الصغير .

وباحت « إيزيس » بسرّها لملك وملكة جبيل ، فأعطياها العامود المقطوع من الشجرة العظيمة ، فحملته ، وعادت به إلى مصر .

وفتحته فوجدت فى داخله جثة « أوزوريس » فنـــاحت عليه ، وبكته بكاء شديداً ، وعرف « سات » برجوع الصندوق ، فسرقه .

ثم قطّع أوزوريس أربع عشرة قطعة ، ورمى كل قطعة فى مكان ما فى جميع أقطار الكون ، لكل لا تستطيع إيزيس إيجادها .

وعادت « إيزيس » تفتّش عن هذه القطع إلى أن وجدتها فجمعتها كلها معاً وأعادت الحياة إلى أوزوريس .

ولما كبر « حورس بن إيزيس » ، انتقم لأبيه « أوزوريس » من عمه « سات » فقتـــله .

وإنك لتسمع اليوم فى عويل المصريين وبكائهم ونواحهم على الموتى ، فى القرى والعزب ، ذات النغمة الحزينـــة التى استعملتها إيزيس منذ ألوف السنين فى بكائها على زوجها أوزوريس .

اسمع نواح إيزيس على أخيها أوزوريس :

« أنت الذى رحلت عنّا — سترجع إلينا مرّة ثانية » .

« أنت الذى نمت ، ستستيقظ . أنت الذى متّ ، ستحيا » .

« قف فجسمك لا يفنى الآن ، وستبقى إلى الأبد » .

« قم وحلّ هذه اللفائف ، إنها ليست لفائف تضمّ جسمك ، بل هى خصلة من شعر أختك التى تبكيك » .

« تبكيك السماء ، وتتصدّع الأرض أسىً لفراقك » .

« يتلبّد الجوّ بالغيوم ، وتمطر النجوم حزناً » .

« ويقف الحراس خاشعين عندما تمرّ روحك » .

« أنت نجم ساطع ، لا يفنى ، بل يعيش إلى الأبد » .

هـــذه النغمة ، يستعملها المصريون اليوم فى نواحهم فى الجنائز ، ولا يزال أقبـــاط اليوم ، يستعملون الموسيقى فى الجنائز ، كما كانت الحالة عند قدماء المصريين .

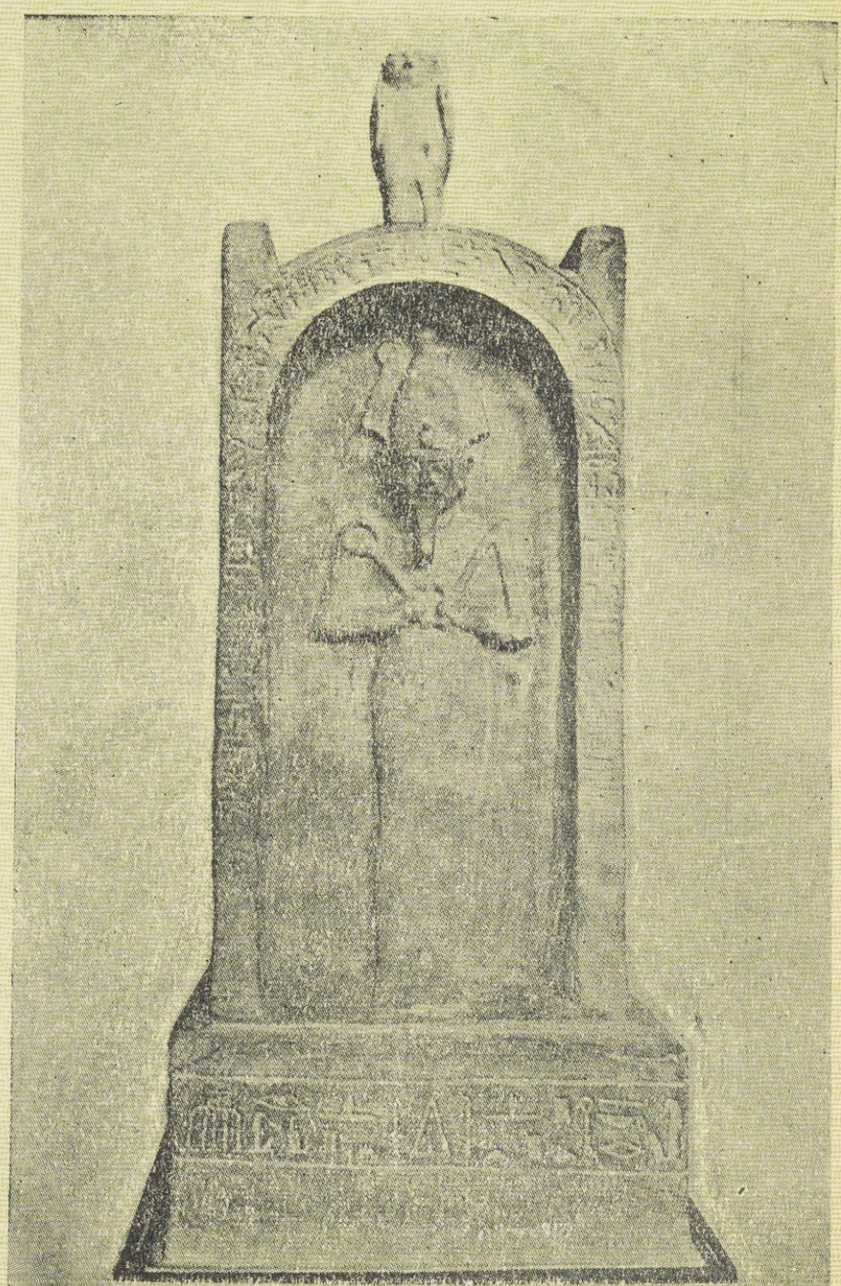

« أوزوريس » فى معبد أوزوريس فى أبيدوس

العـــائلة

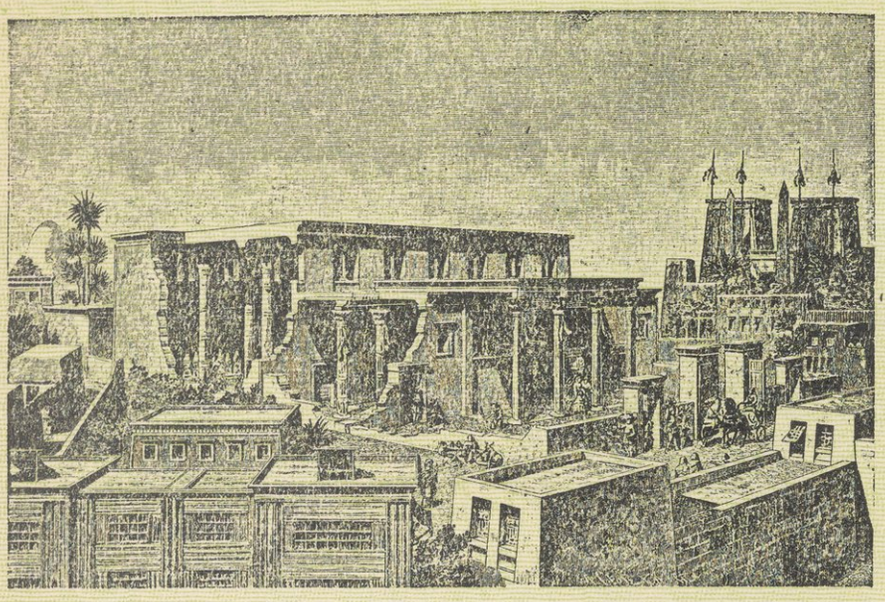

منزل أحد سراة المصريين فى الدولة الثامنة عشرة

كان للعائلة مركز عظيم فى الحياة المصرية .

وقد لا تجد رسماً منقوشاً فى معابد وهياكل مصر ، إلا وتجد للمرأة مكانها بقرب الرجل .

والمصرى كجميع شعوب العالم القديم . كان يتخذ لنفسه إماءً وعبيداً ، لكنه كان يحافظ على زوجة ، شرعية ، واحدة .

وكانت الأمّ المصرية ترضع طفلها ثلاث سنوات متوالية .

وكان الأولاد إناثاً أو ذكوراً ، لا يلبسون شيئاً على أجسامهم قبل البلوغ ، حتى إلى ما بعده .

وقد كان الأولاد ينسبون إلى أمّهم ، وأحياناً إلى أبيهم .

ثم جرت العادة المتّبعة ، بانتساب الأبناء إلى الآباء .

وقد جاء فى كتاب الحكمة على ورق البردى ما يأتى :

« ما أسعد الرجل ، الذى يبنى بيتـــه ، ويحب زوجته ! » .

« ما أسعد الرجل ، الذى يموت فى البلدة التى ولد فيهـــا ! » .

وكان المصرى قديماً ولوعاً بالطبيعة ، والمعيشة الخلوية ، فكانت منازل السراة تحيط بهـا الحدائق الحاوية لأشجار التـــين والنخيل والجميز والعنب ، مع برك ماء ملأى بالأسمـــاك .

وكانت بيوت المصريين واسعة ، صحّبـــة ، جميلة ، أفضل كثيراً من بيوت الفلاح المصرى ، فى العصر الحاضر .

وكانت الكراسى من النوع الجيِّد ، المريح للجلوس .

وفى كثير من الحالات كانت أشبه بمـــا نستعمله فى هذه الأيام ، كما ترى فى الرسوم التى وجدت فى المدافن والمعابد .

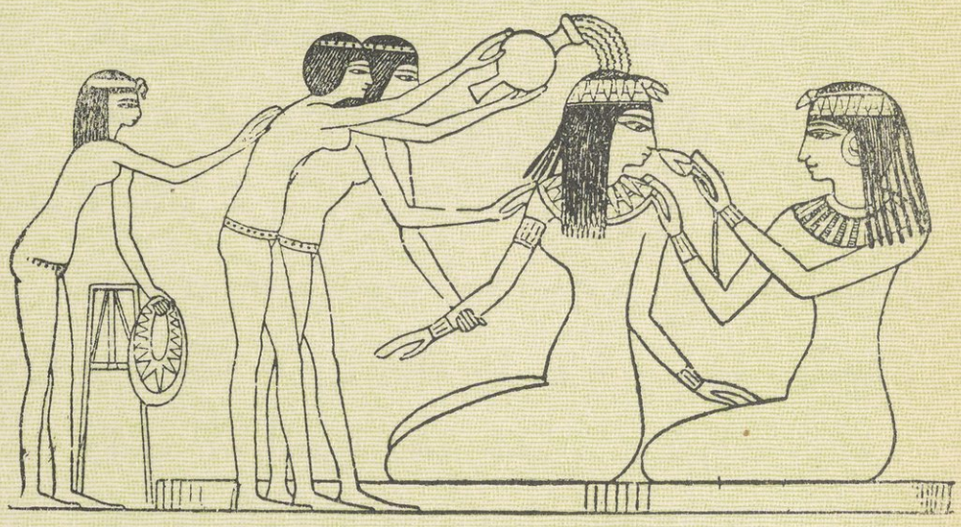

التجميل وتصفيف الشعر ومسحه بالعطور والزيوت

وكان للتجميل شأنه أيضاً ، وكذلك الغنـاء ، والموسيقى .

أما الملابس والحلى فتشابه كثيراً ما نراه على أجسام السيدات فى هـــذه الأيام .



فتـــاة راقصة تضرب على آلة كالـكنجة

وكان للرقص أهميته ، عند الفراعنة ، والشعب ، كما تجد فى الرسوم الـكثيرة على أعمدة الهياكل ، لـكنه كان غناءً ورقصاً دينياً لا دخل للحب ، والعاطفة فيـــه .



حفلة كوكتيل ويظهر فيها المدعوون والراقصات كما هو مقنوش فى مدافن قدماء المصريين

اليونان مستعمرة مصرية

قد يدهشك يا مصر إذا ذكرت لك أن المصريين هم الذين أسّسوا مملكة اليونان سنة ١٥٥٦ قبل المسيح .

وعلّموا اليونان العلوم والحضارة ، وسنّوا لها القوانين والشرائع . . .

فقد حدث فى ذلك التاريخ ، أن هاجر رجل مصرىّ اسمه « سكروبس سيكروب » إلى اليونان ، وبمعيّته قوم من إخوانه المصريين .

فاستولوا على أراضى « أتيكا » وأنشأوا فيها أول مملكة يونانية باسم مملكة أثينا ، وبنى سكروبس هذه المدينة ، ثم تزوج بابنة حاكم تلك البلاد ، بعد موت أبيها .

ثم وضع أسس الملك وسنّ لليونانيين شرائع الزواج ، وقوانين الاحتفالات ، ونظاماً للأخذ والعطاء ، وعلّمهم زراعة الحنطة والكروم والزيتون .

إن أثينا — مدينة العلم والفلسفة — أسّسها قوم مصريون .

* * *

إن تاريخ مصر محاط بظلمة كثيفة ، والعالم مدين بكثير مما نعرفه للمؤرخ المصرى القديم « ماتينون » ، الذى عاش فى أيام البطالسة ، فرأى وسمع ، وبحث فى حياته ، ونقل الكثير من

معلوماته ، من أوراق البابيروس ، ومما وجده على حجارة الهياكل وأعمدتها ومعابدها .

إننا نجد بين آثار مصر ما نعود به إلى خمسة آلاف سنة قبل المسيح ، ويرجّح أن أصل سكان مصر القدماء ، هو من المنحدرين من سكان ليبيا الأصليين ، وهؤلاء لايمكن الرجوع إلى أصلهم لأنهم ضاعوا فى مجاهلِ التاريخ .

أما أديان المصريين وعلومهم فقد جاءت من بلاد الأطالسة كما تقدم .

ويدور بحث العلماء والمؤرخين ، فى هذه الأيام ، على بلاد الأطالسة التى ابتلعها البحر الأبيض — وهى القارة المعروفة بالأتلنتيد — ويؤكد فريق من الجغرافيين أن بعض الجزر الموجودة فى البحر الأبيض المتوسط ، هى رؤوس جبال هذه القارة المغمورة فى مياه البحر .

ولمؤلف هذا الكتاب أبحاث قيمة عن قارة الأتلنتيد وتاريخ شعوبها ، سيصدره على حدة قريباً .

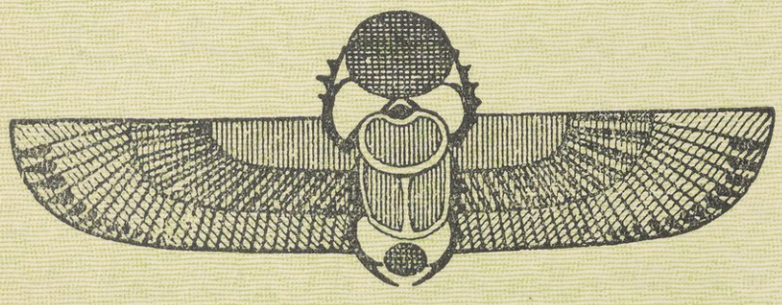

الدول المصرية

هذا تاريخ مصر القديم، يمتدّ أمام أعيننا، إلى مسافة خمسة آلاف سنة، قبل المسيح.

لكن المؤرخ «ماتينون» يقول: إن ملوك مصر حكموا اثنى عشر ألف سنة، قبل هذا التاريخ. وقد وجدوا قبوراً وهياكل فى عين شمس لم يستطيعوا حصر تاريخها لأنها قبل التاريخ.

لكنهم عرفوا أسماء ملوكها وهم: سيكا - تيسو - تو - نهاب - يوش تار - مكها.

فالتاريخ الذى نعرفه يتألف من واحد وثلاثين دولة.

التاريخ القديم - وهو الدول العشرة الأولى.

والتاريخ المتوسط - وهو الدول السبع التى تليها.

والتاريخ الحديث - هو الدول الثلاث الباقية، أى من الدولة الثامنة عشرة، إلى العشرين.

وأما بقية الدول، من الدولة الحادية والعشرين، إلى الدولة الثلاثين فقد كانت فى نظر المصريين، عبارة عن دول فاتحة، وأمم مغتصبة، وأجانب مستعمرين، وجاء بعدهم البطالسة خلفاء الاسكندر الكبير فأصبحوا كفراعنة المصريين.

وفرعون، كلمة مصرية، قديمة، معناها: نور الشمس.

على أن بعض المؤرخين، يعودون باسم فرعون، إلى لفظة «برعو» أى البيت الكبير، أو البيت العالى، الذى حرّفه الناس بعد ذلك إلى كلمة فرعون.

الدول المصرية وتواريخها

	بمقتضى المدرسة الانكليزية	بمقتضى المدرسة الألمانية
الدولة الأولي	٥٥١٠ قبل الميلاد	٣٤٠٠ قبل الميلاد
« الثانية	٥٢٤٧ «	—
« الثالثة	٤٩٤٥ «	٢٩٨٠ «
« الرابعة	٤٧٣١ «	٢٩٠٠ «
« الخامسة	٤٤٥٤ «	٢٧٥٠ «
« السادسة	٤٢٠٦ «	٢٦٢٥ «
« السابعة	٤٠٠٣ «	٢٤٧٥ «
« الثامنة	٣٩٣٣ «	—
« التاسعة	٣٧٨٧ «	٢٤٤٥ «
« العاشرة	٣٦٨٧ «	—
« الحادية عشرة	٣٥٠٢ «	٢١٦٠ «
« الثانية عشرة...	٣٤٥٩ «	٢٠٠٠ «
« الثالثة عشرة...	٣٢٤٦ «	١٧٨٨ «
« الرابعة عشرة	٢٧٩٣ «	—
« الخامسة عشرة....	٢٥٣٣ «	—
« السادسة عشرة....	٢٢٤٩ «	—
« السابعة عشرة.	١٧٣١ «	—
« الثامنة عشرة	١٥٨٠ «	١٥٨٠ «
« التاسعة عشرة	١٣٢٢ «	١٣٥٠ «
« العشرون.	١٢٠٢ «	١٢٠٠ «
« الحادية والعشرون	١١٠٢ «	١٠٩٠ «
« الثانية والعشرون..	٩٥٨ «	٩٤٥ «
« الثالثة والعشرون..	٧٥٥ «	٧٤٥ «
« الرابعة والعشرون	٧٢١ «	٧١٨ «
« الخامسة والعشرون	٧١٥ «	٧١٢ «
« السادسة والعشرون	٦٦٤ «	٦٦٣ «
« السابعة والعشرون	٥٢٥ «	٥٢٥ «
« الثامنة والعشرون	٤٠٥ «	—
« التاسعة والعشرون	٣٩٩ «	—
« الثلاثون.....	٣٧٨ «	—

التـــاريخ القديم

الدولة الأولى : من ٥٥١٠ إلى ٥٢٤٧ قبل الميـــلاد .

هذه هى الدولة المصرية الأولى ، التى استطاع التاريخ أن يصل إليها .

أسّسها فرعون مينا ، الذى بنى مدينـــة منفيس الكائنة على رأس الدّلتا ، وحوّل نهر النيـل عن مجراه ، وقد كانت مدينة تانيس عاصمة ملكه ، وهى بجوار مدينة جرجا ، حيث توجد قبـــور الملوك الأولين .

وقد وجـدوا فى مصر حجراً نقش عليه أسمـــاء تسعة ملوك مصريين حكموا قبل قيـــام مينـا والدولة الأولى . وهذا الحجر موجود الآن فى متحف مدينة « بالرمو » عاصمة جزيرة صقلية .

ويروى عن مينا أنه ابن ملك عظيم يدعى « بارمور » ، حكم مصر العليـــا فقط .

وكانت عاصمة ملكه تانيس ، أو إبيدوس ، كما أسماها اليونان ، وعرفت باسم طينـــة ، وتدعى اليوم العرابة المدفونة .

وكان فى مصر السـفلى ، ملك آخر ، يحكم فى نيس (صا الحجر) بالقرب من الزقازيق .

واشتعلت نار الحرب بين هذين الملـكين ، ودامت عشر سنوات ، قتـــل فيها خلق عظيم من الدولتين ، واشتد الـكره والبغض والشحناء بين الأمّتين ، لأن مصر حتى ذلك الحين لم

تكن دولة واحدة ، أو أُمة متّحدة .

وأراد مينا إنهاءَ تلك الحرب الضروس ، التى كادت تفنى أبناء مصر ، فذهب إلى والده الملك قائلا — أتركنى أحكم أسبوعاً واحداً وأتعهّد لك بإنهاء هذه الحرب .

فأجابه والده إلى طلبه ، ونادى به ملكاً .

فأرسل مينا رسلاً إلى ملك صا الحجر يقول له :

لقد طالت الحرب عشر سنوات ولم تنته .

لقد نادى بى والدى ملكاً ، وأرغب الصلح معك .

إن لك ابنة واحدة ، وليس لأبى ولد سواى .

دعنى أتزوّج ابنتك فتكون ملكة معى ، ونجمع العرشين فى عرش واحد ، وأبنى عاصمة جديدة تقع فى منتصف المسافة بين عاصمة ملكك ، وعاصمة ملك والدى .

وتزوّج مينا ، وجمع مصر لأول مرة فى عرش واحد ، ومملكة واحدة ، وبنى مدينة منفيس (من — نفر) وبنى حولها سوراً أبيض ، ودعاها المدينة البيضاء ، أو المدينة الجميلة .

وبُنيت سقّارة لتكون مدفناً ، وقد اشتق اسمها من اسم الإله سقر ، إله القبور وقيامة الأموات . وبها السرابيوم العجيب المدفونة فيه العجول المحنّطة ويُعدّ من عجائب العجائب .

وذكر المؤرخون أن « مينا » كان أول ملك فى الأرض ، وأول من عبد العجل فى مصر .

وجاء بعده تيتا « فرعون » ، فألّف كتاباً فى علم الحيوان

والتشريح ، ثم حكم « سامتى » وهو الذى وجـــدوا فى قبره أوراقاً للبردى عليهـــا فصول من كتاب الموتى .

وقد ذكر مانيتون ، المؤرخ المصرى ، أن الملك « أتونيس » مارس الطب ، ووضع مؤلفات فى التشريح ، لـكن يد الدهر لعبت بهـــا ، فلم يبق لهـــا من أثر .

* * *

الدولة الثـانية : من ٥٢٤٧ إلى ٤٩٤٥ قبل الميـــلاد .

وفى الدولة الثانية ، حكم فرعون فيخوس ، وأقام العجل أبيس إلهاً

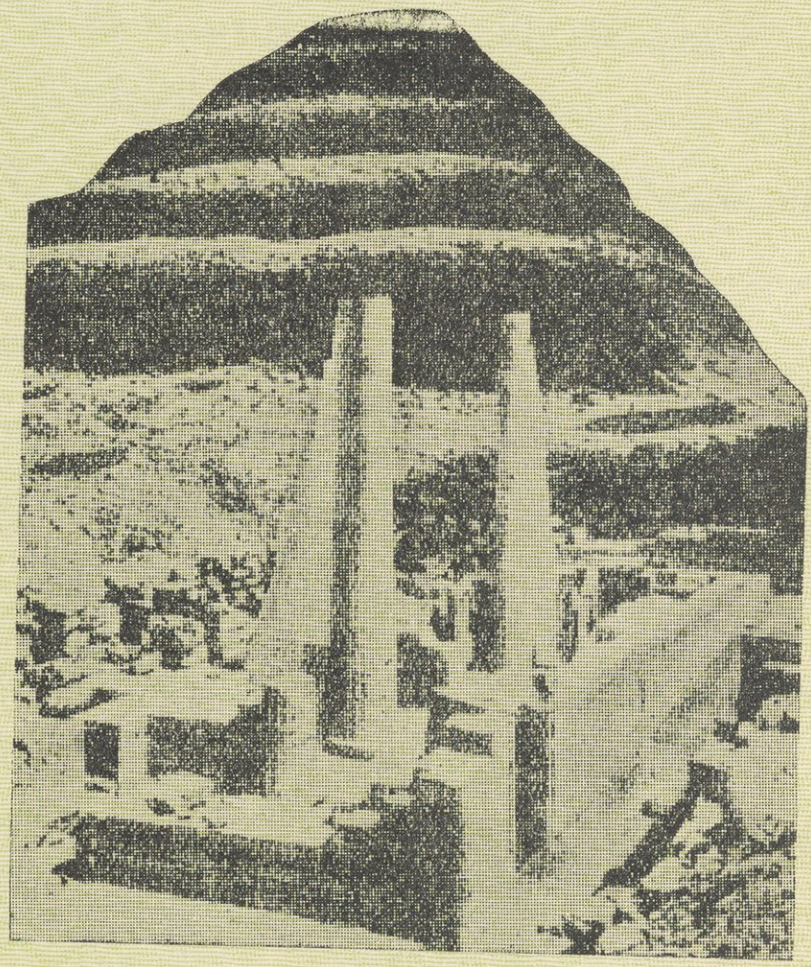

هرم زوسر المدرج فى سقـــارة

فى منفيس . وكان يشترط فى العجل أبيس أن يكون مولوداً من عجلة نزل عليها البرق ، وأن يكون شعره أسود وعلى جبهته بقعة بيضاء ، مثلّثة الزوايا . والحقيقة أنهم لم يعبدوا العجل ، لأن العجل عندهم كان رمزاً للإله أوزوريس ، لا بل أوزوريس نفسه كان رمزاً إلى الإله الخالق العظيم ، غير المنظور .

وجاء بعده بناثر فرعون ، فحكم إحدى عشرة سنة ، وكثرت الخيرات والبركات فى مصر ، حتى أنهم كانوا يقولون إن النيلُ يسكب عسلاً ، لا ماء فى مصر .

* * *

الدولة الثالثة :

من ٤٩٤٥ إلى ٤٧٣١ قبل الميلاد .

وفى الدولة الثالثة ، نجد الملك زوسر ، أول ملوك الدولة الثالثة يهجر طيبة ، وينقل ملكه إلى المدينة البيضاء : منف .



تمثال زوسر فرعون في سقارة

اشتهر فرعون زوسر ، مشيد الهرم المدرّج ، الذى بناه لكى يكون قبراً له وقد دفن فيه ، وكان له

وزيره المشهور « أمهوتب » (الآتى بسلام) الذى برع فى الطب، والدين والسحر، وفن العمارة، حتى أنه أصبح فيما بعد إله الطب عند قدماء المصريين، وهو أول من استعمل الحجر فى البناء، وأول من شيّد العمارات الحجرية الضخمة. لأن والده كان معمارياً، ومهندساً بارعاً.

فهو الذى بنى الهرم المدرّج فى سقارة، وكان فيلسوفاً ومؤلفاً وإليه ينسب النشيد الجنائزى الذى كان ينشد على القيثارة وهو:

« أترك الهموم، واذكر الأفراح حتى يأتى اليوم الذى تسافر فيه إلى أرض الصمت ».

وجاء اليونانيون فحوّلوا هذه الجملة إلى قولهم « دعنا نأكل ونشرب، لأننا غداً سنموت ».

وجاء بعده فرعون سنفرو الذى بنى هرمى دهشور وميدوم، وفى أيامه وصلت



الملك خوفو باني هرم الجيزة الأكبر

إلى مصر أربعون مركباً مشحونة بخشب الأرز من لبنان .
وبوفاة سنفرو انتقل الملك إلى الدولة الرابعة .

* * *

الدولة الرابعة : من ٤٧٣١ إلى ٤٤٥٤ قبل الميلاد :

هؤلاء هم بناة الأهرام فراعنة الدولة الرابعة . . . .

أسّس هذه الدولة فرعون خوفو ، ويقال أنه ابن الملك سنفرو من زوجته « حتب حرس » .

ويقال أن خوفو كان أميراً توصّل إلى خلع الملك سنفرو والاستيلاء على عرشه :

وقد وجدوا قبره داخل الهرم الكبير الذى بناه لنفسه .

والذين بنوا أهرام الجيزة ثلاث فراعنة :

(١) خوفو كيوبس ، وقد بنى الهرم الأكبر .

(٢) وخفرع (ومعناه ضوء الشمس) وقد بنى الهرم الثانى .



الملك خفرع مشيد الهرم الثانى فى الجيزة



منقرع فرعون وهو باني الهرم الثالث فى الجيزة وهو واقف بين إلهتين

(٣) ومنقرع وقد بنى الهرم الثالث .

بنوها لتكون قبوراً لهم ، ولأولادهم من بعدهم .

وقد كان الملك خوفو من أعظم ملوك الأرض .

شاد الهرم الأكبر مدفناً كما هو شائع ، ومركزاً لأغراض فلكية كما يقول بعض العلماء .

وكان بناء الهرم فى أيام الفيضان الذى كان يستمر ثلاثة أشهر تنقل الأحجار فى خلالها من محاجر جبل المقطم (طره) مدفوعة على ماء الفيضان .

وتبلغ أحجار الهرم الأكبر ٨٥ مليون قدم مكعب ، أو مليونين وثلاثمائة ألف حجر كبير .

وقد هدم عمرو بن العاص خمسة أمتار من بنائه ، فى سبيل التفتيش عن ثروة الفراعنة .

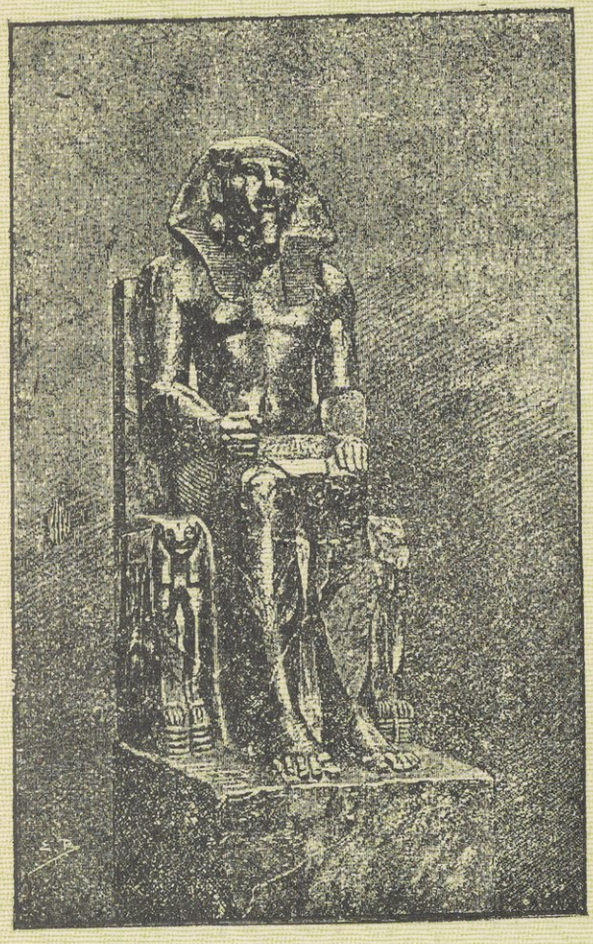

منكريوس باني الهرم الثالث فى الجيزة

ويبلغ ارتفاع كل حائط فى الهرم الكبير ٥٦٨ قدماً ، وطوله ٧٤٦ قدماً ، وهو مبنى على ١٣ فدان ، ويوجد فيه نحو مليونين

وثلاثمائة حجر ، يزن كل منها طنين ونصف طن . وقد بُنى منذ نحو أربعة آلاف سنة قبل الميـــلاد .

ولا نعرف تماماً من بنى أبا الهول الكائن بالقرب من الأهرام ، لـكن المؤرخون يتّفقون على أنه بُنى للإله هرماخس ، كما تدلّ على ذلك اللوحة التى كتبها تحتمس الرابع ، حينما أزال الرمال عنه ، بناءً على ظهور الإله له فى الحلم ، وهو نائم بجانبـــه على الرمال .

* * *

الدولة الخـامسة : من ٤٤٥٤ إلى ٤٢٠٦ قبل الميـــلاد .

وجاءت الدولة الخامسة ، واتّخذت منف عاصمة لملـكها ، وحكم منها تسعة فراعنـة ، أهمهم الملك أوسركاف ، ولمـا توفّى جاء مكانه سحوراً وهو أول من شيّد أسطولاً بحرياً لمصر .

ثم جاء الملك إيزيسى ، وبعده الملك أونيس فرعون ، ووزيره ميرا اللذان بنيـا أهرام أبى صير ، وشيّدا بها الهيكل لعبادة الشمس ، وبنيا أهرام سقارة ولهما قبور فيها .

وقد كان الملك « آسى » آخر فراعنة الدولة الخامسة .

وكان وزيره « فتاح حتب » فيلسوفاً وله نصائح وأمثـال تعادل أفضل ما يكتب فى هذه الأيام ، ومنها قوله : « إذا حزت الثروة بعد الفاقة ، فلا تدخر الأموال بمنع الحقوق عن أهلها ، فإنك أنت أمين على نعم الله ، والأمين يودى أمانته ، وأن جميع ما وصل إليك ، سينتقل عنك إلى غيرك ، ولا يبقى لك منه إلا الذكر إن خيراً أو شراً »

وفى عهد هذه الدولة افتتحت مصر السودان لأول مرة .

AMERICAN UNIVERSITY LIBRARY CAIRO

وبانتهاء الدولة الخامسة انتهت قائمة الملوك من نسل الملك مينا، وقامت الدولة السادسة التى أسّسها الملك تيتا .

* * *

الدولة السادسة : من ٤٢٠٦ إلى ٤٠٠٣ قبل الميلاد .

إن الملك تيتا ، مؤسس الدولة السادسة مجهول التاريخ ، لا نعلم عنه شيئاً ، سوى أن إسمه وجد منقوشاً فى رأس قائمة ملوك الدولة السادسة .

ومن أهم فراعنة الدولة السادسة الملكة فيتوركيس ، الجميلة الجذّابة التى انتقمت لأخيها فرعون من قتلته ، فقد بنت قبراً رحيباً واسعاً تحت الأرض ، ثم دعت كبار رجال المملكة الذين تآمروا عليه وقتلوه ، إلى افتتاحه ، وأعدّت لهم وليمة عظيمة ، ثم أطلقت عليهم أثناء الطعام ، مياه النيل فأغرقتهم جميعاً .

ثم جاء بعدها بيبي فرعون ، وابنه مريرع (Marure) فرعون ، الذى فتح ممرّاً فى الشلال لعبور السفن التجارية ، وهو أول فرعون زار الشلال ، وبحث فى سيناء عن معدن الذهب ، وحارب النوبة والعرب ، وقام بحملة عسكرية لإخضاع أهالى فلسطين الذين ثاروا على مصر ، وتحصّنوا فى جبل الكرمل التى تقوم عليه مدينة حيفا .

وقد بنى ملوك الدولة السادسة معابد فى دندره ، وتانيس ، وكانت عاصمتهم جزيرة إسوان ، المعروفة عندهم بالفنتين — وإسوان كلمة مصرية قديمة معناها البحيرة ، ويقول بعض المؤرخين أن إسوان معناها الحجر أو الصخر ، وفى عهد أبالى فرعون تغير إسم الدار البيضاء إلى ممفى ، ثم جاء اليونان فدعوها ممفيس .

* * *

الدولة السابعة : عام ٣٥٠٠ قبل الميلاد .

لم تلبث الدولة السابعة فى الحكم سوى مدة قصيرة بسبب حالة البلاد والخراب الذى عمّ مصر ، ويقول المؤرخ مانيتو أن بعض الأمراء المصريين أسّسوا هذه الدولة ، ولم يعثر المنقبون على آثار تذكر لهذه الدولة أو لأحد من ملوكها . وأول ملك ارتقى عرش مصر من هؤلاء كان اختويس فرعون، كما يقول مانيتو ، فبنى هو ومن جاء بعده أهرامات أبى صير .

* * *

الدولة الثامنة : من ٣٥٠٠ إلى ٣٣٥٠ قبل الميلاد .

ليس لنا معلومات عن هذه الدولة سوى أنه وجد فى قائمة لوحة العرّابة أسماء سبعة عشر فرعوناً حكموا مصر فى هذه الدولة .

وزاد البلاء فى مصر على أيام الدولة الثامنة ، والمرجّح أن الأجانب غزوا مصر على أيام هذه الدولة وحكموها .

* * *

الدولة التاسعة : من ٣٣٥٠ إلى ٣٢٠٠ قبل الميلاد .

وعلى أيام هذه الدولة قويت سلطة حكام الفيوم وهم من أصل ليبى ، فاغتصبوا عرش مصر من ملوك الدولة الثامنة ، وجعلوا عاصمتهم مدينة اهناس المعروفة باسم هيراكيوبوليس Herachoopolis وهى بلدة واقعة جنوبى الفيوم ومركز عبادة الإله حورس (Horus) .

* * *

الدولة العاشرة : من ٣٢٠٠ إلى ٣١٠٠ قبل الميلاد .

وهى الدولة التى بنت مدينة « سوت » المعروفة الآن بأسيوط .

وفى أيام هذه الدولة نشبت الحرب الأهلية بين ملوك الوجه البحرى ، وملوك الوجه القبلى ، فانتصر فراعنة الوجه القبلى .

ولم نعثر على آثار لملوك هذه الدولة سوى ما وجد فى مقابر أسيوط لأحد أمرائها حيث يقول :

« إذا جاء الليل مدحنى كل من نام فى الطريق ، لأنه أصبح آمناً كالذى يقطن داره . ذلك لأن خوف الأشرار من جنودى كان خير من يحميه فى وحدته » .

* * *

التاريخ المتوسط

الدولة الحادية عشرة : من ٣١٠٠ إلى ٣٠٥٠ قبل الميلاد .

لقد قامت الآن فى مصر دولة عظيمة ذات نفوذ كبير جعلت عاصمتها مدينة أرمنت لمدة وجيزة .

إن سلسلة جبال وادى النيل تتّسع وتتبعد فتترك بينها سهلاً منبسطاً ، خصباً ، نشأت فى وسطه قرية صغيرة يقال لها « طيبة » أصبحت فيما بعد أعظم مدينة أثريّة فى العالم .

وكان أمير أرمنت يدعى « انتف » فثار على ملوك « اهناس » وشق عليهم عصا الطاعة ، واغتصب المُلكَ منهم ، وأسّس الدولة الحادية عشرة .

وشعر أن أرمنت لا تصلح عاصمة للملك ، وكره أن يعود

إلى ممفيس العاصمة القديمة ، فنقل « أنتف » عرش مصر من الشمال إلى الجنوب ، أو من منف إلى طيبة ، ومن هذا التاريخ ابتدأت طيبة أن تلعب دورها العظيم فى تاريخ الدول المصرية .

وجاء « منتوحب » فرعون بعد أن انتف فرعون ، وبنى على صخور طيبة معبداً بديعاً .

ويعتبر هذا الملك المؤسّس الأكبر لسيادة طيبة على مصر .

ثم غزا النوبة واستولى عليها .

واهتمّ ملوك هذه الدولة بعمارة مدينة طيبة ، واتخذوها عاصمة لهم ، وجعلوا الإله « رع » سيّد جميع الآلهة .

ويعود الفضل فى اكتشاف قسم كبير من كتاب الموتى ، إلى الملكة خنام نفرت ، زوجة مانتى هوتب ، أحد ملوك الدولة الحادية عشرة .

* * *

الدولة الثانية عشرة : من ٣٠٥٠ إلى ٢٨٤٠ قبل الميلاد .

لقد توسع ملوك هذه الدولة فحكموا النوبة حتى الشلال وشيّدوا أهرام دهشور ، وبنوا قبور بنى حسن والبرشة .

ومؤسس هذه الدولة هو امنمحعت الأول .

وأهم ملوكها أوسرتسن فرعون ، الذى أقام أمام هيكل الشمس مسلّتين من حجر الصوّان . ومنهما المسلة الموجودة اليوم فى المطريّة .

وسار هذا الملك بجيشه إلى السودان ، ووصل إلى وادى حلفا ، حيث شيّد هيكلاً نقش اسمه وأسماء جدوده على جدرانه .

أما الملك أمنمحعت الثالث ، المعروف عند اليونانيين باسم لامارس ، فحفر البحيرة المشهورة المعروفة ببحيرة موريس فى الفيوم وبنى قصراً بالقرب من البحيرة ، يحتوى على ٣٠٠٠ غرفة ، ويعدّ من عجائب الفن .

وقد زاره المؤرخ استرابو ، ووصفه وصفاً دقيقاً كما شاهده ، وقال إن كل حجرة من حجرات هذا القصر ، كانت حجراً واحداً وكذلك أرض كل غرفة منه .

وبنى خزّاناً للمياه بالفيوم ، وكان هذا الخزّان كبيراً كالبحر فدعوه الفيوم ، والفيوم كلمة مصرية قديمة معناها البحر .

وكان أول من قسّم الأراضى بمقتضى نظام الرى ، فوضع حدوداً للمدن والأطيان ، وقاس منسوب ارتفاع النيل ، وسجّل ذلك على صخور « بسمنه » بالقرب من الشلال الثانى .

ويقول بعض المؤرخين إنه هو الذى بنى أبا الهول .

وقد استولى فراعنة هذه الدولة على محاجر مدينة خفو ، بالقرب من إدفو ، وكانت فيها مدارس وجامعات لتعليم العلوم والفنون والنقش .

وقد انتقل الملك كله إلى طيبة ، وأصبحتِ يا مصر لأول مرة فى التاريخ ، مملكة واحدة متحدة ، وكان ذلك التاريخ هو عصرك الذهبى المشهور .

وقد اهتمّ فراعنة هذه الدولة بالرىّ والأطيان ، وحوّلوا بحيرة قارون إلى خزان عظيم لرىّ الفيوم .

وحاربوا النوبيين ، فقهرهم أوسرتسن فرعون ، وبنى خطاً دفاعياً بين مصر والنوبة .

وفى هذه الأيام ، ظهر النبى المصرى القديم « أبورر » وكتب سفره الجليل على ورق بردى طوله ٣٨٠ سنتيمتر ، وهو الآن فى متحف لندن .

وعلى أيام هذه الدولة ابتدأ المصريون ، يستعمرون العالم المعروف فى ذلك الحين ، فاستولوا على فلسطين ، وسوريا ، وفينيقية ، وبلاد الحيثيين ، والكنعانيين .

وهم الذين بنوا مقابر بنى حسن ، ونقلوا عاصمتهم إلى المنيا .

وعلى أيام أوسرتسن فرعون ، جاء إبراهيم وسارة لمصر ، كما ورد فى التوراة . إلاَّ أن بعض المؤرخين يقولون : إنهما جاءا على أيام تحوتمس فرعون ، أحد ملوك الدولة الثامنة عشرة .

وقد كان أوسرتسن الثالث أول ملك مصرى دخل السودان وضمَّه إلى مملكة مصر ، وبنى خطوط دفاع فى وادى حلفا .

وعلى أيام هذه الدولة انتشر العلم ، وعمّ العرفان ، وعرف هذا العصر بعصر الفنون والآداب ، وبلغ الشعر والنثر منزلة رفيعة عند المصريين ، كما أن الحفر والعمارة تقدما تقدماً مدهشاً ، وقامت مشروعات الرى فى كافة أنحاء مصر .

وكانت عبادة « رع » هى الديانة الرسمية للمملكة المصرية بأجمعها . أما الإله أمون فكان معروفاً فى طيبة ، ولأنّ العاصمة انتقلت إلى طيبة ، أضافوا اسم المعبود أمون إلى الإله « رع » فأصبح إله المصريين « أمون — رع » وأصبحت كهنة أمون أقوى مؤسَّسة دينية فى مصر السفلى والعليا . ومع أن عبادة

الشمس « رع » كانت وحدها منتشرة فى مصر ، إلا أن المصريين عبدوا أوزوريس أيضاً .

وقد كان أوزوريس فى العرّابة مركزاً دينياً هاماً .

وقد كان المصريون يحجّون إلى قبر أوزوريس فى العرابة ، كما يحجّ النصارى إلى قبر عيسى عليه السلام فى القدس ، والمسلمون إلى قبر محمد صلى الله عليه وسلم فى المدينة .

وتولى سيزوستريس الملك بعد وفاة والده : أمنمحعت الأول ، وهاجم سوريا وفلسطين . وجاء بخيرة رجال سوريا إلى مصر .

وكانت سوريا ولبنان فى ذلك الحين ، على جانب عظيم من الرقىّ ، والعمران ، والمدنية ، والحضارة .

وجاء سيزوستريس برجال سوريا ولبنان لتعليم المصريين صناعة الروائح ، والدهانات العطرية ، التى كانت كثيرة الاستعمال فى مصر . وكذلك الوشى ، والزخرفة بالذهب ، كما تجد رسومهم منقوشة فى قبور طيبة وبنى حسن .



العمال الفينيقيون يشتغلون فى توشية الأعمدة وزخرفتها بالذهب

وقد وجدت فى مقبرة خنوم حوتب ، فى بنى حسن ، صور لسبعة وثلاثين رجلا من الشام ، جاءوا إلى مصر لهذه الغاية .

ويؤخذ من رسومهم المنقوشة على جدران مقابر بنى حسن ، أنهم كانوا يلبسون الثياب الصوفية ، التى ينسجونها بأنفسهم ، بما فيها من الزخرفة والوشى ، ويلبسون النعال ، ويحملون أسلحة معدنية ، وفى أيديهم عصىّ ثمينة .

وقد استفادت مصر كثيراً من علوم ومعارف أهل سوريا ولبنان رغم أنها كانت صاحبة السيادة عليهما .

وقد ذكر هيرودوتس أن سيزوستريس عبر قارة آسيا كلها إلى أوروبا ، وسار إلى جنوبى روسيا على شواطىء البحر الأسود ، وانتصر على سكان تلك البلاد ، ونهب ثروتها ، وعاد بها إلى مصر ، مصطحباً خيرة رجالها من علماء ، وفنيين ، ونقاشين .

* * *

الدولة الثالثة عشرة : من ٢٨٤٠ إلى ٢٤٠٠ قبل الميلاد .

إن فراعنة هذه الدولة جاءوا من طيبة نفسها . لكنهم انقسموا على أنفسهم فسادت الفوضى وساءت حالة البلاد .

وأولهم هو خوتاوى فرعون المنقوش اسمه فى معبد الكرنك .

* * *

الدولة الرابعة عشرة : من ٢٤٠٠ إلى ٢٢٠٠ قبل الميلاد .

وفى أيام هذه الدولة انقسمت مصر إلى دويلات صغيرة

ونقلت عاصمتها إلى الوجه البحرى فى مدينة سخا .

ثم أخذت مصر فى الانحطـــاط والهبوط .

* * *

الدولة الخامسة عشرة والسادسة عشرة : من ٢٢٠٠ إلى ٢٠٠٠ قبل الميـــلاد .

* * *

الدولة السابعـــة عشرة : من ١٩٨٥ إلى ١٥٧٥ قبل الميلاد .

هذه هى الدولة العربية فى مصر ! .

هؤلاء هم الرعاة ! .

لقـد هجم هؤلاء الرعاة فى أواخر حكم الدولة السادسة عشرة على مصر ، فى أيام طيموس فرعون ، فأسّسوا الدولة السابعة عشرة .

وقد دعاهم المصريون « هيك سوس » أى « الملوك الرعاة » نسبة لأن العرب كانوا رعاة أغنام .

وقد ذكر مانيتو أن هؤلاء الرعاة كانوا فينيقيين من لبنـان .

ودعاهم غيره من المؤرخين ببدو الشاسو .

وذكر مؤرخون سواهم أنهم كانوا حيثيين أو كنعانيين .

والمؤرخون الذين يقولون إنهم فينيقيون يستدلون على ذلك بأن إلههم كان بعل .

* * *

لقـد زحف هؤلاء العرب سنة ١٩٨٥ قبل الميلاد تحت راية زعيمهم المسمى الوليد بن دومغ المعروف عنـد اليونان باسم ســـلاتيس .

وجعلوا عاصمتهم منفيس ، لكنهم جعلوا قيادة جيوشهم فى أفاريس (هوارس) فى القسم الشرقى من الدلتا . حيث بنى سلاتيس مساكن تتسع لمائتين وأربعين ألف مقاتل آوى بها جيوشه وأوقفها هناك ، كخطّ دفاع أوّل عن مصر ، ضد هجمات الشعوب الأسيوية فى أشور وبابل .

وقد أدخل هؤلاء العرب الجمال والخيل إلى مصر ، وعلّموا المصريين الفنون الحربية ، وصناعة المعادن ، والأسلحه الراقية ، والعجلات ، وصناعة الأوانى المختلفة ، ونسج الملابس ، وعمل المهلهل منها بشكل بديع .

وكانت الخيول التى تجرّ المركبات من أهمّ عوامل انتصاراتهم السريعة على مصر .

وحكم هؤلاء العرب نحو خمسمائة سنة ، إلى أن قام الأمير أحمس فى طيبة وأعلن الثورة عليهم ، فاستخلص مصر من أيديهم بعد وقائع كثيرة وحروب شديدة .

ونادى بنفسه فرعوناً على مصر .

وقد كان أبابا فرعون — آخر ملوك الرعاة ، ويقال إن فى عهده ، جاء يوسف الصديق إلى مصر ، ويقول بعض المؤرخين إن الرعاة هم الذين بنوا أبا الهول ، مستدلين على ذلك من عينيه الصغيرتين ، وخديه البارزين . لكن رواية أمنمحيت أحد ملوك الدولة الثانية عشرة تنقض هذه الفكرة .

أما عاصمة ملكهم السياسية فكانت ممفيس ، لكن العاصمة

العسكرية فكانت أفاريس فى الوجه البحرى ، ولم يستطيعوا طول مدة ملكهم إخضاع طيبة ومصر العليا ، فبقيت طيبة مستقلة يحكمها أمراء ضعفاء من نسل الفراعنة الأقدمين ، إلى أن ظهر الأمير أحمس فشنّ حرباً ضروساً على الرعاة ، وانتصر عليهم وطردهم من مصر ، فعادوا إلى فلسطين ولبنان وسوريا .

وقد ظلم المصريون هؤلاء الملوك الرعاة ظلماً فاحشاً ، وأثاروا ضدهم دعاية باطلة فاشلة . والحق يقال إن هؤلاء الرعاة كانوا أكبر نعمة لمصر .

فقد كانوا أبناء ثقافة ، وعلم ، ومدنيّة ، لا فرق إن كانوا عرباً فى البادية ، أو فينيقيين فى الشواطىء .

لقد علّموا المصريين نظام القتال ، وفنون الحرب .

وأدخلوا الخيول العربية الأصيلة إلى مصر — ولم تكن الفَرَس معروفة فى مصر قبل ذلك ، وأوجدوا الصناعات الكثيرة التى لم تكن مصر تعرفها .

ناهيك عن مخترعات كثيرة أوجدوها فى مصر ، وفوق جميع ذلك كان وجودهم كعنصر غريب سبباً لإيقاظ الروح القومية بين المصريين ، مما أدى إلى قيام أحمس بثورته الوطنية وتأسيس الدولة الثامنة عشرة التى قامت على أسسها الإمبراطورية المصرية التى امتدّت من الشلال الرابع ، إلى أعالى دجلة والفرات .

ويقول المؤرّخ يوسيفوس ، إن بنى إسرائيل ، هم جيش من الهكسوس ، بقى فى فلسطين بعد خروجه من مصر ، فاستوطنها ، ولم يرحل عنها .

الدُّول الحديثة

الدولة الثامنة عشرة : من ١٥٧٥ إلى ١٣٥٩ قبل الميلاد .

هذا هو عصر مصر الذَّهبي !

نحن الآن ، على أيام الدولتين : الثامنة عشرة ، والتاسعة عشرة .

لقد كثرت الخيرات فى مصر ، واتّسعت ثروة الكهنة ، والمعابد ، بسبب الغنائم الكثيرة التى عادت بها الجيوش المصرية ، من سوريا ، ولبنان ، وفلسطين . وزاد نفوذ رئيس الكهنة الدينى والسياسى ، وتعيَّن لزوجته مرتب عظيم ، فتساوت مع الملكة فى الرفعة والمقام .

وأخذ الناس ، تحت تأثير دعاية كهنة آمون ، يتركون عبادة الإله القديم « رع » ويعبدون آمون . وأخذت عبادة الإله « رع » تضعف رويداً رويداً وأصبح آمون ، الإله الأكبر الأوحد لمصر ، فإذا أراد المصرى دعاءً لنفسه قال « إذا أطال آمون حياتى » وهو أشبه بما يقوله المسلم والمسيحى اليوم « إن شاء الله » .

ويظهر لنا ، أن نجاح ملوك طيبة ، وتقدّمهم السريع ، بعد طرد الملوك الرعاة ، رفع كثيراً من منزلة الإله آمون ، إله طيبة ، فأصبح إله المملكة المصرية الرسمى ، وقد كان قبل ذلك ، فى المرتبة الثانية بعد الإله « رع » .

وفى أيام هاتين الدولتين وصلت مصر ، إلى درجةٍ عديمة المثال ، فى الرقىِّ ، والعمران ، والمدنية ، والعلم ، والشعر ، والدين .

* * *

لقد مات أحمس ، الفاتح العظيم !

مات البطل الذى طرد الرعاة من مصر ، وأسّس استقلال مصر الحقيقى ، وضمّ إليها السودان .

وهذا هو ابنه أمنوفيس فرعون ، يتولّى الملك ، بعد وفاة أبيه .

إننا نراه ينقل عرشه من طيبة ، ويعود إلى منفيس ، فيؤسّس الدولة الثامنة عشرة ، ويستقل بمصر السفلى ، والعليا .

وتُعتبر الامبراطوريّة المصريّة فى عهد هذه الأسرة ، من أكبر امبراطوريات العالم فى التاريخ ، لأنها امتدت من الشلّال الرابع ، إلى سوريا ، وأعالى الفرات .

إنها أول امبراطورية فى العالم – وهذه عاصمتها طيبة تتمتع بثروة عظيمة ، وعزٍّ باهرٍ ، جعلاها مركز التمدن العالمى ، وصاحبة الآثار الشامخة الباقية على ممر السنين والأجيال .

ومن فراعنة هذه الدولة ، تحوتمس فرعون ، الذى أقام المسلّات العظيمة ، ومنها مسلّة الاسكندرية .

وقد تحدّث المؤرخ « رولنسن » عن مسلّات هذا الفرعون ووصفها فى أن مناشر الكهرباء الموجودة فى مصانع اسكتلندا اليوم لا تستطيع أن تعمل مسلّة واحدة فى عشر سنوات .

أما أنا يا مصر ، فقد تبيّن لى أن المهندس العظيم « سنموت » قطع مسلّتين من محاجر إسوان ، فى خلال سبعة أشهر ارضاءً لملكته المحبوبة « ها تشبسوت » .

ويتساءل الإنسان : هل كان لديهم مكبِّرات للنَّظر ، نسبة لما فى نقوشهم من دقَّة الصنع ، وروعة الابداع ؟

وبعد موت تحوتمس الأول ، انتقل الملك إلى هاتشبسوت الشهيرة ، ابنة تحوتمس الأول ، من زوجته الملكة أهماس .

فحكمت مع أخيها تحوتمس الثانى ، ثم تزوجته ، لكنها لم تلد ذكوراً .

وقد لعبت دوراً هاماً جداً فى سياسة الدولة .

وجاءت بالفينيقيين من لبنان ، فعمّروا لها أسطولاً تجارياً عظيما مؤلفاً من خمسين سفينة ، وأرسلتهم مع هذا الأسطول التجارى فى البحر الأحمر ، وعلى طول الشواطىء الأفريقية ، حاملاً محصولات مصر ، لاستبدالها بمحصولات الصومال ، والتفتيش على العطور ، وعلى الأخشاب العطرية ، وأشجار المرّ ، وخشب الأبنوس ، والعاج ، والبخور ، والقهوة ، والصندل .

ثم أرسلت مهندسيها ، ليبحثوا عن المعادن ، فى صحراء سيناء .

وأرسلت أسطولاً تجارياً وصل إلى الهند ، وأحضر من هناك شحنة من جوز الهند ، والصندل ، والبخور ، والعطور المختلفة .

ونرى تاريخ أعمالها على جدران الدير البحرى ، بالقرب من الأقصر .

ولم تكن هاتشبسوت من دمٍ فرعونىّ ، ملوكى ، إلهىّ !

لكن الآلهة أصلحت ذلك !



المؤلف وحرمه واقفان أمام جدار معبد هيكل الأقصر والدليل يشير بيده الى الحجارة الضخمة حيث نقشت حكاية ظهور الاله آمون للملكة انماسى فولدت ابنتها الملكة العظيمة هاتشبسوت والحكاية محفورة بالرسوم بشكل واضح وصور مختلفة تصور الحادثة كما وقعت من ظهور آمون للملكة ثم ظهور الملاك يبشر بولادة الملكة هاتشبسوت

فقد جاء آمون الإله الأكبر ، وتقمَّص فى جسد الفرعون تحوتمس الأول واضطجع مع الملكة اهماس أم هاتشبسوت .

ثم بشَّرها أنها ستلد ابنة نبيلة ، عظيمة قويَّة ، كما نرى الآن جميع ذلك مرسوماً على أعمدة الهياكل .

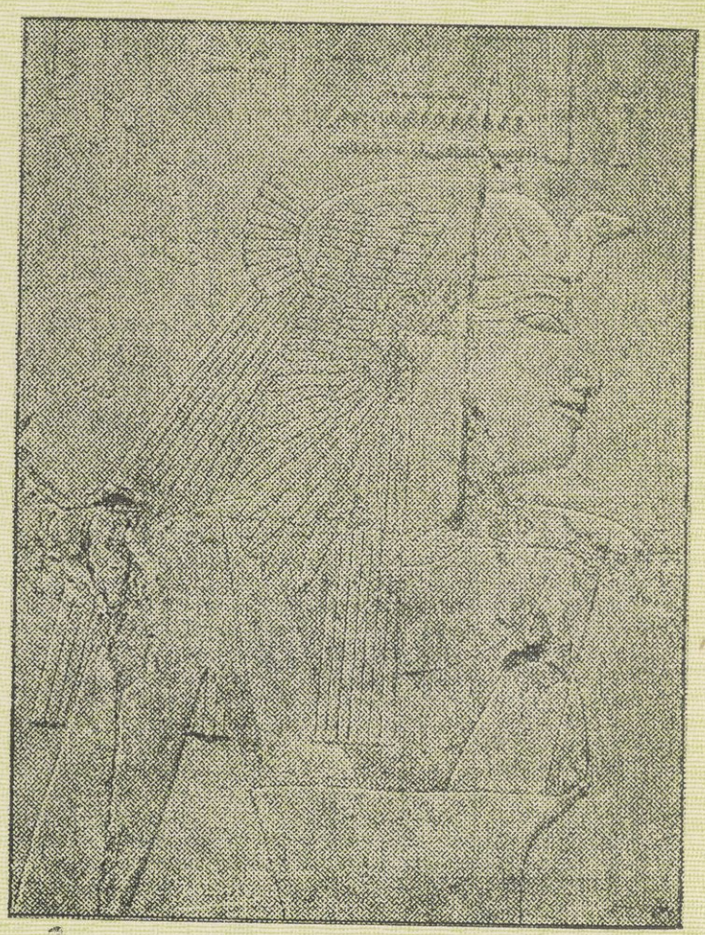

الملكة أهماس والدة الملكة هاتشبسوت

وأخذت هاتشبسوت تلبس ثياب الرجال ، فى أكثر المناسبات .

وكانت ملامحها جميلة جداً ، ووجهها يشعّ عظمةً وقوةً ، وعيناها كأكثر عيون المصريين ، دافئة ، مملوءة حياةً

وأشـــعّةً وناراً . أما شفتاها — فرقيقتان ، ناعمتان ، بعكس أكثر الشّفاه المصرية .

لقد كانت الملكة هاتشبسوت ، من أعظم الفراعنـــة المصريين . وتاريخ حياتها الخاص ، أشبه شيء بتاريخ حياة الامبراطورة كاترين الثانية ، ملكة روسيا .

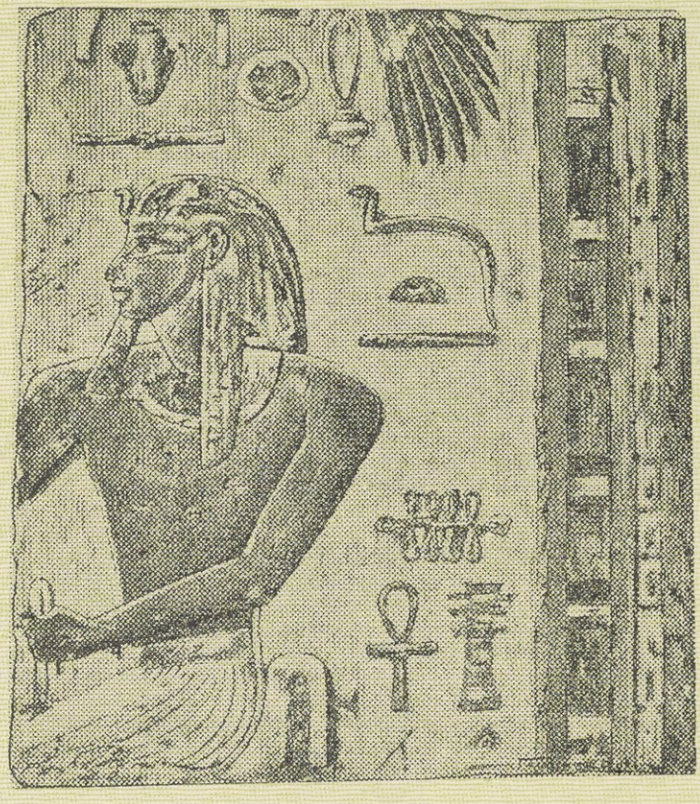

الملكة هاتشبسوت في ملابس الرجال

وكان لهـــا صديق حميم وفيّ — هو الكاهن « سنموت » رئيس كهنة معبد آمون ، لقد أحبته حباً جمّـــاً ، فأخلص لهـــا إخلاصاً عظيماً .

وكان هذا الكاهن مهنـــدساً موهوباً ، فبنى آثاراً كثيرة للملكة .

وقد وجد تمثاله في الأقصر، وهو الآن في برلين.

وقد نقش عليه أن ملكته جعلته أعظم رجل في مصر العليا والسفلى، وتجده في تمثاله محتضناً ابنة الملكة هاتشبسوت برفق وحب وحنوّ. وربما أنها كانت ابنته أيضاً نسبة للعلاقة التي كانت بينه وبين الملكة.



تمثال المهندس سنموت وفي حضنه ابنة الملكة هاتشبسوت

وكان الرجل الوحيد، الذي لعب دوراً هاماً، في تاريخ هذه الملكة العظيمة، وفي حياتها الخاصة أيضاً.

وقطع لها مسلّات كثيرة، ومنها مسلة «هاتشبسوت» في هيكل الكرنك.

وبنى هياكل، ومعابد الدير البحري، حيث وجد قبرها، وجسمها المحنط، مع مومياء والدها تحوتمس الأول.

ويعتبر هيكل هاتشبسوت أقصى ما وصل إليه فنّ العمارة من ذوق، وروعة، وترتيب، وتنسيق

وبلغت المقابر الملكية فى وادى الملوك أربعين مقبرة ، امتدت شهرتها فى العالم كله ، لما حوته من عجائب الحفر ، والنقش ، والتلوين ، والتصوير ، والإبداع .

أما قبرها فقد حفره الوزير المهندس جابوسنت أحد محاظى الملكة .

وقد نصبت هاتشبسوت المسلّات المدهشة المكسوة بخيوط الذهب والفضة ، فى ساحة الكرنك . وقام بهذا العمل محظى آخر اسمه « تحوتى » . وكانت كل مسلّة من هذه المسلات تصنع من حجر واحد ، يزن ثلاثمائة وخمسين طناً ، ويبلغ ارتفاعها ثمانياً وتسعين قدماً .

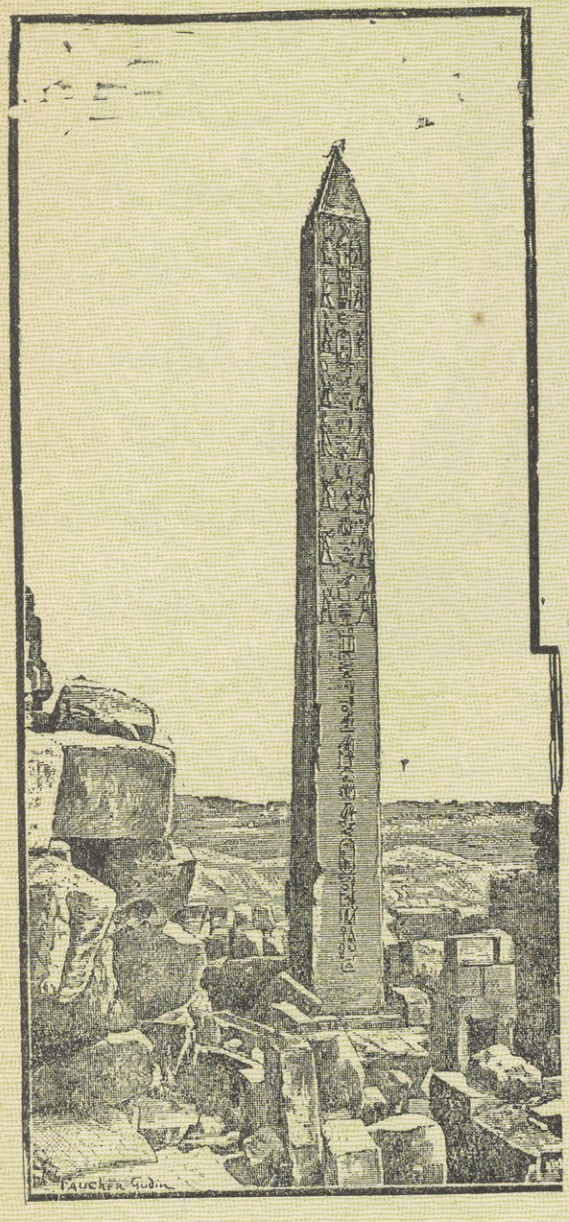

مسلة الملكة هاتشبسوت
في الكرنك

وقد كانت هذه الملكة العظيمة ، تكيل الذهب والفضة والمعادن النفيسة ، بمكاييل الحبوب . وكان فى خزائنها باستمرار ما لا يقل عن أربعمائة وثلاثة وعشرين لتراً من

الذهب والفضة .

وكانت إمبراطوريتها تمتد من السودان إلى جبال لبنان .

وكان المصريون يعتبرون أن جبال لبنان تمتد إلى أواخر سوريا الشمالية ، إلى حدود نهر الفرات .



الملكة هاتشبسوت

أما فينيقية ، فلم تكن فى نظرهم سوى الشاطىء الصغير ، الذى يمتد من صور ، إلى ما وراء طرابلس والنهر الكبير . (إليتيروس Eleuetheros) .

وكانت سوريا معروفة عند قدماء المصريين بإسم : « زاهى » .

وأحياناً كانت بلاد سوريا ، تمتدّ من حدود مصر ، إلى حدود الفرات ، وأحياناً تجزّأ إلى ولايات صغيرة مختلفة .

ولما لم تلد « هاتشبسوت » ذكوراً لزوجها ، وهو أخوها ، تزوج فتاة سورية ولدت له ابنه تحوتمس الثالث ، الذى حجزت عليه عمته هاتشبسوت ، فلم يملك إلا بعد وفاتها .

وكان من أعظم ملوك مصر ، ومن أكبر القوّاد العسكريين ، حتى أن المؤرخين العصريين لقّبوه بنابليون مصر ،

وذلك لكثرة حروبه وفتوحاته .

وكانت المستعمرات المصرية فى لبنان ، وسوريا الشمالية ، قد أخذت تثور على حكام مصر وفراعنتها ، فجيّش تحوتمس جيشاً عظيما لإخضاع تلك البلاد .

وقام بجيشه من مدينة « ثارو » بالقرب من القنطرة ، ووصل غزّة بعد تسعة أيام .

ثم اخترق سهل شارون ، إلى مدينة « يوحم » بين حيفا ويافا بالقرب من طولكرم .

وكانت جيوش ملك ميتانى ، وقادش ، تقدمت إلى لقائه ، وتجمّعت وعسكرت فى حصن مجدّو ، وهى على تلّ فى مرج ابن عامر ، يعرف اليوم باسم : « تل المتسلم » لأن أحد متسلمى الدولة العثمانية أقام فى مجدّو .

وسار تحوتمس بجيوشه فى طريق حيفا ، ووادى عاره ، إلى سهل يزرل ، فانقض على أعدائه المحصنين فى مجدّو ، وكسرهم شر كسرة فتراجعوا متّجهين إلى قادش على نهر العاصى ، فتبعهم بجيشه وانتصر عليهم هناك ، وعاد إلى مصر ظافراً منصوراً .

ومن الغريب أنه بعد ذلك بأربعة آلاف سنة ، سلك الجنرال اللورد اللنبى بجيشه ، ذات الطريق التى سلكها الفرعون المصرى .

وقام تحوتمس بحملة عسكرية ثانية ، وخرج بجيوشه من مصر واحتل مدينة صور ، ثم سار منها إلى جبيل ، ومنها إلى سميرة ،

المعروفة الآن برأس الشّمرا بالقرب من النهر الكبير (Eleuetheros) بجوار مدينة اللاذقية .

واستولى على مدينة كتنا Ketna (حمص) ، وعلى مدينة تونب (بعلبك) ، ومدينة نوجاشى (حلب) Nukhashie .

ولما عاد إلى مصر ، حمل معه أولاد الأمراء السوريين ، واللبنانيين ، إلى طيبة كرهائن لديه . وحمل معه من سوريا ولبنان أربعمائة وستة وعشرين رطلا من الذهب والفضة .

وحكم تحوتمس الثالث تسع عشرة سنة ، غزا فى خلالها لبنان ، وفينيقية ، وسوريا الشمالية ، وكنعان ، وبلاد الحيثيين ، سبع عشرة مرّة .

فكان يقوم كل سنة على رأس جيشه بحملة عظيمة تاركا مصر فى مايو ، ليعود إليها فى سبتمبر ، خشية ألاّ تتحمّل جنوده برد وصقيع تلك البلاد .

كان يعود بحراً ، دافعاً أمامه السفن الفينيقية الضخمة ، التى كانت ترسو على شواطىء طيبة ، وهى محمّلة بخيرات تلك البلاد ، من أوانى ذهبية ، ومصنوعات فضية دقيقة ، صنع أهالى صور ، وجبيل ، وقبرص . ومن حاصلات الأرض من الفواكه والنبيذ ، حتى أنه وجد مرة فى خزانة الدولة المصرية ، ما ينيف على ثمانية آلاف وتسعمائة وثلاثة وأربعين رطلاً من الذهب والفضة .

وقد عيّن تحوتمس الثالث قائد جيوشه « تحوتى » والياً مصرياً أى مندوباً سامياً يدير شئون المملكة الشمالية ، وقد عثر المنقبون

على معبد فى (بيبلوس) جبيل، لتحوتمس، ومثله معبد آخر فى جوار نهر العاصى (ايكانى).

وكانت مصر على أيام أمنحتب الثانى، وتحوتمس، وأيام آبائه وأجداده، امبراطورية عظيمة، تمتدّ من بابل ونهر الفرات، إلى أعالى النيل والسودان، وكانت سوريا، ولبنان، وفينيقية، والمقاطعات الأخرى، محكومة بأمراء مصريين، يمثّلون الإمبراطورية كمندوبين فوق العادة — وكانت التحصينات، والقلاع المصرية قائمة على شواطىء فينيقية، وسوريا.

وبكلمة واحدة — كان الشرق الأدنى بأجمعه مستعمرة كبيرة لمصر.

ولما توفى أمنحتب الثانى، قام بعده ابنه تحوتمس الرابع. وقد حدث، كما جاء فى أسطورة قديمة، أن تحوتمس الرابع خرج يوماً للصيد بجوار أهرام الجيزة، مدفن ملوك الأسرة الرابعة، فتعب وجلس يستريح فى ظلّ أبى الهول، الذى هو أحد رموز الشمس، فظهر له الإله وهو مستغرق فى النوم، وطلب إليه نقل الرمال المحيطة به، والمنهالة عليه، ووعده أن يجعله ملكاً على مصر، إن هو فعل ذلك.

وهذه الأسطورة، منقوشة على حجر، بين قدمى أبى الهول.

ولم يمض ردح من الزمن، حتى أصبح تحوتمس الرابع، فرعوناً على مصر.

ثم أراد تحوتمس أن يدعم نفوذه فى سوريا ولبنان، فأرسل إلى ملك ميتانى (فى القسم الشمالى من سوريا ولبنان)

يطلب يد ابنته ليقترن بهـا ، فأرسل هذا كريمته التى أصبحت زوجة تحوتمس الرابع ، وأم أمنحتب الثالث .

ولما توفى تحوتمس الرابع ، انتقل العرش إلى ابنـه أمنحتب الثالث ، المعروف بأمنوفيس .

وهو الذى بنى الرواق الشهير ، فى معبد الكرنك بالأقصر ، وادَّعى لنفسه الألوهية ـ لأنه ابن أمون .

وقد ورد فى أسطورة مرسومة على أعمدة هيكل الأقصر ، أن الإله أمون تقمَّص فى جسد الفرعون ، ونزل إلى الأرض ، ليضاجع الملكة ، لتلد فرعوناً قوياً يحكم مصر .

وإنك لترى على أعمدة الهيكل ، رسم الإله أمون يحمل بين ذراعيه الملكة الجميلة « موتيمو » ، ويأخذها إلى مضجعها ، ثم يأتى الملاك ليبشر الملكة بمولود جديد ، سيكون فرعوناً عظيما .

وهكذا يأتى إلى العالم ، أمنوفيس الثالث ، والد الفرعون العظيم أمنوفيس الرابع ، المعروف بأخناتون .

لقد كان « أمون » إله المصريين (وهو المعروف باسم « زيوس » عند اليونانيين) إلهاً قوياً عظيماً ، وقد حَلَتْ به أكبر ملكات الفراعنة ، فولدنَ رجالاً أشـدّاء ، أقوياء ، وفراعنة عظماء .

فأمنوفيس كان إبناً له ، وهاتشبسوت كانت ابنتـه ، بل الإسكندر الكبير نفسه ، كان ابنـاً لأمون أيضاً .

وقد بلغت التّجارة فى عهد هذا الملك ، درجةً رفيعة لم تصل إليها من قبل ، وصار نهر النيل ، من الدلتا إلى الشلاّلات ، مملوءًا بخيرات العـالم الواردة بأسطول البحر الأحمر ، وقوافل

برزخ السويس ، فكنت ترى البضائع السورية الثمينة ، والبخور ، والأخشاب العطرية ، والأسلحة ، والأوانى الفينيقية المزخرفة ، وعشرات الآلاف من الخيرات الكثيرة ، تزدحم فى موانىء نهر النيل ، حتى أنك لتجد اليوم أسماءها الفينيقية داخلة فى كلمات اللغة الهيروغليفية ، وبلغت تجارة فينيقيا مع مصر درجةً عاليةً فى الرقى والتقدم ، فكانت مئات السفن الفينيقية ترد إلى مصر ، مشحونة بالخزف والزجاج والأوانى المزخرفة ، والمصنوعات البرنزية المنقوشة ، الآتية من البلاد اليونانية القديمة ، وكانت هذه المراكب الفينيقية ، تعود حاملة معها المصنوعات المصرية لتبيعها فى قصور ملوك جزر كنوسوس (Cnossos) ، ورودس ، وقبرص ، وجميع شواطىء البحر المتوسط وجزره المشهورة .

فى هذا الزمن ، شعر سكان البحر المتوسط ، بنفوذ مصر ، وحضارتها ، أكثر من أى عهد سابق .

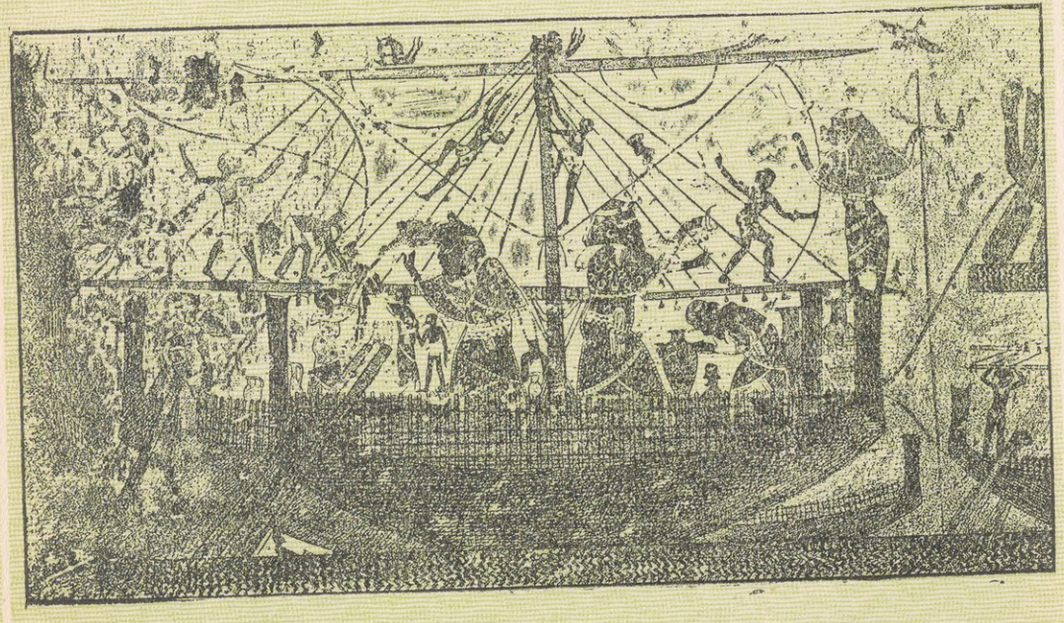

مركب فينيقى يفرغ حمولته فى ميناء طيبة

فظهرت فى « كريت » الشعائر الدينية المصرية ، حتى أنها أقيمت مرة ، تحت إشراف كاهن مصرى .

ثم صُبغت الصناعة اليونانية ، بالصبغة المصرية ، بدرجة كبيرة فظهر على مصنوعات اليونان المعدنية ذوقٌ مصرى ، خطته أقلام صناع طيبة ، وكثيراً ما كنت ترى على المصنوعات اليونانية ، رسوم الحيوانات المصرية المختلفة ، ممثّلة فى حركاتها ، وسكناتها الطبيعية .

ثم ظهرت فى بلاد اليونان وفى أوركمنوس (Orchomenos) تلك السّقف المزخرفة الجميلة ، التى أبدعتها أيدى أهالى طيبة .

وتزوّج أمنوفيس الثالث ، من فتاة اسمها « تى » (Tiy) وهى ابنة شريف لبنانى فينيقى ، اسمه « يويا » ، وزوجته « توبو » ، سكنا فى طيبة مدة من الزمن ، إما للتجارة ، أو لطلب العلم والفلسفة ، فى هيا كل آمون .

وإنك لتجد تابوت « يويا » ، وتابوت زوجته « توبو » فى المتحف المصرى بالقاهرة .

وكانت « تى » فتاة جميلة جداً ، وعلى جانب عظيم من قوة العقل ، وسعة الإدراك ، وبعد النظر ، فقادها ذلك إلى حظوة عظيمة فى عينى زوجها الملك ، الذى أحبّها حبًّا شديداً ، وجعلها شريكة له فى البيت ، وفى العرش أيضاً .

فلبست التاج ، رغم أنها لم تكن من دمٍ ملوكى ، ولم تكن هذه العادة متّبعة فى نظام الملك الفرعونى فى مصر ، لكن أمنوفيس غيّر الشريعة ، إكراما لزوجته الجميلة .

وكان زواج الملك أمنوفيس الثالث ، بالملكة « تى »

زواجاً غرامياً ، شغله عن كل شيء سواها .

وكانت « تى » تعرف شيئاً كثيراً عن الإله الواحد ، الذى تدعوه « أتون » ، وهو الإله القديم ، المعروف لدى كهنة عين شمس ، وهليوبوليس .

ويقال أن « أتون » هو نفس « أدون » إله الفينيقيين ، الذى تحوَّل من « أتون » إلى « أدون » إلى « أدونيس » .

وولدت الملكة « تى » بناتاً وذكوراً لزوجها أمنوفيس الثالث ، فلم يعش لهما من الذكور أحد .

فنذرت « تى » للإله أتون ، أن تُرجع عبادته لكل أرض مصر ، إذا أنعم عليها بولد ذكرٍ ، وعاش .

فأجابها الإله إلى ذلك ، وولدت ابنها أمنوفيس الرابع ، الذى عُرف فيما بعد بأخناتون ، إذ غيّر اسمه من « أمنوفيس » حبيب آمون — إلى اخناتون — حبيب أتون .

وكانت الملكة « تى » (Tiy) تشرف على تربيته بنفسها .

فلما مات زوجها أمنوفيس الثالث ، استلمت صولجان الملك ، وحكمت مكان زوجها الملك بالنيابة ، بالاشتراك مع ابنها ، الذى لم يكن بعد قد جاوز الثانية عشرة من عمره .

وحدث ، قبل أن يموت زوجها أمنوفيس الثالث ، أن كتب إلى « قسراطه » ملك « ميتانى » ، طالباً يد ابنته ، زوجة لابنه أمنوفيس الرابع ، إذ كانت مملكة « ميتانى » ، تمتدّ من بعلبك ، إلى نهر الفرات . (سوريا الشمالية ولبنان الشمالى) ، وكان ملك ميتانى ، خال أمنوفيس الثالث — أى شقيق أمه .

وأرسل رسالته مع رئيس البلاط المدعو مانى — وقد وجدت رسالة ملك ميتانى منقوشة على لوحات تل العمارنه ومنها ما يأتى :

« إلى أخى وصهرى ، الذى يحبنى وأحبه ، أمنحتب الثالث الملك العظيم ، وفرعون مصر » . . .

« من قسراطه الملك العظيم ، أخيك وحميّك ، الذى يحبك . أنا فى صحة جيدة ، علّك أنت كذلك ، وكذا منزلك وأختى (كانت أخت قسراطه المسماة جيلوچپا (gilukhipa) والدة الملك أمنوفيس الثالث) وسائر زوجاتك ، وبناتك ، وعجلاتك ، وخيلك ، وكبار رجالك ، وأرضك ، وكل ممتلكاتك . علّكم جميعاً بخير »

ومنها « ولما حضر إلىّ رسول أخى ، المدعو مانى ، قائلاً أنك تخطب كريمتى لتكون ملكة على مصر ، لم أتجاسر على تكدير قلب أخى ، بل استمررت على أداء ما هو واجب نحو صداقتنا ، وتنفيذاً لرغبتك يا أخى ، أرسلتها مع مانى ، الذى سرّ جداً برؤيتها ، فإذا وصلت إلى أرضك يا أخى ، أتعشّم أن المعبود « إشتار » (عشتروت) والمعبود « آمون » ، يجعلانها محبوبةً ومقبولةً لديك .

لذلك ارسل لى يا أخى ، كميّات كبيرة من الذهب ، بلا حساب ، وليكن مقداره أكثر من الذى كنت ترسله لوالدى ، لأن الذهب فى أرضك يا أخى ، كثير كالتراب » .

وكان لملك « ميتانى » ابنة مفرطة فى الجمال ، صغيرة فى العمر ، تدعى تادوچيپا (Tadougepea) .

فأرسلها والدها الملك إلى مصر لتتزوج من اخناتون

(أمنوفيس الرابع) إبن أمنوفيس الثالث ، لكنها وصلت إلى مصر ، بعد أن كان أمنوفيس الثالث قد مات .

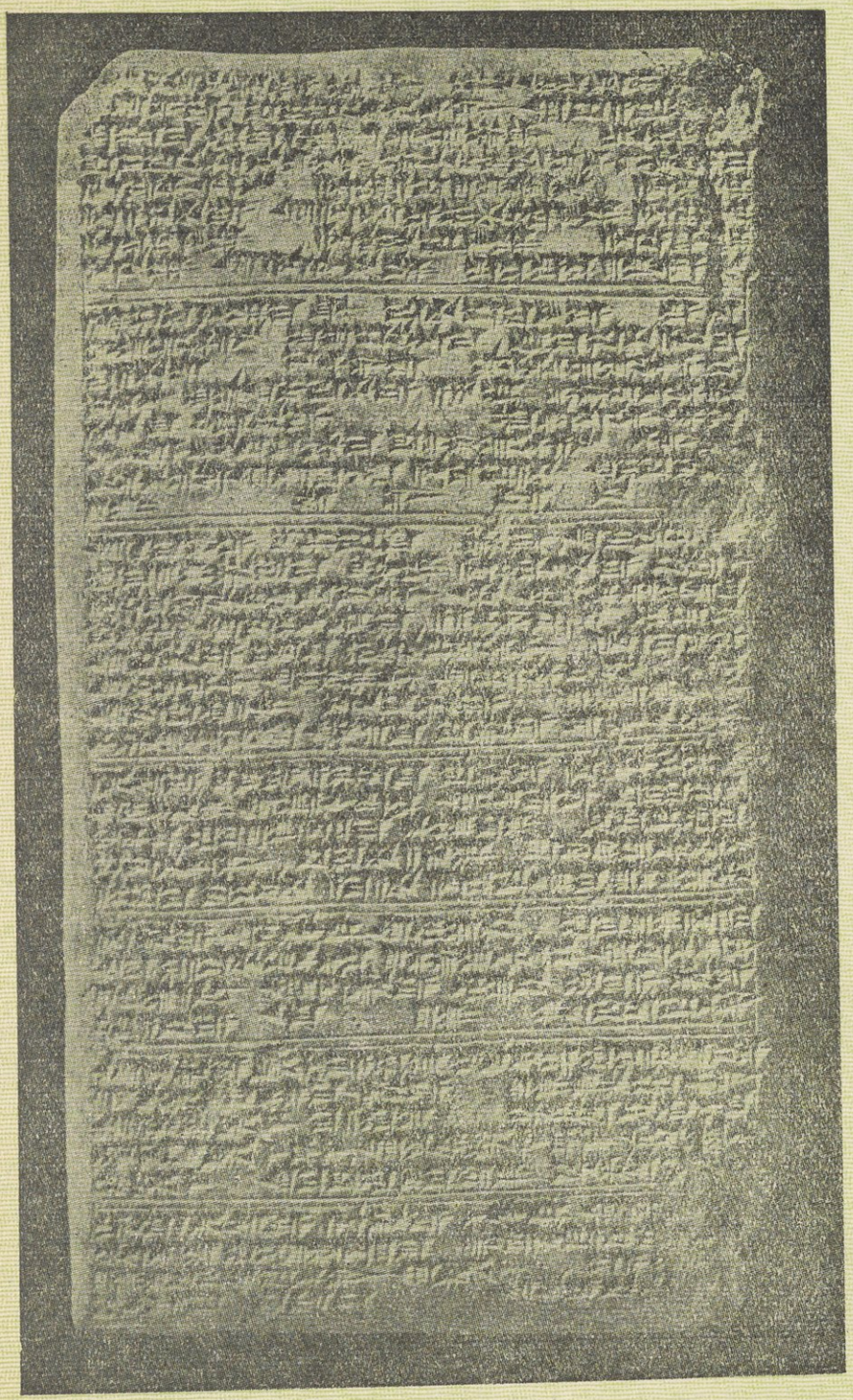

صورة الكتاب الذى أرسله ملك ميتاني والد نفرتيتى الى امنوفيس الثالث
وهو لوحة تل العمارنة نمرة ١١٧ والأصل بالمتحف البريطانى بلندن

نفـــــرتيتى - أو - تادوجيبـــــا

TADOUGEPA



نفرتيتي ابنة ملك ميتانى فى شمال سوريا ولبنان
وزوجة اخناتون فرعون

هـــذه هى تادوجيبا ، الفتاة اللبنانية الجميلة ، التى أطلق عليها المصريون ، إسم « نفرتيتى » .

إن نفرتيتى لم تكن مصريّة على الإطلاق ، بل كانت لبنانية سورية من أطراف لبنان الشمالى .

وسُرّت بها الملكة « تى » سروراً عظيما ، وزوّجتها من إبنهـــا الوحيد

اخناتون ، وأطلقت عليها إسماً مصرياً جديداً ، هو « نفرتيتى » ومعناه « الجميلة القادمة » .

وهكذا يُثبت التاريخ أن نفرتيتى المصرية الجميلة ، كانت فتاةً سورية ، من أطراف لبنان الشمالى .

وهام اخناتون بحب نفرتيتى ، هياماً عظيما . ودعاها سيدة القطرين ، والزوجة الملكيّة العظيمة . . وعاش معها عيشة زوجية ، عائلية ، هنيئة ، لا يكدرها حزن ، ولا يشوبها همٌّ أو ألم أو كدر .

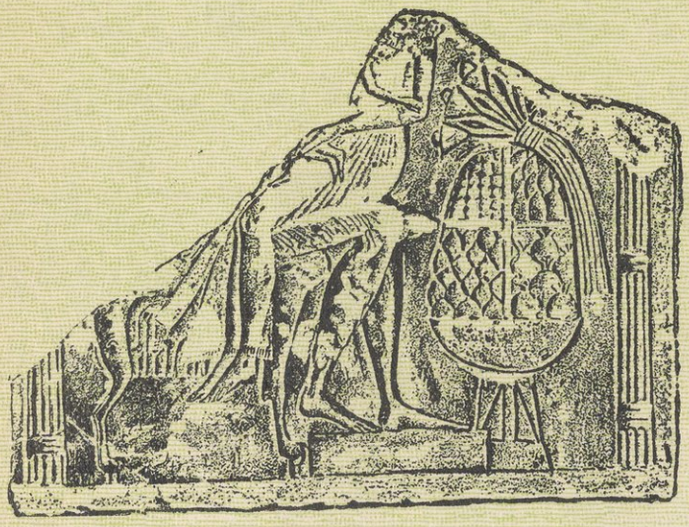

اخناتون وزوجته جالسة على ركبته وهي الصورة الوحيدة من نوعها المنقوشة على الأعمدة

وإنك لتجد اليوم ، فى متحف برلين ، حجراً كبيراً ، حمله الألمان معهم من تلّ العمارته . وقد نقش عليه قائمة الهدايا النفيسة الغالية ، التى أحضرتها « تادوجيبا » معها إلى مصر .

وحكمت « تى » ستّ سنوات ، بالاشتراك مع إبنها أمنوفيس الرابع ، الذى كان محبوباً جداً من الشعب المصرى ، ونودى به ملكا على مصر السفلى ، والعليا ، ودعاه الكهنة حبيب آمون ، وسيد العالم ، وابن الشمس .

لكن « أمنوفيس الرابع » ، كان تحت تأثير والدته الحكيمة العاقلة ، التى كانت تدير أمور المملكة ، وجميع شئونها ، فكانت تخاطب الأمراء ، والملوك ، فى جميع مستعمرات الإمبراطورية المصرية .

وانصرف الملك الشاب ، إلى التعمّق فى الفلسفة ، ودرس الأديان المختلفة فى هياكل طيبة ، تاركا إدارة المملكة لأمه الملكة التى أحسنت الإدارة ، وسارت بالمملكة إلى أعلى درجات الرقى والعمران .



أخناتون وأمّه « تي »

وكان يجد سعادته فى زوجته الرائعة الجميلة ، وفى التعمق فى فلسفة الدين والوجود ، وتوصّل فى بحثه إلى هذه الحقيقة وهى :

أن أمه الملكة « تى » على حق فى عبادة إله واحد ، لا يوجد إله سواه .

وأن الفراعنة الأولين كانوا يعبدون هذا الإله فى عين شمس .

وأن « أتون » هو هذا الإله غير المنظور ، الذى تشعّ منه الحرارة والحياة .

وأن الإله « آمون » دخيل على مصر ، أتى به فراعنة الدولة السابعة عشرة ، حين طردوا الملوك الرعاة (الهكسوس) .

وأن الكهنة استغلّوا هذا الإله أقبح استغلال ، وجمعوا ثروة مصر فى هياكله ومعابده ، وتسلطوا على الشعب ، بل تسلّطوا على الملك نفسه ، تحت اسم عبادة آمون ، وما يريده وما يطلبه آمون ، الذى كانوا يستشيرون تمثاله فى كل صغيرة وكبيرة .

والأرجح أنه كان داخل التمثال كاهن يتكلم كما يريده الكهنة فيوهمون الشعب أن آمون يأمر وينهى ، فيخضع الشعب لإرادة الإله .

وطلب أخناتون أن يكون هو نفسه كاهن الإله ، ليقصى كهنة آمون عن السيادة التى أخذوها عن طريق الدين ، وعبادة آمون .

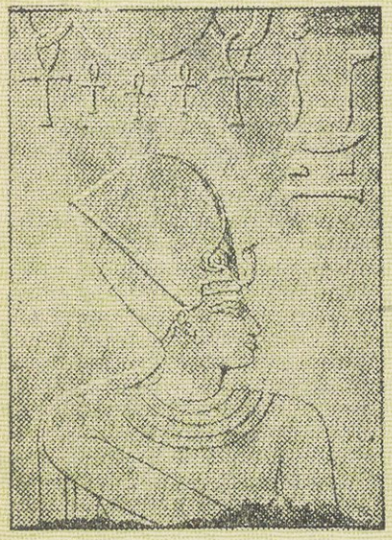

أمنوفيس الرابع (اخناتون)

وثار كهنة آمون على إخناتون ، واعتبروه متمرداً عليهم ، وعلى إلههم آمون .

إن « إخناتون » كان يريد أن يؤلف تفاهماً بين الإله الواحد والبشر جميعا .

كان يريد أن يعلّم مصر ، وشعب مصر ، أن الإله عظيم وقادر على كل شيء ، وهو غير منظور ، ولا يراه أحد .

وأن البشر جميعهم إخوان ، لا فرق بين الفلاح الذى يعمل فى الأرض ، وبين كاهن آمون داخل المعبد ، أو فرعون مصر على عرشه .

كان يريد أن يضع حداً لعبادة الحيوانات ، فلا يجزع الشعب إذا غضب العجل آبيس ، أو ماتت القطة ، أو حقد التمساح .

لقد أحب الصراحة ، والصدق ، والاستقامة ، وأراد أن يخلق من المصريين شعباً جديداً متّحداً ، يعبد إلهاً واحداً .

إن « إخناتون » كان يريد أن يفهم الشعب ، أن فرعون ليس إلهاً ، بل هو بشر مثلهم .

وكان إخناتون فيلسوفاً مفكراً ، بحث عن الحقيقة للوصول إلى الإله الواحد .

ونادى كما نادى « أبابى » آخر ملوك الرعاة ، بعبادة إلهٍ واحدٍ فى مصر كلها ، وقال للناس ، إنه هو نفسه ، ليس سوى إنسان ، كباقى الناس ، لكن الكهنة بالغوا فى اعتباره إلهاً ، فوق البشر .

لقد عرف أن الكهنة استولوا على الفرعون ، وجعلوه إلهاً ، لكى يقيّدوه بقيود ثقيلة ، ويمنعوه من الاختلاط بالشعب ، ويحيطوه بمراسم وطقوس تجعله آلةً فى أيديهم ، وعبداً لما يفعلون ويرسمون .



أخناتون وزوجته وأطفاله وقرص الشمس

لقد أراد هذا الملك الشّاب المفكّر ، بل هذا النّابغة الفتى ، أن يستقلّ هو بشخصه ، وأن تستقلّ مصر وشعبها معه .

وقد اضطر أخناتون ، إلى أن يخوض غمار معارك ، دينية هائلة ، مع طائفة الكهنة الأقوياء ، الذين كانوا يُنَصِّبُونَ الفراعنة على العروش ، بقولهم وإرادتهم .

لقد كان أخناتون أول فرعون مستقلّ فى تاريخ مصر ، وكان يقول :

« إن آمون له بداية ، أما نهايته ، فستكون على يدىّ » .

« أما الإله الحقيقى ، فلا بداية ولا نهاية » .

وقد استخلصتُ من كل ما قرأت فى مئات المجلّدات ، عن هذا الملك الشاب ، أنه كان شاعراً وفيلسوفاً وكاتباً ومؤلفاً .

ولا أستبعد أنه كتب كتاباً عن الإله الواحد ، والحقيقة الواحدة ، وقد ضاع هذا الكتاب ، أو أن كهنة آمون ، وجدوه فأحرقوه .

وكان شاعراً ، لأنك تجد على أعمدة الهياكل ، وفى لوحات تل العمارنة ، الأناشيد الجميلة ، التى نظمها ، فى مدح الإله الواحد ، غير المنظور .

لقد كان شاعراً كالملك سليمان ، وفيلسوفاً كالامبراطور الرومانى : ماركوس أورليوس .

بل يُقال إنّ أناشيد سليمان ، مسروقة من أناشيد اخناتون .

لقد سرقها اليهود ، ثم نسبوها لملكهم العظيم .

وإنك إذا قرأت مزامير داود الملك ، أو حِكم سليمان ابنه ، اتّضح لك بجلاء أن هذين الملكين ، عرفا أناشيد اخناتون ، واقتبسا كثيراً منها ، مما تجده حرفياً فى مزامير داود ، وقد جاءا كلاهما بعد اخناتون بمئات السنين .

بل إنى أعتقد أن المزمور ١٠٤ من مزامير داود ، مأخوذ بأجمعه عن أناشيد اخناتون .

ومنع اخناتون النحاتين ، والنقاشين ، والفنانين ، من صنع تمثال للإله الواحد آتون ، بل منعهم أن يرسموا صورةً له ، إعتقاداً بأن الإله ليس مادّة ، وليست له صورة ، ولم يره أحد قط .

وذلك يتفق مع ماجاء فى الوصايا العشر ، من الديانة المسيحية .

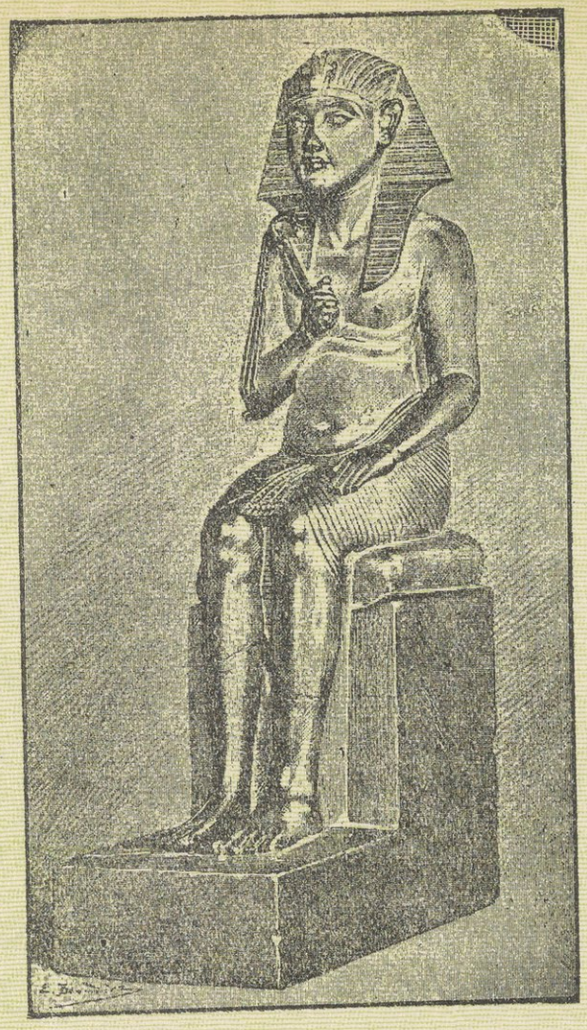

امنوفيس الرابع (اخناتون) والتمثال فى متحف اللوفر بباريس

ولم يسمح لأحد أن يشرك إلهاً آخر ، مع الإله الواحد .

فكان لمصر على أيام ملكه ، إلهٌ واحد غير منظور .

أما الشمس ، أو قرص الشمس ، المحمرّ بحرارة الإيمان ، فكان رمزاً للإله آتون ، ولم يكن الإله نفسه .

وقد أخذ فلاسفة اليونان ، ذات الفكرة عن أشعّة الشمس ، من اخناتون فرعون الفيلسوف العظيم والحاكم العادل .

لم يعبد اخناتون الشمس ، ولا قرص الشمس ، بل جعله رمزاً للإله الواحد ، المسمّى آتون .

وبجرةِ قلمٍ واحدة ، أبطل اخناتون فرعون ، عبادة آمون ، وإيزيس ، وأوزوريس ، ومُت ، والآلهة الكبيرة ، والآلهة الصغيرة ، والحيوانات . المتقمّصة فيها أرواح الآلهة ، وشطب أسماءها ،

وصورها ، ورسومها ، من المعابد ، والهياكل ، والأعمدة ، واللوحات المعلّقة ، فى كل مكان ، حتى فى قصره ، وغرفة نومه ، وفوق سرير عرشه .

وإليك بعض أناشيده فى مدح الإله الواحد : -

* * *

أنتَ الإله الواحد - أنت « رع » .

بزوغك جَليلٌ فى أفق السماء ، يا آتون - ياحىّ - يا مبدى الحياة .

إذا ما صعدت فى أفق السماء ، ملأت الأرض بجمالك .

أنت الذى لاشريك له !

أنت القادر على كل شىء !

تهبُ الحياة لمن تشاء !

خلقت الأرض والسماوات !

وخلقتَ كل ما يدبّ على الأرض ، وما يمشى عليها ، وما يطير فوقها .

خَلقت الإنسان ، وجعلت بنى الإنسان ، متساوين لديك .

لا فضل لإنسان على إنسان ، إلا بحبّك وتقواك .

كل شىء يبتدىء بك ، وكل شىء يعود إليك ، وينتهى فيك .

أنت البداية وأنت النهاية .

أنت خلقت الخير .

أما الخطيئة ، فهى من اختراع الإنسان .

لقد صنعها لنفسه ، فكانت النتيجة تعاسةً وشقاءً عليه .

أنت الذى تحفظ الروح ، إذا نام الانسان .

وتعطى الحياة ، للبيضة ، وهى فى الأجنّة .

أنتَ الذى خلقتَ الشعوب ، مختلفة الألوان ، والأجناس ، واللغات ، والأخلاق . ﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ﴾ .

لقد ارتفعت إلى السماء ، لترسل أشعتك إلى الأرض .

أنت الإله الحقيق ، لا صورة ولا مثال لك .

أذكر إسمى فى سجلّ الخلود ، لكى لا يلحق بى الفناء ، على مرّ الدهور .

* * *

وثار كهنة آمون ، فى جميع الهياكل والمعابد فى طيبة ، وجميع مدن مصر السفلى والعليا .

وابتدأت معركة دينية ، عنيفة ، بين أنصار اخناتون ، وكهنة الإله آمون .

وتفشّت الدسائس فى البلاط الملكى ، والهياكل ، والمعابد .

ونزّعَم الحركةَ الدينيةَ الجديدةَ ، أصدقاءُ اخناتون المخلصون ، وأمه الملكة العاقلة « تى » ، وزوجته الجميلة « نفرتيتى » .

وشعر اخناتون ، وهو فى السنة السادسة من ملكه ، أنه لايمكن القضاء على كهنة آمون ، ومنع الناس من عبادة الآلهة الكثيرة المتعددة ، التى يتزعمها الإله آمون نفسه ، إلا بالقضاء

على عاصمة هذا الإله ، ومقر القيادة العامة للكهنة الأقوياء الأشداء .

فخطر له أن يضرب طيبة الضربة القاضية .

فأمر أن يُمحى اسم آمون ، من جميع المعابد ، والهياكل ، والمقابر ، وأن تُطمس جميعُ النقوش ، التى تشير إلى هذا الاسم فى طيبة ، وفى سواها من مدن القطر المصرى .

وزاد على ذلك ، أن قرّر نقل العاصمة والعرش ، من طيبة ، إلى بلد سواها .

ولما كانت عبادة آمون منتشرة فى كل مدينة ، وبلدٍ فى مصر السفلى والعليا ، اختطّ اخناتون لنفسه ، بوساطة مهندسيه ، مركزاً عالياً جميلاً ، أسّس فيه عاصمة جديدة على النيل ، بالقرب من أسيوط سماها « أُفق آتون » المعروفة ، بتل العمارنة ، حيث تقوم الآن قرية الحاج قنديل ، وهى مكان جميل ، تحيط به التلال من ثلاث جهات ، فتؤلف بينها سهلاً منبسطاً واسعاً .

وبنى فيها الهياكل ، والمعابد ، والقصور ، والدور الجميلة ، وشق الطرق الواسعة المستقيمة ، ونسّق منازلها ، وشاد الموانى الفسيحة ، على ضفتى النيل ، ونحت فى الصخور مدافن لنفسه ، ولزوجته الجذابة ، الجميلة ، « نفرتيتى » .

وأقام فيها كثيراً من المعامل لصناعة الزجاج الساذج ، والملوّن ، ولصناعة المينا والفسيفساء ، وإتقان الأصباغ ، والألوان ، وزخرفة التماثيل وتمويهها بالذهب ، وإنك لتجد حتى اليوم ، فى أرضية قصره ، أبدع ما صنعت يد الانسان ،

من النقش النفيس ، والحفـــر المدهش .

وقد اتفق المؤرخون ، أن الحفر والنقش والرسم بلغ فى عهد اخناتون فى مدينة تل العمارنة ، مالم يبلغه فى طيبة ، أو فى أى مكان آخر فى مصر .

حتى إن تمثـــال « نفرتيتى » الموجود حالياً فى المتحف الوطنى فى برلين ، يعتبر أجمـــل وأكمل ، وأبدع وأروع ، وأحلى وأعلى ، ما صنعته يد الانسان ، منـــذ قديم الزمان إلى الآن .

بل إن بعض المؤرخين جعلوا دقّة صنعه ، أفضل مما رسم رسامو إيطاليا ، فى نهضتها الفنيـــة المعروفة بالرينسانس .

وقد وقف المؤلف أمام تمثـــال نفرتيتى فى برلين ، مأخوذاً مندهشاً لروعـــة ذلك الفن الساحر ، المنبسط على وجه تلك الملكة ، وللنور الإلهى المنعكس من جبينها وعينيها .

وقد شعر أن ذلك التمثال ، يمسكه فى مكانه ، فلا يستطيع حراكا ولا ذهاباً .

وهو نفس التمثال الذى كان يستهوى هتلر ، فيقف أمامه الساعات مناجياً مفكراً مستوحياً .

وذكر لى أحد كبار الألمان ، أن هتلر لم يتزوج إيفا براون إلا لأنه وجد فيها شيئاً مشابهاً لما رأى فى ملامح نفرتيتى .

وليس تمثال نفرتيتى إلا شاهد عدل على دقة الصنع ، وجمال النقش والرسم ، فى أيام إخناتون .

وقد وقف المؤلف فى معرض اللوفر فى باريس ، أمام تمثال

آخر لأخناتون ، يكاد يكون كتمثال نفرتيتى فى الرونق ، والروعة والإبداع .

وما أجمل ذلك اليوم ، الذى تعود فيه تلك التماثيل إلى وطنها الأصلى ، الذى انتزعت منه دون مسوغ .

* * *

ويعود الفضل فى إنشاء تل العمارنة وهندستها إلى المهندس المصرى « باخ » الذى أحسن تخطيطها ، وبنى معابدها ، وهياكلها وقصورها .

وخاف كهنة آمون فى طيبة من انتشار الدين الجديد ، والملك الجديد ، الذى كاد يكتسح الإله آمون ، وكهنته ، ومعابده .

فأخذ هؤلاء الكهنة يدسون الدسائس فى مصر ، وفى امبراطوريتها الواسعة ، ومستعمراتها الكثيرة ، التى تمتد من شاطىء النيل ، إلى شاطىء دجلة والفرات .

ولما رأى كهنة آمون ، أن إخناتون أصبح حبيب الشعب ، ومعبوده ، وأن لا سبيل إلى القضاء على ملكه ، وإلهه الواحد ، ولا سبيل إلى إثارة الرأى العام عليه ، فتحوا خزائن معابدهم ، المملوءة بالذهب والفضة والحجارة الكريمة ، مما حمله كبار فراعنتهم من فلسطين ، وسوريا ، وفينيقية . وممالك كنعان ، والحيثيين ، وعمدوا إلى إرسال الدعاة السريين من أصدقائهم ، ومواليهم ، وتلامذتهم إلى فلسطين ، وفينيقية ، وسوريا ، وميتانى ، وخيتا ، وكنعان ، ليبثوا بين طبقات الشعب كراهية مصر ،

وينشروا بين الناس أن فرعونها الجديد ، اخناتون ، رجل كافر ، أصيب بالجنون ، وابتلى بداء الصرع .

وأن الإله آمون غضب عليه ، وأجاز قتله ، وقتل أهله ، وأعوانه ، وهدم معابده ، وهياكله ، والتشنيع بأمواته ومقابره .

وقال كهنة آمون للمستعمرات المصرية المذكورة : « أن هبُّوا للتخلص من نير مصر ، إن أمامكم فرصة عابرة قد لا تعود » .

واشتعلت الثورة فى المستعمرات المصرية ، وساد التذمر ، والشكوى من فرعون مصر ، وحكامها . وشعبها .

وكان ملك ميتانى (سوريا الشمالية) والد الملكة نفرتيتى أول من ابتدأ بالتذمر من الاستعمار المصرى ، لأنه أبى أن يكون زوج ابنته اخناتون كافراً زنديقاً .

وكان ابن ملك « بابل » قد جاء إلى مصر ، وتزوج بإحدى بنات اخناتون ، فأرسل إليه والده ، ملك بابل ، عقداً فيه ألف جوهرة . أما ابنه فلم يعد إلى بابل ، بل سكن مصر رغم إرادة والده .

فاغتنم هذه الفرصة وثار على اخناتون ، وزوجته الملكة نفرتيتى طالباً تعويضاً مالياً عما لحق به من ضرر .

ونهض أمير سورى آخر فى جوار حلب ، فنادى بنفسه أميراً مستقلاً عن مصر .

وثار عزيرو المندوب السامى المصرى فى سوريا ، وتحالف مع الحيثيين ، للخروج على سلطة مصر ، ورفض دفع الجزية

لفرعون ، متبعاً بذلك تعاليم كهنة آمون .

وأخلص ملوك فينيقية كل الإخلاص لفرعون مصر ، وأرسلوا ينذرون اخناتون بأن يسرع لإخماد ثورة عزيرو ، والحيثيين .

وكتب إليه ملك جبيل ، وملك صيدا رسائل يشرحون فيها الحالة الحاضرة ، ويلتمسون منه الإسراع لإخماد الثورة ، والقضاء على الثوار قبل أن يستفحل الحال .

وأرسل حاكم ثونب (بعلبك) كتاباً إلى اخناتون فرعون ، يحذّره من الثورة القائمة فى شمالى سوريا ، ويقول له فيه :

« إن ثونب (بعلبك) تبكى يا سيدى بكاءً مراً ولا مغيث لها » .

والتجأ حدد نيرارى ملك نوخاشى (حلب) Nukhashie إلى فرعون مصر أيضاً يطلب إليه الإسراع لإخماد ثورة الحيثيين .

وكتب « ربّ ادى » Reb-Addi ملك بيبلوس (جبيل) ، رسالة تفيض بالمحبة ، والإخلاص ، والتحذير ، وهو يصف له الحالة السياسية ، والعسكرية كما هى .

وكان ملك بيبلوس Pyplos (جبيل) مخلصاً إخلاصاً أعمى ، لفرعون مصر ، فحارب ضد الثائرين إلى آخر لحظة من حياته .

واجتهد الثوار للحصول على مساعدة ملك جبيل ، ووعدوه الوعود الكثيرة إذا انضم إليهم .

ورفض ملك جبيل ، وحارب الثوار حرباً لا هوادة فيها .

أما مصر فلم تنجده ، ولم تهتم لندائه .

وكتب ملك صيدا (صيدون) المسمى Zimrida زمريدا ، إلى

اخناتون ليسرع لنجدة مستعمرات مصر ، التى تتساقط واحدة بعد الأخرى بيد الثوار .

وكتب أبى ملكى Abi-melki ، ملك صور ، يسأل ملك مصر ، أن يسرع للدفاع عن ممتلكات مصر ومستعمراتها .

وكان عزيرو الثائر ومن معه من الحيثيين ، يخابرون ملوك جبيل ، وصور ، وصيدا ، ويرجون منهم الانضمام إلى الثورة على مصر .

وكان هؤلاء يرفضون ويقاومون .

وفعل « رب ادى » ملك جبيل كل ما فى وسعه ، لمقاومة الثورة على مصر .

وجميع هذه الاضطرابات السياسية والعسكرية وقعت فى مستعمرات مصر لأن الحكام المصريين لم يكونوا مخلصين لعرش مصر .

وكتب اكزى Akzi ملك كتنا Ketna (حمص) يستنجد بملك مصر ليدافع عن ممتلكات مصر فلم يأخذ جواباً على ندائه .

وكتب ملك اوبى Ubi (دمشق) ينبىء ملك مصر بالثورة القائمة فى كل مكان .

وفى هذه الأثناء هجم بدو الصحراء المعروفون بقبيلة الخابيرى ، أو الخبيرى Khabiri على فلسطين وسوريا واحتلوا دمشق .

وكتب « عبد خيبا » Abd-Khiba حاكم القدس إلى اخناتون يفيده أن بدو الخبيرى زحفوا واستولوا على مدن فلسطين .

ويقول بعض المؤرخين إن بنى إسرائيل كانوا قبيلة من

قبـــائل الخبيرى استعمرت فلسطين فى ذلك الحين .

وإنك لتجـــد رسائل هؤلاء الملوك فى لوحات تل العمارنة ، محفوظة لم تصل إليهـــا أيادى العبث والقـــدر .

وقام ولاة اخناتون ، وممثلوه فى فلسطين ، وسوريا ، وفينيقية ، بما يقتضيه واجبهم ، بإنذاره بالخطر المحدق بمستعمرات مصر .

لقد أخلصت هـذه المستعمرات إلى عرش مصر ، وبالأخص ربّ ادى — ملك جبيل .

وقد قال الأستاذ برستد ، أنهم وجدوا فى مراسلات تل العمارنة ستّين خطاباً مرسلة من رب ادى ، ملك جبيل — إلى اخناتون .

لـكن اخناتون كان ملك السلام ، وكان يكره الحرب ويكره ضياع الأرواح ، والأموال .

لقد كان فى إمكانه أن يرسل جيوشاً مصرية لإخمـــاد الثورة ، التى امتد لهيبها فى جميع آسيا الوسطى .

لـكن الحقيقة أن كهنة آمون فى طيبة ، توصلوا بدهائهم ونفوذهم ، وحقدهم ، إلى أن يوظّفوا فى بلاط الملك اخناتون أشد الناس إخلاصاً لهم ، وتحمّساً لآلهتهم وديانتهم .

فكان هؤلاء القواد ، والزعمـــاء ، والرؤســـاء ، جواسيس يعملون بأمر كهنة آمون فى السرّ ، ويظهرون خضوعهم وولائهم لإخناتون فرعون فى الظاهر .

وقد كان رئيس هذه الطائفة السرية ، موظفاً كبيراً يسمى « تهوتو » .

كان هـــذا الموظف يصغّر من أهمية ثورة المستعمرات

المصرية فى نظر فرعون اخناتون ، ومن جهة أخرى ، يراسل الثائرين سرًّا ليشتدوا فى ثورتهم ، ويخلعوا نير مصر عن بلادهم .

وأرسل إخناتون قائد جيوشه إلى فينيقية وسوريا وقادش وبلاد الحيثيين ليدرس حقيقة الموقف عن كثب ، فكان هذا القائد أيضاً من دعاة كهنة آمون ، فخان مليكه إخناتون وشجّع الثوار .

ووصلت طلائع الثوار إلى حدود مصر نفسها .

وكان اخناتون يكره الحرب ، وسفك الدماء البشرية ، ويعتقد أنها لا تتّفق مع المبادىء الإنسانية ومع عبادة الإله الواحـــد .

وعانى هـذا الملك ، الفيلسوف الشاعر ، المفكِّر مرارة الألم ، حين رأى دينه الحقيق ودعوته الوطنيـة الصادقة تتفكّك ، وتنحـــلّ أمام العدو ، فى الداخل والخارج .



« حور محب » رئيس جيوش اخناتون

وكانت جيوش الحيثيين قد وصلت إلى حدود مصر ، فأرسل اخناتون قائد جيوشه الأعلى « حور محب » لمطاردتهم وهو لا يدرى أن حور محب هذا ، كان أيضاً صنيعة كهنة آمون وجاسوسهم الأكبر .

وترك حور محب (Harmhob) جنود مصر تتقهقر ، دون أن تحارب ، فوقع الاضطراب ، وعمّت الفوضى فى صفوف الجيش المصرى ، والشعب المصرى ، طبقاً لخطة سرّية وضعها كهنة آمون .

وكافأ كهنة آمون جاسوسهم حور محب بأن نصّبوه بعد ذلك فرعونا على عرش مصر .

وأراد إخناتون أن ينقذ مصر من الخراب والدّمار ، بعد أن ثارت عليه المستعمرات المصرية ، ووصلت طلائع جيوشها لمصر نفسها ، فطلب أن يتّفق مع كهنة آمون .

* * *

وثارت عند ذلك نفرتيتى على اخناتون ، وفضّلت أن يزول الملك ، على أن يترك زوجها عبادة الإله الواحد ، ويعود لعبادة الصنّم « آمون » .

إن نفرتيتى ، كانت صغيرة حينما جاءت إلى مصر ، فعلّمتها الملكة تى ـ أم اخناتون ـ عبادة الإله الواحد ، وشرحت لها أسرار هذه الديانة الحقيقية .

وتعمقت نفرتيتى فى معرفة الإله الواحد ، وتعبّدت له ، شأن زوجها اخناتون ، وأمه تى .

وتضرَّعت نفرتيتى إلى اخناتون أن يحارب فى سبيل الإله الواحد ، وأن لا يستسلم لكهنة آمون . لكن اخناتون كان يحب السلم ، ويكره الحرب ، فلم يسمع لتضرّعها .

ولما لم يصغ زوجها إلى نصائحها ، تركت قصره وعرشه ، وذهبت إلى قصر لها على الضفة الأخرى من النيل ، حيث عاشت بقية حياتها ، وحيدة فريدة ، تعبد الإله الواحد الذى آمنت به ، وأخلصت له .

وكانت الثورة فى الخارج ، وثورة كهنة آمون فى الداخل ، تزيد فى هموم اخناتون وأحزانه .

* * *

وخاف اخناتون على ملكه من الضِّياع ، ولم يكن له ولد ذكر ، لأن نفرتيتى أنجبت له ستّ بنات .

وزوَّج الكبرى منهن واسمها مريت أتون Maritaton محبوبة أتون « لصديقه الحميم » ساكرع « Sakere » ، ثم أشركه معه فى الملك ليكون ولى عهده بعد موته .

وزوَّج ابنته الأخرى ، واسمها « انحس انفرت » لصديقه الآخر توت عنخ آمون المشهور .

ومات اخناتون وهو فى الثلاثين من عمره ، بعد أن حكم ستّ سنوات فى طيبة ، كانت أمه فى خلالها القائمة على العرش ، وحكم عشر سنوات فى تل العمارنة .

وأن التاريخ ليقف مندهشاً من عبقريَّة اخناتون ، وجرأته فى

نشر آرائه الفلسفية ، ومذهبه الدينى فى عصر قديم ، مثل العصر الذى عاش فيه .

وتوفّى بعـــده صـديقه وصهره ساكرع ، فانتقل الملك إلى توت عنخ أمون ، الذى ترك تل العمارنة — وعاد إلى طيبة .

ووضع نفسه تحت تصرف كهنة آمون ، وغيّر اسمه من « توت عنخ أتون » إلى « توت عنخ آمون » .

وعادت السّلطة ، وعاد النفـوذ إلى كهنة آمون ، وأصبح الفرعون الجديد توت عنخ آمون آلة فى أيديهم ، يديرونها كيف يشاؤون .

وقد اختلف المؤرخون فى تاريخ توت عنخ آمون ، ولم يعرف أحد من هما أبواه .

وليس فى لوحات تلّ العمارنة ، أو معابد طيبة ، ما يشير إلى أمه أو أبيه .

ولقد درست تاريخ هذا الملك الشاب ، وبحثت عن مولده ، فلم أصل إلى حقيقة ثابتة . لـكنى استنتجت من جميع ما قرأت ، وعرفت أن « توت عنخ آمون » ، كان ابناً غير شرعى لإخناتون فرعون من إحدى سراريه ، قبل أن يتزوج الملكة نفرتيتى .

ثم زوّجه إخناتون من ابنته انحس أتون .

وليس ذلك غريب فى تاريخ مصر ، فقد كان زواج الأخ بأخته شائعاً وكثيراً .

بل أن رعمسيس الثانى تزوج إحدى كريماته .

لكن توت عنخ آمون مات وهو فى الثامنة عشرة من عمره، وقد اكتشفت مقبرته أخيراً، وفيها أجمل وأبدع الحلى والنقوش.

لكن كثيراً مما وجد فيها، كان مما صنعه اخناتون، لأن توت عنخ آمون لم يعش طويلاً لينشىء شيئاً، أو ليبنى قبراً.

وبعد موت توت عنخ آمون، تولّى الملك الكاهن الأكبر «أيبى» فحاول تعزيز عبادة أتون ففشل.

وبعد موته قال كهنة آمون، إن الإله ظهر لهم، وأمرهم أن ينصّبوا حور محب (قائد جيوش اخناتون وجاسوسهم القديم) فرعوناً لمصر.

فنادوا به ملكا، بعد أن زوّجوه بفتاة من دم فرعونى، تدعى: مونتزمعت Muntezmeet، (يرجح أنها أخت اخناتون) ليجعلوا حقه فى الملك شرعياً.

وهجم كهنة آمون على عاصمة اخناتون فى تل العمارنة، فعبثوا بالمدافن، والمعابد، والهياكل، ومحوا اسم اخناتون،

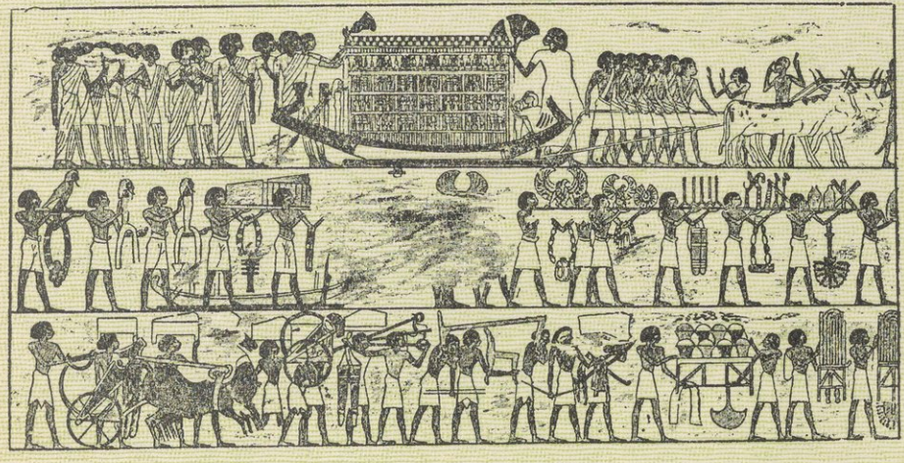

مشهد جنازة الفرعون حور محب
قسم من جنازات الفراعنة وترى الناووس محمولا على مركب

من جميع الرسوم ، والنقوش ، وقضوا على كل أثر لهـذا الملك الشاب الصالح .

ومات حور محب ، دون أن يرزق أولاداً يرثونه ، فانتقل الملك إلى رمسيس الأول مؤسس الدولة التاسعة عشرة .

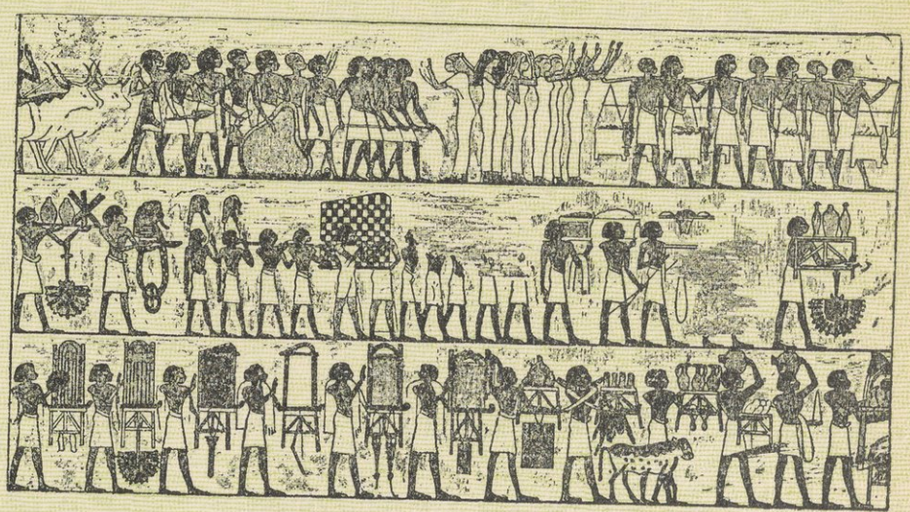

تابع — مشهد جنـازة حور محب

* * *

الدولة التاسعة عشرة : من ١٣٥٩ إلى ١٢٥٣ قبل الميلاد .

استولى رمسيس الأول على العرش ، وهو فى سن الشيخوخة ، وتوفى بعد ستة أشهر ، فانتقل الملك إلى ابنه ساتى .

* * *

هـذا هو ساتى الأول ، ابن رمسيس الأول ، مؤسس الدولة التاسعة عشرة .

وأوّل عمل حربى قام به ، هو أنه شنّ الغـارة على عرب

الخبيرى الذين استولوا على فلسطين أيام اخناتون ، وأكرههم على دفع الجزية لمصر .

ويقال إنه حفر قناة من النيل إلى البحر الأحمر .

وهو الذى بنى أعظم ما شيدته يد الإنسان ، فى تاريخه الطويل ، وهو قاعة الأعمدة فى معبد الكرنك فى الأقصر .

إن قاعة الكرنك العظمى ، تعتبر أعظم أعمال البشر ، لأنها أعظم قاعة ذات عمد ، أقامها البشر على ظهر البسيطة حتى الآن .

* * *

إن الكرنك بناءٌ قديم ، لا نعرف من ابتدأ فى تأسيسه — لكن أقدم إسم وجد منقوشاً على جدرانه هو إسم الملك أوسرتسن أحد ملوك الدولة الثانية عشرة — وإنى لا أجزم أنه هو الذى بنى هيكل الكرنك أو هيكل « أبت » ، كما كان يدعونه قدماء المصريين .

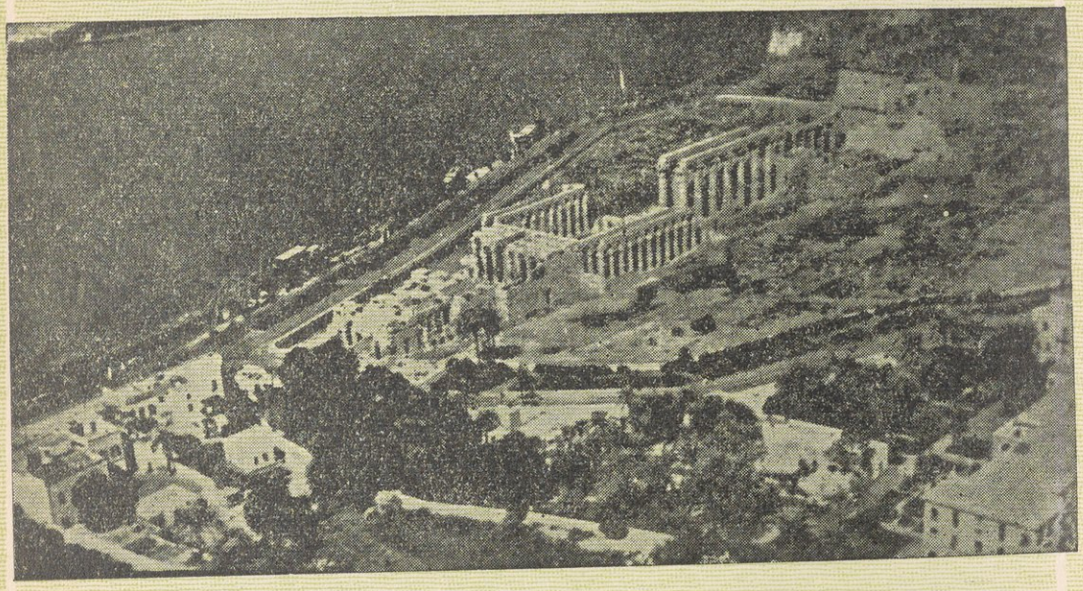

طيبة — صورة هيكل الكرنك فى الأقصر مأخوذة من الجو والهيكل على النيل والى الجهة الأخرى من النيل تجد وادى الملوك وقد ظهر جزء صغير منها

وقد زحف على فلسطين وأخضع قبائل البدو ، وسار إلى كنعان (غربى فلسطين وسوريا) وعبر نهر الأردن إلى جهة حوران Houran ، ثم قفل راجعاً إلى لبنان ، فى ذات الطريق التى سار عليها قبله تحوتمس الثالث ، وأخضع مدينتى صور وصيداء وجميع شواطىء فينيقية جنوبى نهر « الليطانى » Litany ، ثم تابع سيره إلى أولازا Ullaza على النهر الكبير ، وأرسل وراء ملك قبرص (ألاسا) Alasa ، فجاء إليه حاملا هدايا كثيرة على عادة ملوك تلك الجزيرة .

ثم أقفل راجعاً إلى غربى سوريا والجليل ، واستولى على مملكة الأموريين ، التى أسسها عزرو على أيام اخناتون .

وقد كانت مملكة أمور ، خط الدفاع الأول عن مملكة الحيثيين .

والتحمت جيوش مصر ، بجيوش الحيثيين (خيتا) ، وذارت بينهما معركة شديدة ، على نهر العاصى (أورنتوس) ، حارب فيها ساتى الأول بنفسه ، وانتصر انتصاراً تاماً ، واستولى على عاصمتهم كرشاش القائمة على نهر الفرات ، وقطع رؤوس ملوكهم وزيّن بها مركبته الحربية .

ويعتبر قبره فى وادى الملوك فى الأقصر ، أكبر وأعظم قبور الفراعنة .

لقد زاره المؤلف ، فوجد داخله ، الطرقات ، والحجرات ، والتشعبات ، والانحدارات ، التى تنيف على أربعمائة وسبعين قدماً



صاحب هذا الكتاب والسيدة حرمه فى وادى الملوك أمام مقبرة ساتى الأول التى تعد من عجائب الدنيا ، لما فيها من الابداع فى النقش والرسم — ان وادى الملوك عبارة عن جبال وهضاب وتلال ووديان ، وقبل اكتشاف المقبرة الأولى لم يكن أحد يدري أن تحت تلك الرمال والصخور توجد تلك المدافن الأثرية المدهشة — باب صغير محفور فى الصخر تنزل فى درجاته الكثيرة الي قلب الأرض حيث تجد المومياء وجميع ما عز عليها فى حياة الدنيا من التحف ومتاع الحياة — وينتقل الانسان بين تلك الجبال والوديان ، من قبر الي قبر ، أو من قصر الى قصر بما فيه مما يدهش العقل ويسحر اللب ، ويتساءل : أين هي أرواح الفراعنة ؟ ومتي تعود الى هذه المومياء ، التي لا تزال تنتظر رجوع الروح منذ أكثر من سبعة آلاف سنة ! ! !

تحت الأرض ، جميعها محفورة فى الصخر ، وفيها من الحفر والنقش ، والرسوم ، ما يحيّر الألباب .

إن النقوش والتصاوير لم تكن للزينة ، بل هى التاريخ مسجل على الصخور والأعمدة والجدران ، وفى المعابد والمقابر .

أما جثته (المومياء) فقد وجدت سالمة فى تابوت مرمرىّ بديع ، نقل من مقبرته فى طيبة إلى دار الآثار فى القاهرة .

وإنك إذا نظرت إلى مومياء ساتى الأول ، رأيت على وجهه ملامح العظمة والأبهة والجلال .

وأوصى ساتى الأول بالعرش بعد وفاته إلى أحد أبنائه ، لكن رمسيس الثانى اغتصب الملك من أخيه ، كما هو مدوّن فى الرسوم على جدار معبد الكرنك .

* * *

لقد كان رمسيس الثانى ابن ساتى الأول ، أعظم ملك ارتقى عرش الفراعنة .

وهو الذى يلقّبه اليونانيون بسيزوستوريس .

إنه الفرعون الذى استعبد اليهود ، كما ورد فى التوراة (العهد القديم) ، وقد دعاه المؤرخون بفرعون الفراعنة .

كان رمسيس الثانى أول من فتح قناة السويس ليصل البحر الأحمر بالبحر المتوسط . ثم حفرت ثانية أيام الامبراطور دراجان ، وهدريان . ثم حفرها عمرو بن العاص ، فطمرتها

الرمال ، إلى أن جاء دى ليسبس ، فحفرها بمحاذاة الترعة القديمة .

وقد بنى رمسيس الثانى أسطولاً بحرياً عظيماً ، مؤلفاً من أربعمائة سفينة ، فعبر البحر الأحمر ، واستولى على جزائر بحر الهند .

وامتدّ ملكه فى أوربا ، إلى النمسا ، ونهر الدانوب .

وكان أول من رسم خارطة على الورق — وضعها لدولته العظيمة ، وفتوحاته الهائلة .

وفى أيامه ، أصبحت فلاسفة اليونان تلاميذاً لكهنة مصر ، فتعلموا منهم الفلسفة ، والدين ، وغيرهما من العلوم والفنون .

ثم سكبوا جميع ذلك فى بوتقة جديدة ، نشروها فى العالم ، تحت اسم الفلسفة اليونانية ، التى ابتدأت بتاليس ، وانتهت بأرسطوطاليس .

وانتشرت الفلسفة والعلوم ، فى أيام الدولة التاسعة عشرة ، فشجّع ملوكها أهل الأدب ، والشعر ، وأحاطوا العرش بالأدباء ، والشعراء ، أمثال يانتور ، وكاكايو ، ولنستين .

ويقال إن قصة على بابا المشهورة مأخوذة عن أصل مصرى قديم ، يتعلق بهجوم ضباط مصريين على مدينة يافا (Jappa) على أيام تحوتمس .

ونقل رمسيس الثانى عاصمة ملكه من طيبة إلى تنيس (Tanis) .

وكثر على أيامه وجود السوريين والفينيقيين فى مصر .

وأصبح للفينيقيين (اللبنانيين) حىّ مخصوص بمنف ، ومعابد جميلة لآلهتهم ، بعل ، وعشتروت .

وأخذت الكلمات الفينيقية تندمج فى اللغة المصرية ، وأخذ كتّاب ذلك العصر ينمّقون ويزيّنون كتاباتهم باستعمال بعض مفرداتها .

وكان لرمسيس الثانى ابنة ، ولع بها وأحبّها حباً شديداً ، فسمّاها اسماً فينيقياً ، وهو : (بنت إناث) Bint Anath .

وأصبح رئيس شرطة القصر الملكى فينيقياً ، وهو المدعو : (بن عوزن) Ben-Ozen ، واشترك فى إدارة الحكم فى مصر .

وتمكن ضابط بحرى فينيقى يدعى (بن أناث) Ben-Anah من زواج كريمته ، من ابن رمسيس الثانى .

إنّ معظم المبانى والآثار الباقية فى مصر الآن ، هى من عهد رمسيس الثانى .

فقد ملأ مصر هياكل ومعابد من تانيس إلى بلاد النوبة .

وحوت مائدة فرعون أجمل الزينات ، وأدوات الترف ، من فينيقيا ، وسوريا ، وقبرص ، وخيتا ، وما بين النهرين .

ومرّ رمسيس الثانى فى حروبه بلبنان ، وسجّل اسمه على صخور نهر الكلب (Lycos) .

وإنك لتجد على صخور نهر الكلب نصباً مصرياً يمثل فرعون منتصباً أمام إله الشمس (رع) يقدم له ذبائح ، وتجد نصباً آخر عليه كتابة مصرية قديمة تصف حروب رمسيس وفتوحاته الكثيرة .

وعلى نصبٍ آخر تمثالاً للإله « آمون » .

ثم زار رمسيس فرعون مدينة جبيل (بيبلوس) ونزل ضيفاً

على ملكها حيرام ، وقدم له هدايا كثيرة وبنى معبداً لإله المدينة .

وقام بجيوشه من جبيل إلى بوتريس (البترون) Botrys ، وهى بزرون Bozron كما تظهر فى لوحات تل العمارنة .

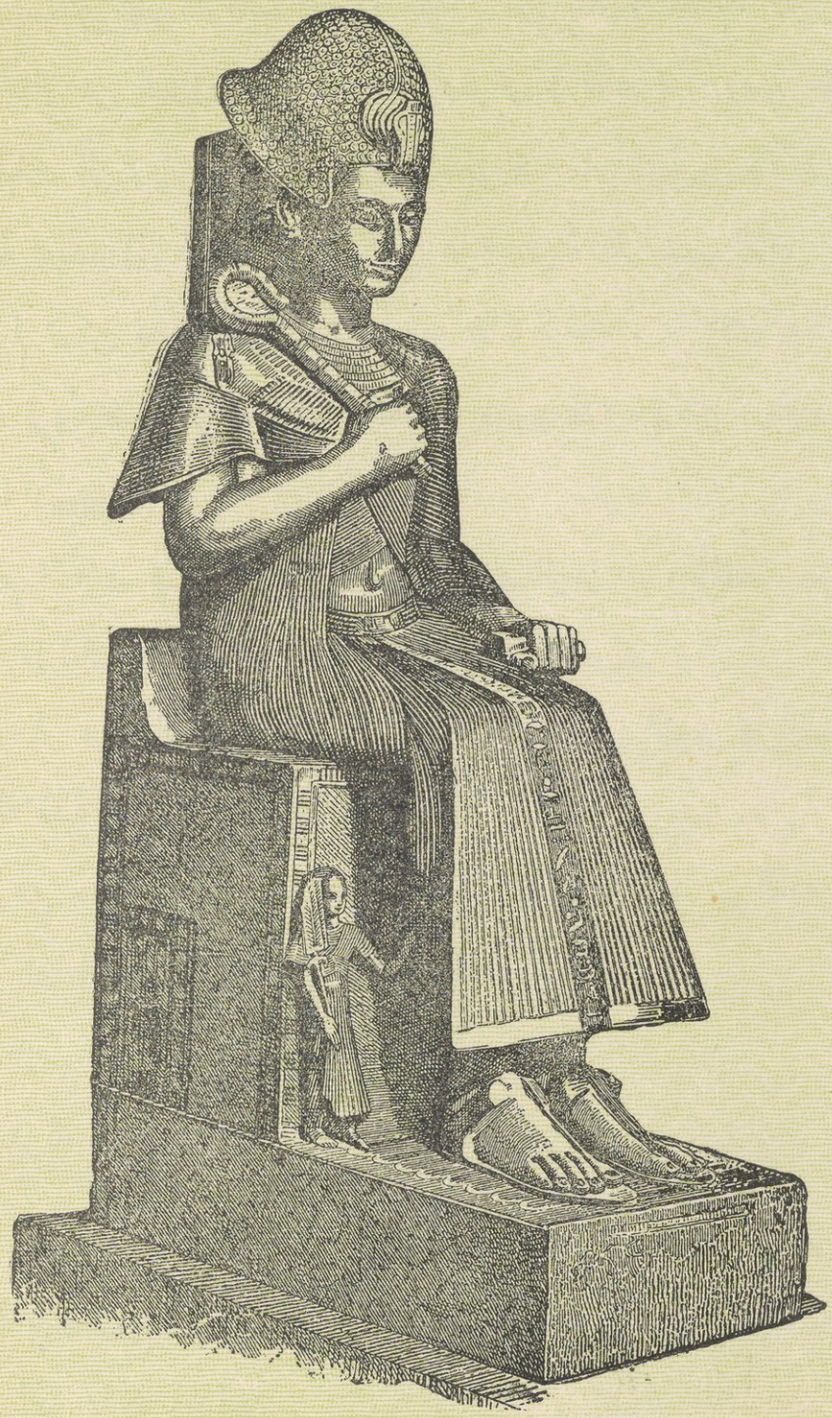

رمسيس الثانى

وكانت البترون قلعة قديمة ، بناها أهل صيدا للدفاع وصد الهجوم الآتى من الشمال نظراً لوقوعها عند مدخل الطريق الذى يؤدى إلى رأس فانيال Phaniel المعروف الآن (برأس الشقعة) الذى يسيطر على الموقف الحربى للدفاع عن المدينة المقدسة جبيل .

وسار من البترون إلى بلدة جيفارنوس (انفه) ، ومنها مشى فى غابات الزيتون الواسعة فى الكورة ، ماراً بطريق الأرز ، زاحفاً بجيشه إلى المكان الذى تقع عليه مدينة طرابلس الآن .

ولم تكن مدينة طرابلس معروفة ذلك الحين ، بل كان مكانها ثلاث قرى صغيرة ، هى : محلة (Mahallat) ، وكايز (Kaiz) ، ومايزا (Maiza) .

ثم اتحدت هذه القرى الثلاثة بمرور الزمن ، وتألفت منها مدينة طرابلس ، ومعناها المدن الثلاثة .

وسار من المدن الثلاثة إلى سميره (رأس الشمر) بالقرب من اللاذقية على النهر الكبير .

ومن هناك قام بجيشه لمحاربة الحيثيين فى قادش على نهر العاص .

وكان الحيثيون (خاتى) دولة قوية عظيمة .

* * *

معركة قادش : على نهر العاص سنة ١٢٧٨ قبل الميلاد .

اتّبع رمسيس الثانى خطّة والده ساتى الأول ، فى الغزو والحرب فابتدأ بإخضاع الشاطىء الفينيقى ، ليحمى ظهر جنوده فى سيرها شمالا نحو مملكة الحيثيين .

وهبّ ملك الحيثيين المدعو « منلا » ، وجمع حوله ملوك كار ، وارواد ، وكنعان ، وملك حلب ، وبعلبك ، وملوك آسيا الصغرى .

وزحف رمسيس الثانى فى مقدمة فيلق آمون ، نحو نهر الأورنتس ، مخترقاً سلسلة جبال لبنان الشامخة .

وبلغ رمسيس مدينة قادش وقت الظهيرة .

وانسحب الملك (منلا) إلى شرقى عاصمته ، متخذاً مكاناً حربياً ممتازاً .

ثم عبر نهر الأورنتس ، قائداً جيشه العظيم المؤلّف من جيوش ممالك عديدة .

وشطروا فيالق رمسيس ، إلى شطرين .

واتّسعت مقدمة جيوش الحيثيين ، وطوّقوا جيوش رمسيس ، والمعسكر المصرى بأكمله .

وكاد الجيش المصرى أن يقع فريسة باردة لجيش ملوك الحيثيين .

حينئذ أسرع رمسيس بنفسه ، وهو يقود عجلته الملكية مخترقاً جيوش الأعداء ، فأوقع فيهم الرّعب والذّعر ، واندفع كثيرون منهم إلى النهر ، وغرقوا فيه ، حتى أن ملك حلب غرق فى النهر كما نرى فى الرسوم المنقوشة على أعمدة هيكل الكرنك .

لكن المصريين رغم البطولة الهائلة ، التى قام بها رمسيس ، أُكرهوا على التقهقر .

وكاد رمسيس يخسر المعركة .

بل كان الخوف عظيما أن يقع رمسيس نفسه ، أسيراً بيد الحيثيين .

لكن جيوش الحيثيين وجدت أمتعة المصريين ، وأدواتهم وعجلاتهم ، وثيابهم ، مبعثرة أمامهم بكثرة ، فأخذوا فى السّلب والنَّهب وتركوا جيش مصر يفلت من يدهم .

ولو ثابروا على مطاردة الجيش المصرى ، لقضوا عليه القضاء المبرم .

* * *

فى هذا الحين وصلت إمدادات عظيمة ، من الفيالق المصرية المتأخرة .

فسار رمسيس فى مقدمتها ، وكرّ راجعاً على جيوش الحيثيين فوجدهم منهمكين بتوزيع الأسلاب والغنائم ، فأبادهم عن آخرهم ، وإنك لتجد تاريخ هذه المعركة العظيمة منقوشاً بالصور والرسوم ، على جدران الهياكل المصرية وأعمدة المعابد المقدسة فى الكرنك .

* * *

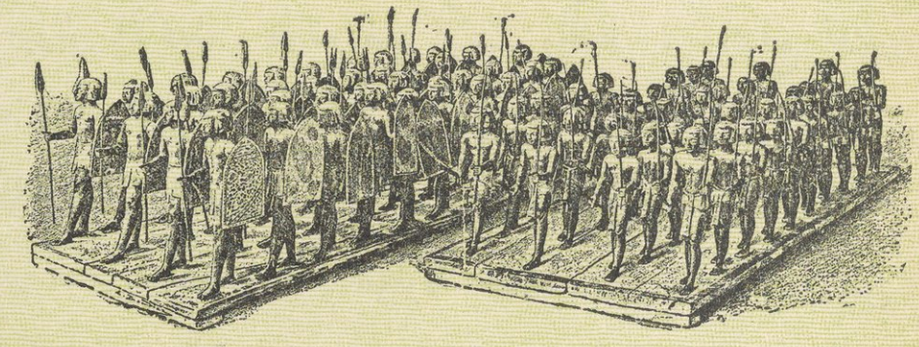

جيش المشاة المصري أيام رمسيس الثانى كما هو مرسوم على جدران المعابد

وتعدّ معركة قادش، من أعظم المعارك فى التاريخ .

وقد أبدع شعراء ذلك العصر ، بوصف هذه المعركة .

وأرسل ملك الحيثيين، رسلاً إلى رمسيس ، يطلب منه الصلح، فوافق رمسيس على ذلك ، وعقدت معاهدة بين الدولتين .

وكانت هذه المعاهدة ، أقدم معاهدة دولية فى التاريخ .

وزار ملك الحيثيين (خيتى) مصر بعد ذلك ، وحضر الاحتفال بزواج كريمته « مات نفرو رع » (Matnafrure) إلى رمسيس الثانى .



مومياء رمسيس الثانى

واحتلّت هذه الملكة مكاناً ممتازاً فى القصر الملكى ، وأقيم لها تمثال عظيم بجانب تمثال زوجها الملك رمسيس .

ومرضت أخت الملكة ، وهى فى بختن فى بلاد الحيثيين ، فأرسل رمسيس تمثال المعبود ، خنسو ، لشفائها وطرد الأرواح الخبيثة منها .

واستمرت العلاقات الحسنة ، بين رمسيس وملك الحيثيين ، ويقال إنه تزوج الإبنة الثانية لملك الحيثيين .

وأصيب رمسيس الثانى بالعمى فى أواخر أيامه ، ومات وهو فى الثمانين من عمره ، بعد أن حكم سبعة وستين سنة ، كلها حروب ، وفتوحات ، وانتصارات .

وقد عاش رمسيس الثانى ، إلى بعد موت ثلاث عشر من أولاده .

ويقال إنه كان له مائة وأحد عشر إذكراً ، وخمس وخمسون بنتا .

وبموت رمسيس الثانى أخذت الإمبراطورية المصرية فى الهبوط والانحلال ، فتولى العرش منفتاح فرعون .

ثم ساتى الثانى ابن رمسيس الثانى ، وفى أيامه اختلّت أمور الدولة التاسعة عشرة ، مما أدى إلى هجوم أمير سورى على مصر ، فافتتحها وحكمها تحت اسم فرعون ارسو ، وبهذا الأمير السورى انتهت الدولة التاسعة عشرة .

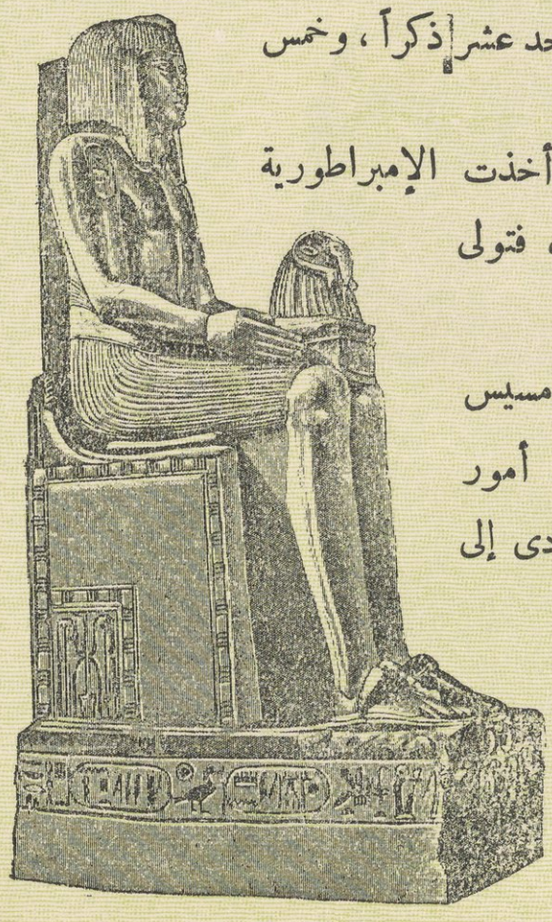

تمثال ساتى الثانى

الدُّول الحديثة

الدولة العشرون : من ١٢٨٠ إلى ١١٠٠ قبل الميلاد .

هذه دولة ملوك رمسيس — أسَّسها فرعون «ستنتحت»، وابنه رمسيس الثالث ، الذى بنى مدينة هبو ، وجعلها معبداً عظيماً للإله آمون .

لقد أصبح كهنة مصر ، فراعنة وملوكاً ، بعد أن كان لهم نفوذ الفرعون ، لا عرشه .

ويبتدىء نفوذ الكهنة ، بوفاة رمسيس الثالث سنة ١٢٨٠ قبل الميلاد .

إن عدد الفراعنة الذين حكموا بعد رمسيس الثالث ، بلغوا اثنى عشر فرعوناً ، أظهروا من الضعف والانحطاط ، ما أدَّى بعرش مصر إلى الانهيار ، وبالكهنة لبسط نفوذهم على العرش ، وأصبح لكهنة آمون ، نفوذ عظيم ، يفوق نفوذ الملوك .

وعلى أيام هذه الدولة ، كان فى فلسطين ، وسوريا ، ولبنان وبلاد الحيثيين ، مائة وتسعة وستون مدينة ، ترسل جميع إيراداتها لمعابد آمون فى مصر . إنما الفضل فى هذه السَّيطرة العظيمة يعود إلى ملوك الدولة التاسعة عشرة .

أما الفراعنة فى الدولة العشرين ، فانصرفوا إلى اللَّهو ، والنساء

مما زعزع ملكهم ، وذهب بهيبتهم ، وفى أيام رمسيس الثانى عشر كتب الحكيم المصرى « آنى » وصاياه الشهيرة .

لقد فسدت الأخلاق ، وضاعت الآداب ، ولم يعد لرجال العلم ، والأدب ، والشعر ، ما كان لهم فى الدولة التاسعة عشرة ، فى ظل ساتى ورمسيس .

ولم يعد من ذكر للأدباء والشعراء ، الذين أحاطوا بعرش رمسيس الثانى ، ومنفتاح الأول .

حتى أن أحد الأمراء ثار على ملوك هذه الدولة ، وجعل عاصمته مدينة اتريبى (بنها) Atribis .

فانتقل العرش فى عهد رمسيس التاسع إلى يد الكاهن الأول فأصبح هذا الكاهن الفرعون العظيم المتسلط على كل أرض مصر .



الكاهن هر هور فرعون مؤسس الدولة ٢١ وهي دولة الكهنة

* * *

الدولة الحادية والعشرون :

من ١١٠٠ إلى ٩٧٥ قبل الميلاد

(دولة الكهنة)

لقد أسّس هذه الدولة الكاهن « هر - هور » .

إن ضعف الفراعنة كان الدافع الأكبر لجلوس هر - هور

على عرش الفراعنة ، وتنازل فرعون « هر — هور » عن الملك إلى ابنه منخبرا فرعون ، الذى تزوج أميرة من ذرية ساتى الأول ، ليجعل مركز ملكه شرعياً أمام الشعب .

وكان حكم الكهنة بطبيعة مركزهم وعقليتهم ، حكماً هادئاً ، انتشر فيه الأمن والسلام والطمأنينة ، لكن الشعوب المحكومة المغلوبة على أمرها ، ثارت حينما شعرت أن روح الفتح وحب الحرب ، قد ضعفت فى نفوس المصريين ، وأن ملوكهم أصبحوا كهنة مسالمين .

فأعلن الأشوريون استقلالهم عن مصر .

وقام الملك داود فى فلسطين ، وأسّس الدولة اليهودية الجديدة .

واستطاع سليمان ، بفضل كهنة مصر وحبهم للسلام ، أن يؤسس عرشاً عظيماً يمتدّ من عريش مصر ، إلى نهر الفرات .

ولولا حكم الكهنة فى مصر ، لما استطاع يهود فلسطين ، أن يضعوا أساس الملك العظيم ، فى عهد داود وسليمان .

وكان عدد الذين يخدمون فى هياكل آمون ، يزيد على سبعة وثمانين ألف نسمة ، وكانت هياكل آمون تملك من أطيان مصر نحو خمسمائة وثلاثة وثمانين ألف فدان .

ولا شك أن كهنة أمون كانت لهم اليد الطولى ، فى خراب الإمبراطورية المصرية .

وتزوّج الملك سليمان ابنة فرعون مصر « باساب كونت » آخر فراعنة الدولة الحادية والعشرين ، وتعلم من الفراعنة فنّ العمارة

والبناء ، فبنى هيكله المشهور فى أورشليم .

ولا شك أن للفينيقيين الفضل الأكبر فى بناء هيكل سليمان ، لأن الصّناع المهرة جاءوا من صور ، وصيدا ، وجبيل .

لقد أرسلهم حيرام ملك صور ، وعلى رأسهم حيرام المهندس المعمارى ، والبناء الشهير ، وهو فنّان كبير ابن أرملة فقيرة .

لكن زواج سليمان بأميرة مصرية ، ساعد على اقتباس هندسة هياكل مصر ، وفنّ البناء فى معابدها .

أنظر إلى هيكل سليمان ، تجد فيه التشابه العظيم بالهياكل المصرية القديمة .

فالعاموادان « جاكى » و « بوعاز » الواقعان فى مدخل الهيكل أخذ رسمهما عن المسلات القائمة فى مدخل هيكل الكرنك .

ولم يكن بيت غابة لبنان ، فى هيكل سليمان سوى تقليد مأخوذ عن قاعة الأعمدة فى هيكل الكرنك .

وانتهت الدولة الحادية والعشرين ، بوفاة ملكها الأخير ، فرعون هوبا سبنتا .

* * *

الدولة الثانية والعشرون : (فى تل بسطة بالشرقية) من ٩٤٥ إلى ٧٤٥ قبل الميلاد .

هذا هو « شيشنق » ، رئيس الدولة الثانية والعشرين .

إنه من أصل فينيقى ، رغم أن بعض المؤرخين يعودون به إلى ملوك الليبيين .

كان والده المسمى « نمرود » لبنانياً ، هاجر إلى مصر ، ثم أصبح قائداً للجيوش المصرية بأجمعها .

وأخيراً انتزع الملك من يد الكهنة ، وتزوّج بأميرة منهم ليجعل حقه فى العرش شرعياً بمقتضى القانون .

أنظر إليه ، لقد نقل ملكه من طيبة إلى بسطة بمديرية الشرقية ، فى المكان المعروف الآن بتل بسطة بالقرب من الزقازيق ، ليكون قريباً من فينيقية ، وبعيداً عن طيبة وممفيس .

وخاف فرعون شيشنق ، أن يعود الكهنة إلى العرش ، فوضع قانوناً لا يجوز بمقتضاه أن يصبح الكهنة ملوكاً ، ولا أن يتولّوا أية وظيفة فى الدولة .

ومن أهم ذكريات هذا الفرعون ، أن ملك إسرائيل استغاث به ، فذهب إلى أورشليم بألف ومائتى مركبة ، وستين ألف فارس ، وحارب رحبعام بن سليمان الملك ، وافتتح فلسطين ، ونهب هياكل سليمان .

وكان سليمان الملك قد مات فى تلك الأثناء ، بعد أن وصلت أخبار غناه الفاحش ، وثروته العظيمة إلى مصر ، ممّا أطمع فراعنة مصر بكنوز سليمان .

وجاء فى التوراة وفى الأصحاح الرابع عشر ، فى كتاب الملوك الأول ، أن « شيشنق » ملك مصر ذهب إلى أورشليم ، وأخذ خزائن بيت الرب ، وبيت الملك ، وجمع أتراس الذهب التى

عملها سليمان (١) .

وتاريخ هـــذه الحروب نراه اليوم مرسوماً على حائط هيكل الكرنك فى الأقصر .

وتوفى شيشنق ، فتولى الملك بعده ابنه أوسرتسن الأول .

وفى عهد هذه الدولة ظهرت مملكة نينوى الغنيَّة العظيمة ، التى عبرت الصحراء فيما بعد ، واستولت على مملكة مصر .

* * *

الدولة الثالثـــة والعشرون : من ٧٤٥ إلى ٧١٨ قبل الميلاد .

وضع أساساتها « بدبست » فرعون ولقب نفسه من أمون ، أى حبيب آمون .

وفى عهـــد هذه الدولة ، انقسمت مصر إلى عدّة إمارات صغيرة مستقلّة ، ورجعت إلى ما كانت عليه قبل عهد الملك مينا .

* * *

الدولة الرابعة والعشرون : من ٧١٨ إلى ٧١٤ .

أسسها بوكوريس فرعون ، بعـــد أن طرد فراعنة ملوك الأحباش ، لكن ملك الأحباش عاد فحاربه ، وأحرقه ميتاً .

* * *

الدولة الخامسة والعشرون : من ٧١٤ إلى ٦٦٣ قبل الميلاد .

لقد جاء فراعنة هذه الدولة من الحبشة .

---

(١) ملوك الأول ص ١٤ ع ٢٥ و ٢٦ .

فقد جاء ملك الأحبـــاش المدعو « ساباكا » فرعون إلى مصر ، وأسّس الدولة الخامسة والعشرين .

وكان فراعنة هذه الدولة يتقاضون ضريبة من يهود فلسطين ، مائة وزنة من الفضة ، ووزنه من الذهب فى كل عام .

ومن ملوكها « نب أبوى » الذى لقب نفسه بذى القرنين .

وعنه أخذ الإسكندر الكبير هذا الاسم ، ولقّب نفسه به « إسكندر ذو القرنين » .

وفى سنة ٦٧٢ جاء أبصرهدون « سنحاريب » ملك الأشوريين إلى مصر .

فلما وصل إلى حدود الوجه البحرى ، قابله ملك مصر ، طهراقه فرعون ، وحاربه وأرجعه إلى ما وراء حدود مصر .

وقام فى أشور ملك آخر يدعى « أشور بانيبـال » هاجم مصر ودحر جيوش طهراقا فرعون ، وزحف بجيوشه ، حتى وصل إلى طيبة .

* * *

الدولة السادسة والعشرون : من ٦٦٣ إلى ٥٢٥ قبل الميلاد .

وجاء « بسماتيك » فرعون ، وهو رأس الدولة السادســة والعشرين ، فطرد الأشوريين من مصر .

وقد هاجم فلسطين وحاصر مدينة أزوتوس (أشــدود) واستولى عليها .

وفى أيامه انتشر العلم ، وعمّت المعــارف ، وبدأ المصريون

لأول مرة يستعملون الحروف الأبجدية ، بدلا من الكتابة الهيروغليفية ، بالصور ، والرسوم .

وفى عهد هذا الملك ، انتشرت الحضارة المصرية ، والديانة المصرية فى اليونان ، وجميع شواطىء البحر المتوسط .

ثم جاء « نيخوس » فرعون فشق القناة ، التى تصل البحر المتوسط بالبحر الأحمر ، وسار بجيشه لفتح سوريا ، فوقعت بينه وبين السوريين معركة كبيرة فى مدينة كاديتيس (غزّه الآن) .

وفى أيام ابنه « ابساميس » فرعون ، أصبحت مصر مركزاً تجارياً هاماً ، يلتقى فيه الأشوريون ، والفينيقيون ، واليونانيون والرومانيون .

وأمضت مصر معاهدات تجارية ، اقتصادية ، مع ملك صور ، وصيدا ، وجبيل .

* * *

إن الشعب الوحيد الذى أحبه المصريون ، هو الشعب الفينيقى (اللبنانى) .

فقد أدرك المصريون أن الفينيقيين ، ليس لهم أى غرض أو غاية ، سوى التجارة ، والمبادلة ، فأوسعوا لهم بينهم ، وتركوهم يقيمون فى أى مكان يشاءون .

فكان لهم فى ممفيس حىّ مخصوص ، وهياكل ، ومعابد لإلههم بعل ، يقيمون فيها طقوسهم الدينية ، دون أن يتعرّض لهم كهنة آمون .

وفى أيام حفيده المدعو فرعون « خفرع » ، زحف « نبوخذ نصر » بجيش عظيم على مصر ، فافتتحها ، وهدم هياكلها ، ومعابدها ، وشنق فرعون خفرع ، وأقام أحد أعيان المصريين نائباً مكانه على العرش .

لكن مصر لم ترض بهذا الذل والاستعباد ، فتمرّدت على ملوك فارس ، وطردت حكومتهم من مصر .

وجاء بعده « أماسيس » فرعون ، فأصلح القانون المدنىّ فى مصر ، وحتّم على كل مصرى أن يقدم لحاكم مدينته خلاصة عن إيراده ، وثروته عن كل عام (الضرائب) .

وقد زار « صولون » مصر ، وأخذ هذا القانون عن المصريين ، ونفّذه فى أثينا ، على اليونانيين .

* * *

الفتح الفارسى

الدولة السابعة والعشرون : ٥٢٥ قبل الميلاد .

وفى عهد بسمانيك الثالث ، ابن أمازيس فرعون ، ساءت العلاقات بين مصر وفارس .

فزحف قمبيز بن كورش الفارسى سنة ٥٢٥ قبل الميلاد ، بجيش جرّار لمحاربة مصر ، وتأديب الثائرين ، والمتمردين .

وكان قمبيز ملكًا جافّ الطبع ، مغرماً بالفتوحات ، محباً لسفك الدماء .

اتّصل بملوك العرب ، وأرسل أعوانه إليهم ، يطلب المعونة والمساعدة لقطع الصحراء .

وخاف ملوك العرب ، فأرسلوا الجمال ، تحمل إلى الصحراء زقاقاً مملوءة بالماء .

والتقى جيش مصر بجيش الفرس ، عند مصبّ النيل الشرقى .

وكان قمبيز يعلم أن المصريين يعظّمون الكلاب والقطط ، فأمر بجمعها ، ووضعها فى مقدّمة جيوشه .

فتوقّف المصريون عن إطلاق سهامهم خوفاً من أن تصيب تلك الحيوانات المقدسة .

فانهزم الجيش المصرى بقيادة « سمانيتوس بن رمسيس » ، ورجع إلى منفيس ، فتبعهم قمبيز ، وحاصر منفيس وافتتحها ، وقبض على فرعون وقتله ، وقتل ابنه أيضا .

ثم نهب منفيس ، وذبح « ابيس » العجل المقدّس ، وفرّق لحمه على جنوده .

وقصد مدينة « هايس » ، وأخرج جثة الملك « أماسيس » من قبره وأحرقها .

ثم نهب مدينة طيبة ، وأحرق قصورها ومعابدها .

وحارب « نستاسن » ملك النوبة ، وسار إلى أن وصل إلى الشلال الثالث ، ولكنه لم يقطع صحراء أبى حمد .

وكان ذلك فى أثناء وجود المؤرخ « هيرودوتس » فى مصر ، وقد جاء ليشاهد مصر ، ويدرس تاريخ آثارها ، ووضع تاريخا

شاملاً عنها ، نقل أكثره عما شاهده بنفسه ، وما سمعه من الكهنة الذين تحدث إليهم .

وذكر هيرودوتس فى تاريخه ، أنه زار أرض المعركة ، وشاهد جماجم الفرس مجموعة إلى جهة ، وجماجم المصريين إلى جهة أخرى .

فدرسها وفحصها ، فوجد جماجم المصريين قاسية صلبة ، لأن المصريين يحلقون شعور رؤوسهم وهم صغار السن ، فتشتدّ الجمجمة ، وتتصلّب بوساطة حرارة الشمس .

أما الفرس فكانت جماجمهم ضعيفة ليّنة ، تثقب بسرعة وسهولة .

وقد يتساءل القارىء ما الذى كان يدعو الفرس لاحتلال مصر ؟

والجواب على ذلك هو قناة السويس ، ورغبة الفرس فى الاستيلاء على هذا الجزء من العالم ، الذى يسيطر على المواصلات ، والتجارة بين الشرق والغرب .

هكذا كان بالأمس ، وهو كذلك اليوم .

بل إن قمبيز طمع فى الاستيلاء على قرطاجنة ، فأرسل خمسين ألفاً من جنوده لاحتلال واحة آمون فى ليبيا ، ليجعلها نقطة ارتكاز فى هجومه على قرطاجنة ، لكن عاصفة رمليّة هبّت على جيشه ، فطمرته جميعه تحت الرمال ، وبادوا على بكرة أبيهم .

وبينما كان قمبيز يتمتّع بمصر وخيراتها ، اتّصل به أن الثورة قامت عليه فى بلاده ، وأن نائبه فى الملك استولى على العرش ونادى بنفسه ملكاً ، فأسرع بالرحيل عن مصر .

لكنه مات مسموماً فى سوريا وهو فى طريقه إلى عاصمة ملكه .

ويقال إن نائبه فى الملك أرسل من وضع له سماً فى طعامه ، ثم نادى داريوس بنفسه ملكا مكانه .

وجاء داريوس إلى مصر ، ودعى نفسه « ابن رع » ، أى ابن الشمس ، وعبد العجل أبيس .

ثم أتمّ بناء القنال ، التى تصل البحر الأحمر بالنيل .

وبنى معبداً للإله آمون فى واحة الخارجة .

وقد كان ملكًا عادلاً ومحبوباً ، فتفاهم مع الكهنة وأصلح شرائع مصر ، وكانت له اليد الطولى فى منافع عمرانية كبيرة .

وفى سنة ٤٩٠ ق . م ، سمع المصريون أن الفرس بقيادة ملكهم داريوس ، قد خسروا معركة ماراثون ، أعظم معركة فى التاريخ ، تغلب فيها عشرون ألفاً من الأسبرطيين ، وانتصروا على مائتى ألف جندى من الفرس .

فقام المصريون وثاروا على حامية الفرس فى منفيس ، وقتلوا زعيمهم وقائدهم كاباتس ، ثم قتلوا جميع الحامية ، التى تركها الجيش الفارسى للمحافظة على مصر .

ومات داريوس فى تلك السنة ، فجهز ابنه زركسيس جيشاً عرمرماً وقصد مصر ، فافتتحها واستولى عليها ، وأدّب العصاة الذين ثاروا فيها .

ثم عاد المصريون فثاروا على الفرس ، على ارتاكسركس بن زركسيس ، وطلب المصريون مساعدة اليونان ، أعداء الفرس .

فأرسل لهم بركليس الشهير ، زعيم أثينا ، جيشاً كبيراً تغلّبوا به على الفرس .

لكن ارتاكسركس جمع ثلاثمائة ألف جندى ، فانتصر على جيوش مصر ، وجيوش اليونان معاً .

* * *

الدولة السابعة والعشرون :

وفى سنة ٥٠٤ ق . م . نهض نافاروت فرعون بثورة كبرى على الفرس ، وطردهم من مصر ، وأسس عرش الفراعنة من جديد .

* * *

الدولة الثامنة والعشرون : (مصريون من سايس) .

وأول ملوكهم « أمن رت » فرعون .

* * *

الدولة التاسعة والعشرون :

فراعنتها من مندس .

* * *

الدولة الثلاثون : من ٣٧٨ — ٣٤٠ ق . م ، فراعنتها من سبيندس (سمنود) .

وأول فراعنتها نخ هروهبت (نكتانيس الأول) .

وحارب نكتانيس الفرس وطردهم من مصر ، فعاد الفرس بقيادة أوكوس لمحاربة مصر على أيام نكتانيس الثانى ، فانتصروا

عليه ، فاضطرَّ أن يحمل نفائس عرشه ، ويهرب إلى الحبشة .

فدخل الفرس إلى مصر ، ونهبوا كنوزها ، وجميع ما وجدوه فى خزائنها ومعابدها .

وقد كان نكتانيس الثانى ، آخر فرعون مصرى حكم فى مصر .

وكانت عاصمة ملكه « سمنود » .

وبعد ذهابه انتقل العرش إلى الأجانب المتمصرين .

* * *

ويقول بعض المؤرخين ، أن نكتانيس الثانى ، هرب إلى الحبشة حاملا مجوهرات عرشه معه ، ومنها ذهب إلى مكدونيا ، ويقال أنه هو والد الإسكندر الكبير ، إذ أنه ظهر لأولمبيا أم الإسكندر بشكل الإله آمون (زيوس) فولدت منه الإسكندر العظيم .

واستمرت مصر خاضعة للفرس ، إلى أن فتحها الإسكندر الكبير سنة ٣٣٢ قبل الميلاد .



التاريخ الحديث

والعصر اليونانى المصرى

لقد انقضى تاريخك القديم يا مصر .

وها أنا أرى الإسكندر العظيم ، أو ابن السماء ، كما زعمت أمّه ، ذاهباً لزيارة هيكل آمون (جوبيتر) فى الصحراء ، لأنه ادعى أنه ابن الإله آمون ، فصادقه كهنة مصر على ذلك .

إن لهذا الادعاء صلة بنكتانيس فرعون ، الذى ظهر لأم الإسكندر بشكل الإله آمون .

ولو صحّ هذا ـ لكان الإسكندر ذو القرنين مصرياً لحماً ودماً .

والآن وصل الإسكندر إلى غربى مصب النيل ، حيث يتقدم رأس من الأرض فى البحر المتوسط ، وحيث كانت خربة ركوتيس الصغيرة (وهى قلعة بناها الفراعنة فى الزمن القديم) ليمنعوا قرصان اليونان من الدخول إلى مصب النيل ، والنزول فى شواطىء مصر .

وقد أمر ذلك الفاتح الكبير ، فقامت فى الحال مدينة على اسمه مكان ضربة ركوتيس ، هى الاسكندرية ، وحين عاد الاسكندر من واحات آمون شاهد الاسكندرية مدينة عامرة عظيمة .

وكانت الاسكندرية ذات موقع عالمى خاص تنفرد به عن جميع مدن العالم .

ولقد كانت قائمة على البحر الأبيض من جهة ، وعلى شواطىء الصحراء من الجهة الأخرى ، وتسند ظهرها على أخصب مثلث زراعى ، هو دلتا مصر المشهورة بسهولها الواسعة المخصبة الخضراء .

ومع أن الاسكندر ولد فى مكدونيا ، وافتتح العالم ، ومشى على ضفاف دجلة والفرات ، واستولى على أورشليم ، وصور ، ولبنان ، وفارس — فانه لم يحلم إلا بأن يدفن فى بلاد الجبابرة ، تحت الرمال الذهبيّة اللامعة ، حيث مشت الأبطال قديماً ، وحيث قامت بعده دولة البطالسة ، التى كان ملوكها فراعنة لمصر ، ولم يستطع المصريون أن ينظروا إليهم نظرهم إلى الأجانب .

إن الإله آمون نفسه قال للمصريين ، أن الاسكندر هو ابن آمون ، وملك مصر الشرعى .

إن لهؤلاء الفراعنة الغرباء فضلا كبيراً عليك يا مصر ، مع أنهم تعلموا منك كثيراً .

فقد كان شعبك فى تلك الأجيال القديمة ، رغم كل علومه ، وحكمة كهنته ، شعباً جاهلاً متكبراً متعصباً جنسياً ودينياً .

أما امتزاج العنصر الهلاسى بهم ، فقد أدى إلى فوائد عظيمة للشعبين معا .

فالمصريون هزأوا بآلهة اليونانيين ، وسخروا منها ، وضحكوا من اعتقادهم أن حول الأرض نهراً واسعاً يحيط بها ، وأن الأرض أشبه بصحن كبير .

وكان اليونانيون فى نظر علماء مصر أطفالاً لا يفهمون شيئاً .

لكن هؤلاء اليونانيين أسرعوا فأصلحوا أغلاطهم، واستهزأوا بكل ما عبده المصريون .

إن زينوفيس وقف مندهشاً حين رأى مصر تبكى وتنوح متألمة لأوجاع أوزوريس ، وقال لهم : « إذا كان رجلاً فعليهم ألّا يعبدوه ، وإن كان إلهاً فكيف يبكون لأوجاعه » .

إن حكمة هؤلاء اليونانيين ، لبست ثوباً مصرياً ، وظهرت بكل عظمتها فى الأسكندرية ، التى تركّزت فيها .

وصلت إليها كل علوم أثينا ، وإنتاج حكمائها ومفكريها ، وفلاسفتها .

فقد كان معرضها الكبير جامعة عظيمة لكل باحثٍ منقّب .

ومعهدها النباتى فناً علمياً عديم النظير .

ومن الاسكندرية خرج علم النجوم والفلك — فأخذه العرب عنها — ثم انتقل من العرب إلى أوربا .

* * *

دولة البطالسة : ٣٣٢ إلى ٣٠ قبل الميلاد .

أراد الإسكندر الكبير ، أن يمزج الشرق بالغرب ، ويؤلف منهما امبراطورية واحدة ، تكون الاسكندرية عاصمتها ، وقلبها النابض .

وقد أخذ فكرة إنشاء الإمبراطورية من المصريين ، لقد اطّلع على تاريخ مصر ، فعرف أنه كان للمصريين إمبراطورية واسعة تمتدّ من بلاد الحبشة إلى أطراف الفرات .

فبنى الاسكندرية على مصب النيل ، حيث يلتقى النهر المقدس بمياه البحر المتوسط .

لكن الاسكندر مات ، وهو فى سن الثامنة والعشرين ، وترك طفلاً صغيراً من زوجة غير شرعية ، وطفلا آخراً من حبيبته الفاتنة « روكسان » دعوه الاسكندر الثانى .



بطليموس الثالث عشر والد « كليوبطرا »

وبعد موت الاسكندر — قتلوا ابنه هذا مع أمه وأخيه .

ثم هجم أحد القواد على أولمبيا ، أم الاسكندر الكبير ، فقتلها أيضاً .

ولم يبق من نسل الاسكندر أحد يطالب بالعرش .

فاقتسم قواده مملكته ، فكانت مصر من نصيب بطليموس ابن لاكوس أحد قواد الاسكندر الكبير ، ويقال إنه كان ابناً غير شرعى لفيلبس المكدونى والد الاسكندر .

وهذا القائد هو الذى استقلّ بمملكة مصر تحت اسم بطليموس الأول ، ثم أسس عرش البطالسة على مصر وليبيا والبلاد العربية .

وقد حكم من البطالسة ستة عشر ملكا ، ودام حكمهم فى مصر نحو ٢٧٥ سنة .

وكان لهؤلاء البطالسة فضل عظيم عليك يا مصر .

فجعلوا الاسكندرية طريقاً عاماً لجميع أمم الأرض ، وملجأً أميناً لسفن البحار .

ووصل سكان الاسكندرية فى أيام البطالسة إلى مليون من السكان ، تجمعت فيها من جميع مدن الأرض .

وأصبحت الاسكندرية نقطة الاتصال بين الشرق والغرب .

وزالت عظمة طيبة ، وممفيس ، وسواهما من المدن المصرية القديمة .

وأصبحت مصر تتركّز بأجمعها فى النقطة الصغيرة القائمة على شاطىء المتوسط التى دعيت على اسم الفاتح العظيم .

إن ثروة العالم تدفّقت إلى الاسكندرية .

وعلوم اليونان والرومان ، ومعـــارف وأسرار قدماء مصر ، تجمّعت فى جامعة الاسكندرية ومدرستها ومكتبتها .

وكانت الاسكندرية فى هندستها أشبه شىء بنيويورك اليوم .

شارع واحد متّسع ، يمتدّ من شمالى المدينة إلى جنوبها .

ومن هذا الشارع — تتفرّع بقية شوارع المدينة غرباً وشرقا .

هكذا وضع تصميمها المهنـــدس المشهور « دينوقراطس » وأكثر من وضع التماثيـــل الرخامية على طول الشارع الكبير .

وحين وضعوا تصميم مدينة نيويورك ، أخذوا ذلك عن مدينة الاسكندرية القديمة .

ودينوقراطس هـذا ، هو الذى بنى هيكل أفسس المشهور ، والمعدود من عجائب الأرض والمدعو بهيكل أرطاميس .

ويقال إنه لما فرغ دينوقراطس من إنشاء الاسكندرية نظر إليها الإسكندر وقال :

« لقد بنيت مدينة فقيرة إلى الله ، غنية عن الناس » .

ولا تزال الاسكندرية كذلك حتى هذا اليوم .

إنك تجد مدينة جميلة ، واسعة الشوارع ، عظيمة المبانى ، تقوم عليها التماثيل الرخامية فى كل زاوية ، وعلى كل طريق .

إنك تجد هيكل الإلهـة إيزيس (أفروديت) تحيط به قصور البطالســـة .

وأمامه على مرتفع صغير يقع هيكل الإلهة ديونيسبس .

وهناك هيكل ومعبد اريزونا ، زوجة بطليموس الثانى .

إن البطالسة قلّدوا الفراعنة القدماء ، فجعلوا أنفسهم آلِهة يعبدهم الشعب ، كما عبدهم الفراعنة قبلهم .

وهناك إلى الأمام ، تجد بناء ضخماً عظيما ، هو المتحف التاريخى ، الذى انبعثت منه أنوار العلوم والفنون ، والذى كانوا يدعونه الميوزيوم[1] أو هيكل الآلهة .

وإنك لتشاهد القنال ، الذى يصل البحر المتوسط ببحيرة مريوطس (مريوط) ثم يتصل بعد ذلك بالنيل المبارك .

ثم حفر البطالسة قناة تصل النيل بالبحر الأحمر حيث قامت مدينتى اريزونا وبيرانيس .

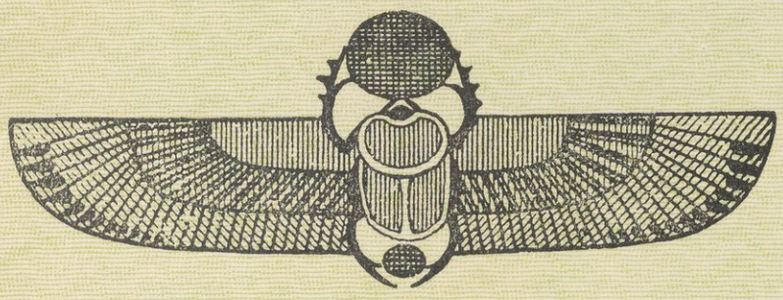

(١) ميوزيوم معناها هيكل الآلهة ـ (موز معناها الآلهة ـ ويون هيكل) .

منـــارة الإسكندرية

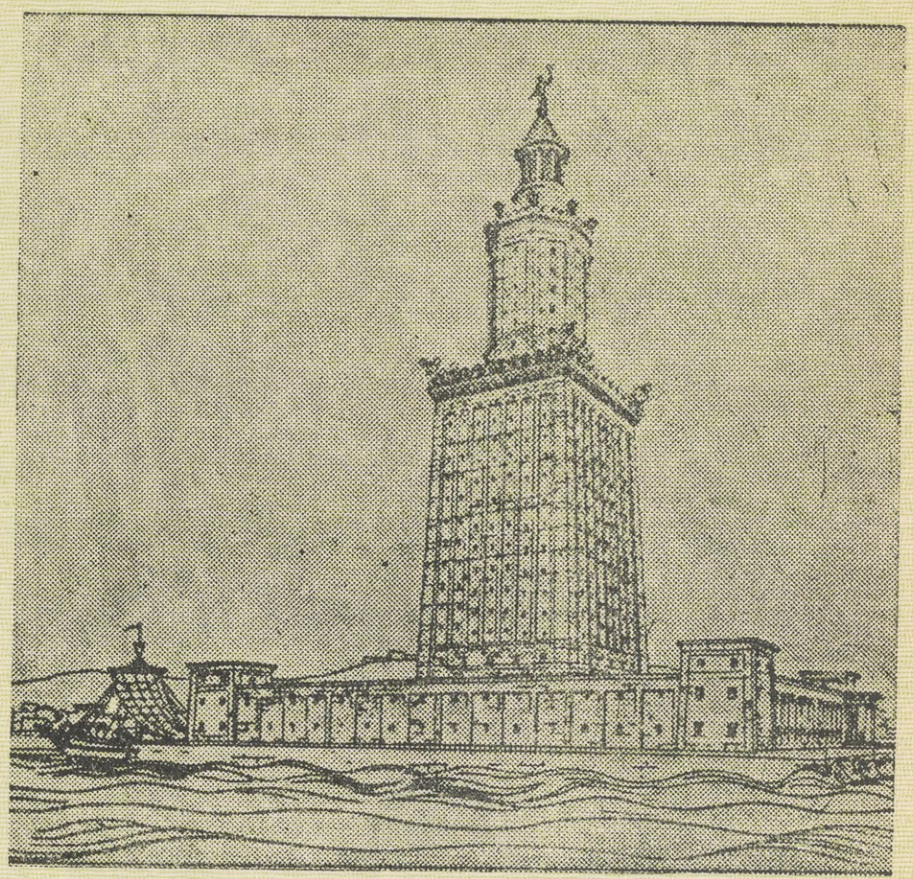

منارة الاسكندرية الشهيرة

وهذه منارة الاسكندرية، بناها بطليموس الأكبر سنة ٢٧٠ ق.م. فكانت من عجائب العالم، حيث بلغ ارتفاعها أربعمائة قدم.

وكانت تتألف من طبقات متعددة، وعلى رأسها قبة عظيمة فوقها تمثال يحمل مصباحاً.

وكان لها مرآة عاكسة ، يقال إن النَّاظر إليها كان يرى فيها ما يحدث فى مدينة القسطنطينية .

ويقال : إن المرآة كانت تدار ، فتعكس أشعَّة الشَّمس القويَّة ، فتحرق السفن القادمة إلى الاسكندرية .

إن اختراع تلك المرآة العظيمة ، كان الأساس الأوَّل لاختراع العدسات البلّورية فى العالم ، وقد وضع تصميمها المهندس العظيم « سوسترانوس » .

* * *

وفى عهد الخليفة الأموىّ الوليد بن عبد الملك ، اتَّهم العرب يوناني الاسكندرية بأنهم كانوا يديرون المرآة ، فيساعدون الأروام على دخول مرفأ الاسكندرية .

فهدم الوليد بن عبد الملك نصفها ، وندم على ما فعل .

ثم أراد إرجاع البناء إلى أصله — ففشل .

وأراد إرجاع المرآة إلى مكانها ، فسقطت وتحطَّمت .

وقد شاهدها كثيرون من العرب ، وتحدثوا لنا عنها ، وعما بقى منها ، أمثال ابن جبير ، وابن بطوطة ، والمقريزى ، وياقوت الحموى .

جامعة الإسكندرية ومكتبتها

وهذه جامعة الاسكندرية ، التى عرفت باسم جامعة الشرق .

لقد كان بطليموس الأول ، من خيرة البطالسة الذين حكموا مصر .

فقد شجّع العلماء ، والأدباء ، وأجزل لهم العطاء .

وأتى لعاصمة ملكه برجال الفن ، والبناء ، والفلسفة ، والعلم والدين .

وشق الترع ، وأصلح الرىّ والزراعة ، ونشر التجارة ، وعمّر الهياكل .

وأنشأ جامعة الاسكندرية ، التى عرفت باسم جامعة الشرق ، وهى أول جامعة أنشأتها حكومة .

وقد كانت جامعة الاسكندرية ، جامعة لجميع أنواع العلوم والفلسفة ، والرياضيات ، وأهمّها علم الطب ، الذى أصبحت الاسكندرية مركزاً له .

وفى هذه الجامعة ، ولدت مكتبة الاسكندرية الشهيرة ، ثم تحوّلت المكتبة إلى مكتبتين :

كان فى إحداهما مائة ألف مجلد مخطوط ، أحرقها جميعها بطريرك الاسكندرية المتعصب ، تيوفيلوس .

وكان فى الثانية ثلاثمائة ألف مجلّد ، وضعها البطالسة بتنسيق وترتيب ، على الرفوف الجميلة ، المصنوعة من خشب الأرز ، فى لبنان .

وكانت عماراتها من أجمل بنايات الدنيا ، وفيها التماثيل الرخاميّة ، العديمة المثال ، وهى التى يقال إن عمرو بن العاص أحرقها سنة ٦٤١ ميلادية ، بناء على أمر جاءه يقول : « إن كان ما فيها يتّفق مع القرآن ، فلا حاجة إليه ، وإن لم يتّفق مع القرآن ، فحرقه أفضل وأولى » .

وهـــذه سوق الاسكندرية ، حيث يلتقى المصرى باليونانى ، والرومانى ، والعجمى ، واليهودى ، والأرمنى ، والسورى ، والفينيقى والنـــوبى .

بل كانت الاسكندرية تعجّ بجميع أمم الأرض ، حتى من الهند ، والصين .

هكذا كنتِ يا مصر ! جامعة أمم وشعوب ، وإنك لا تزالين كذلك حتى اليوم ، وستبقين كذلك إلى الأبد .

وكانت الاسكندرية محطّ رجال الفن ، والعلم ، والأدب ، والفلسفة ، والدين ، والمال .

* * *

قف على رأس هذا الشارع ، وانظر إلى هؤلاء النـــاس ، يمرّون فى شوارع الاسكندرية !

إنى أقدّمهم لك ، وأعرّفك عليهم ، واحداً واحداً .

هذا ديمتريوس فالاروس — مؤسس المكتبة الشهيرة ، ومستشار الحكومة فى الأدب ، والفن ، والنقش ، والحفر .

وهذا فيلاتس — عالم النحو ، والمؤلف المشهور فى اللغـــة ، وأستاذ بطليموس الثانى .

وهذه هى السيدة العظيمة — هيباسيا الفيلسوفة ، والواعظة الشهيرة .

إنها أشهر عالمة ظهرت فى التاريخ القـــديم ، وهى أستاذة الفلسفة ، فى جامعة الاسكندرية .

وهذا اقليدس — واضع علم الهندسة — أنظر إليه ، إنه يمشى مع تلميذه بطليموس الثانى !

اسمعه يقول لتلميذه : « إنه لا توجد طريق معبّدة إلى العلم » .

إن إقليدس استخرج وهو فى الاسكندرية ، نظريته الهندسية التى أصبحت اليوم — كما قال « اللورد ماكولى » يعرفها كل تلميذ .

وهذا هو الدكتور هيروفيلوس Herophilus — أوّل من شرّح جسمًا بشرياً ، ووضع علم وظائف الأعضاء .

لقد سمحت مصر للأطبـــاء بالحصول على جثّة إنسان مجرم لتشريحها ، حباً فى العلم ، وخدمة للمعرفة ، بينما كان علمـــاء اليونان يكتفون بتشريح أجساد القرود .

وهذا بطليموس الأول — الذى كان ملكًا ، ومؤلفاً ، فى وقت واحـــد .

إنه يكتب مذكّراته ، وقد تراه صـاعداً على درجات المكتبة التى وضع أساساتها بيده .

وهذا زينودوتوس ، الآتى من أفسس ، ليطبع فى الاسكندرية أشعار هوميروس شاعر اليونان العظيم .

* * *

وادخل إلى المكتبة الشهيرة ، تجد فى القاعة الشمالية ، رهطاً عظيماً يبلغ السبعين عالماً ، من أكبر علماء الأرض ، يشتغلون ويعملون .

هؤلاء هم خلاصة جهابذة عصر البطالسة ، يقومون بترجمة التوراة إلى اللغة اليونانية .

إن هذا العمل المجيد ، أخذ مائة سنة كاملة لينتهى .

فى هذه المكتبة ترجمت التوراة لأول مرّة .

ومثلها كتابى : زوروسترا ، وأفاستازندا .

وهذا الرجل ، ذو اللحيـــة الطويلة السوداء ، ذو القـــامة الممشوقة الجميلة ، هو الكاهن المصرى مانيتون ، كاهن عين شمس الأكبر ، الذى يتصل نسبه بالمصريين القدماء ، من معاصرى الدولة الأولى .

لقـد ولد فى « سمنود » ، لكنه خدم فى معبـد الآلهـــة فى أون « هليوبوليس » .

لقد أحضره البطالسة ليكتب تاريخ مصر ، منذ بدء وجودها .

لقد كتب تاريخ الأديان المصرية .

وهو الآن يضع باليونانية تاريخ الفراعنة المصريين — ولولاه لضاع الكثير من تاريخ مصر القديم .

وهذا هو الكاهن أخوروس — جاء من أبيدوس ، ليطّلع على الحالة الروحيّة فى الاسكندرية .

وهذا هو كاهن طيبة ، وبجانبه كاهن ممفيس .

اسمعهم يتناقشون فى الكتاب الجديد الذى يترجمه البطالسة ويدعونه التـــوراة ، إنهم يخشون أن يزاحم كتابهم الدينّى المقدس ، المعروف — بكتاب الموتى .

* * *

وهذه قاعة الشعراء فى مكتبة بطليموس .

أنظر إلى الشاعر « كاليماكوس » الذى عينه بطليموس الأول

مديراً للمكتبة فوضع بياناً أو فهرساً (كتالوج) للكتب التى كانت فيها .

وهذا ثيوقريطوس — من سراكوس — أعظم كاتب فى اللغة اليونانية .

وهذا أراثوثينس — Eratosthenes واضع علم الجغرافيا يضع الآن أول خارطة رسميّة للعالم، مبيناً عليها خطوط الطول والعرض .

لقد عاد بالأمس من أسوان ، بعد أن جلس فى بئر هناك ، يراقب دورة الأفلاك ، ويعين حجم الأرض ، بواسطة الشمس .

لقد تمكّن من معرفة حجم الأرض، وقياس طول قطرها، فلم يختلف قياسه للأرض عن قياس علماء هذه الأيام ، سوى بخمسين ميلا .

وهذا Appollonius (اپولينوس) — صاحب القطوع المخروطية — ربما أنه لا يدرى وهو يشير فى شوارع الاسكندرية الآن — إنه سيأتى يوم يأمر فيه هرون الرشيد — وهو سائر فى شارع بغداد — بترجمة كتبه إلى اللغة العربية ، فيترجمها العرب وينتفعون كثيراً منها .

وهذا بطليموس الفلكى — مؤلف كتاب المجسطى، الذى عرفه العرب وترجموه ، واستفادوا كثيراً منه .

وقد كانوا يعتقدون أن البطالسة آلهة كالفراعنة ، فسموا كتابه المجسطى Magestic ، أى كتاب صاحب الجلالة .

وهذا « ديوفانتوس » ، واضع علم الجبر ، إنه يفكر فى قواعد هندسية ، وهو نازل من مكتبة الاسكندرية فى طريقه إلى منزله .

إنه لا يدرى أن سيأتى بعد مئات السنين ، رجل عربى اسمه : « جابر بن حنان » فيأخذ قواعد ديوفانتوس ، ويؤلف منها فى اللغة العربية ، علم الجبر الذى دعوه على اسمه بعد ذلك .

وهذا ارسطارخوس — إنه يشتغل بنقل تعاليم فيثاغورس ، وينادى بأن الأرض تدور حول الشمس — وقد عيّن مسافة بُعد الأرض عن الشمس . فجاء العالم غاليليو ، بعد قرون عديدة ، يقول ما قاله أرسطارخوس .

لكن الناس نسوا أرسطارخوس وعرفوا غاليليو ، لأن رجال الدين اضطهدوا غاليليو وحكموا عليه بالموت ، فكان هذا الحكم سبباً لشهرته .

وهذا جالينوس ، أبو الطبّ ، يمشى مسرعاً ، وربما لزيارة مريض فى قصور البطالسة .

إنه يبتسم لنفسه ، فقد قرّرت جامعة الإسكندرية ، أن تدرّس كتبه الستة عشر لتلامذتها ، وطلّاب المعرفة فيها .

وهذا أرخميدس المشهور ، وقد صرف سنيناً كثيرة فى الاسكندرية ، يدرس تجاربه العلمية ويمتحنها .

لقد ولد فى سيراقوسه ، لكنه درس فى جامعة الاسكندرية .

ثم انتدبته إدارة هذه الجامعة ، ليكون أستاذ علم السوائل ، والميكانيكا .

إن صوته لا يزال يرنّ فى أذنىّ ، وهو يسير عارياً فى الشوارع ، يصيح : « يوريكا ! يوريكا » .

ذلك أن هيروس ملك سيراقوسه ، صنع تاجاً من الذهب وهو الآن يشك فى أمانة الصائغ ، ويريد برهاناً على أن التاج من الذهب الخالص .

وطلب من أرخميدس حلّ هذا الأمر .

وكيف يستطيع أرخميدس أن يكشف هذا الغشّ ، والمعادن المشابهة للذهب كثيرة .

وحدث أن دخل الحمّام ، والحوض ملآناً بالماء ، فغاص فى الماء .

فخرج من الحمام عرياناً ولشدّة فرحه — طاف فى الشوارع يصيح : وجدتها ! وجدتها !

لأنه عرف كم يرتفع الذهب فى الماء .

ثم جاء بالتّاج ووضعه فى الماء ، فلم يرتفع كما يجب ، فتأكّد لديه أن التّاج مغشوشاً ، وليس من الذهب الخالص .

وأمام هذه الحقيقة العلمية ، اعترف الصائغ بما فعل .

* * *

وانظر إلى تلك الزاوية تجد بيروسس — كاهن بابل العظيم الذى جاء إلى مكتبة الإسكندرية ، ليستخرج من مجلداتها تاريخ أشور ، وبابل .

أنظر إليه ، إنه يتحدّث مع مينور الفينيق ، الذى جاء

إلى الإسكندرية ، ليكتب تاريخ صور ، وصيداء .

وهؤلاء الأشخاص المسرعين هم أعضاء البعثة العلمية ، المسافرة إلى بلاد أبينيا (الحبشة) لدرس أسباب فيضان النيل .

نعم إن الإسكندرية فى ذلك الزمن كانت هى العالم كلَّه .

وروما وأثينا — كانتا قريتين صغيرتين ، بالنسبة إليها .

* * *

تعالَ معى الآن إلى القسم الخارجى من مدينة الإسكندرية حيث تقوم أحياء المصريين ، على أنقاض الاسكندرية القديمة ، حيث كانت قرية راكوتى .

إن الإسكندرية فى عهدها الأوَّل ، كانت تدعى : راكوتى الإسكندرية .

وإنى لا أدرى لماذا أبطلوا هذا الاسم المصرى القديم .

هناك احتكر المصريون علم الدين ، والعلوم التى تتمشَّى مع الدين .

هناك ازدهر فن التَّحنيط ، لأن الرومان ، واليونان ، اهتموا به اهتمام المصريين أنفسهم .

وهناك راجت تجارة التحنيط ، وكانت المورد العظيم للكهنة ، والعمَّال .

لقد كان تحنيط الجسم يقتضى سبعين يوماً يقوم الكهنة خلالها بحفلات ، ومواكب ، وطقوس دينيَّة كثيرة ، تستدعى حضور أهل الميت ، وأصدقاءه ، ممَّا ساعد على رواج الأعمال ،

وبذل الأموال ، فى سبيـــل الحيـــاة الأخرى .

* * *

وهناك خارج الاسكندرية ، على مسافات متعدّدة ، كانت تقوم أماكن اللهو ، والعبث ، والمجون ، التى تسير يداً بيد مع العلم ، والثروة ، والأدب ، والدين .

وهذه « كنوباس » ، حيث كان يذهب سكان الاسكندرية ، للنزهة ، والفسحة ، واللذة ، والمتعة ، والاصطياف .

هناك كانت تقوم الفلّات ، والقصور ، والمنتزهات ، وأماكن اللّهو ، ومسارح سيدات الاسكندرية ، من مصريات ، ويونانيات ، وسوريات ، وفينيقيات ، ويهوديات .

وكانت الحلىّ والجواهر التى لا يقدرها العقل بثمن — تلمع مشعّة على صدور السيدات ، وهنّ بلباسهنّ الأرجوانى ، الذى كان يحمل طابع زىّ ذلك الزمن .

ألم تكن تاييس إحدى بنات الإسكندرية ؟ ؟ تاييس الجميلة الفنّانة المتهتّرة ! ! تاييس الراهبة ، التائبة المتعبّدة .

وكم ، وكم من تاييس ، أبهرت البطالسة بحسنها وجمالها ، ولعبت دورها فى ذلك المجتمع العظيم الرّاقى .

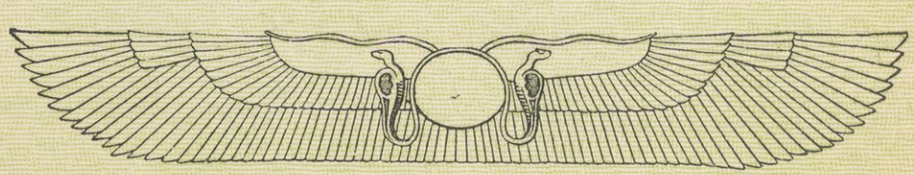

كليـــوباطـــره



كليـوباطره « ملـكة وامبراطورة »

ها إنى أرى كليوباطره ، تتزوج أخيهـــا بطليموس ، وهو فى سن الثالثة عشر ، وذلك سنة ٥٢ قبل الميلاد .

وهى ابنة غير شرعيّة لبطليموس الثالث عشر .

وتاريخها مشهور مع يوليوس قيصر .

هذه المرأة التى قال عنها « بلوتارخ » : إن — جمالها يدخل إلى كل قلب .

ومدحها « هوارس » كثيراً حين شكر السماء ، لأنها أنقذت الأرض ، من هذه المرأة القاهرة .

هذه المرأة المصرية ، التى تحدّت روما وإمبراطوريتها الواسعة وكادت تأخذ منها عرشها ، وإمبراطوريتها ، وقياصرتها .

هذه المرأة — التى تساقطت الجبابرة عند قدميها .

هذه المرأة — التى غزت الغزاة ، وأخضعت الفاتحين .

وترك يوليوس قيصر زوجته ، وعاصمة ملكه ، وروما بأجمعها ، ليكون بالقرب منها .

ها هو الآن يقطع النيل فى مركب شراعى ، سائراً معها من الإسكندرية إلى اسوان وجزيرة أنس الوجود (فيلى) حيث صرفا ألذّ أيام حياتهما ، ونصبا عاموداً أثرياً لتلك الزيارة .

لقد طلّق يوليوس قيصر زوجته ، وتزوج كليوباطره ، ثم أخذها معه إلى روما ، فطمعت أن تضع تاج الرومان على رأسها ، أو على الأقلّ على رأس ابنها سيزرون ، الذى ولدته من يوليوس قيصر .

لكن يوليوس قيصر ، سقط تحت خناجر الثائرين ، وفرّت كليوباطره هاربة إلى مصر .

وإن شئت أن تعرف مدى كره الرومان للملكة المصرية ،

فعليك أن تقرأ : فرجيل ، وهوارس ، وأوفيد ، وبروبرتيدس ، الذين عاشوا فى أيام أوغسطوس قيصر (اكتافيوس) .

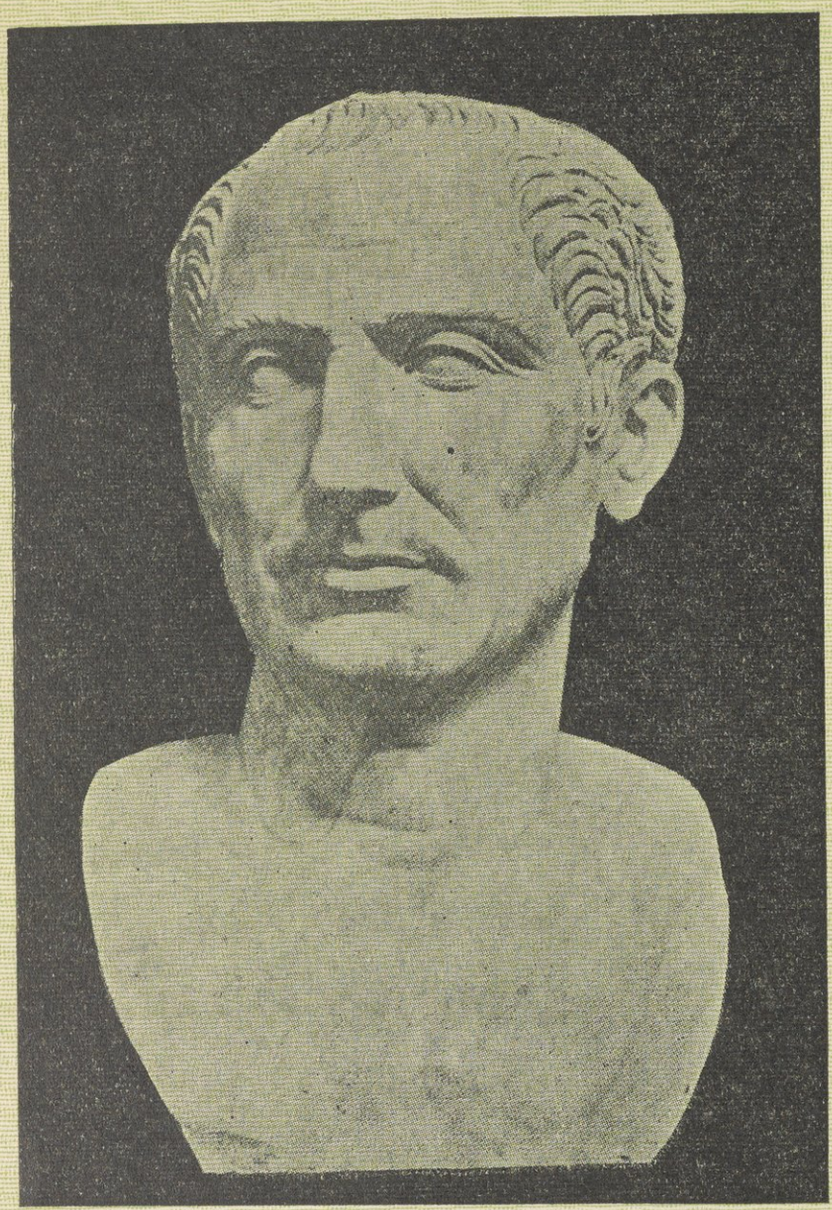

يوليوس قيصر الامبراطور الرومانى الشهير وزوج كليوباطره

لقد كان صوت شيشرون الخطيب الرومانى ، يرنّ على منابر روما ، وفى مجلس شيوخها ، لاذعاً كليوباطره بأفظع الهجاء . إن شكسبير أنصفها جداً فى روايته « يوليوس قيصر » .

وهكذا فعل فى عصرنا الحاضر الفيلسوف برناردشو ، فى روايته « قيصر وكليوباطره » .

أما أناتول فرانس ، فتهجّم عليها بلا معنى ، وتمثلها امرأة تدفع الحروب بين يديها كيف سارت .

إن البطالسة وجميع سكان مصر ، (مصريين وأجانب) ، كانوا يكرهون روما ، وأهلها ، وإمبراطوريتها ، كرهاً عظيماً ، ويخشون أن تصبح مصر يوماً ما — مستعمرة رومانية .

لقد كان هذا الخوف معلقاً فوق رأس مصر ، كسيف سوفوكليس .

لذلك كان الجيش المصرى ، والشعب المصرى ، يقف وراء ملوكه البطالسة ، ويحارب فى سبيل مصر .

ولو عرفت كليوباطره ، أو عرف والدها بطليموس الثالث عشر ، كيف يسوس الدولة ، لما سقطت مصر أمام مطامع الرومان .

لكن بطليموس الثالث عشر انصرف بفكره إلى الموسيقى والفن والغناء ، فأضاع مصر والعرش .

* * *

أما ابنته — فاهتمّت بجمالها ، أكثر مما اهتمّت بعرشها .

* * *

وها هى كليوباطره ! أنظر إليها سائرة ، تقطع نهر طرسوس ، فى سفينة شراعية مذهّبة ، أرجوانية القلاع والستائر .

لقد تزيّنت بأفضل ما عندها ، من الثياب ، والحلى ، والجواهر ،

وتعطّرت بأفخر أنواع العطور ، والبخُور ، فكانت أمواج النهر تموج على نغمات الدّفوف والقياثير .

أنظر إليها الآن ! لقد أحضرت مارك أنطونيوس إلى مصر ، أسيراً لجمالها ، وعبداً لغرامها .

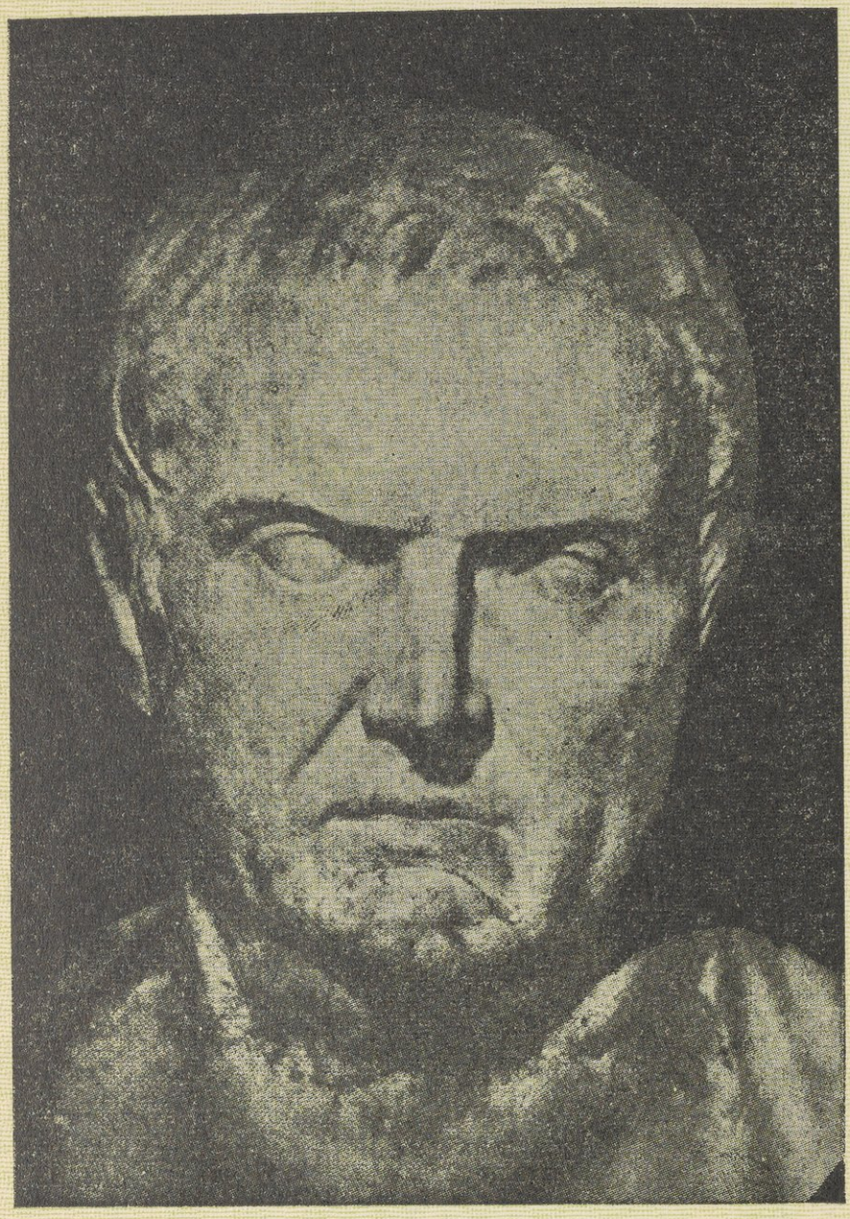

مارك أنتـــونى

هذه المرأة التى باع أنطونيوس وطنه ، وكرامته ، وشرفه ، وزوجته ، وواجبه ، إكراماً لحبها ، وجمالها .

ألم يدّعى « مارك أنطونيوس » أنه ابن « هرقل » العظيم .

ألم يقع « هرقل » فى حب « أولمبيا » أمّ الإسكندر ؟

فلماذا لا يقع « مارك أنطونى » فى حب « كليوباطره » .

لقد طلّق زوجته أوكتافيا الجميلة ، أخت أوكتافيوس قيصر ، التى كانت أجمل امرأة فى الإمبراطورية الرومانية ، ويذكر بعض المؤرخين ، أنها كانت أجمل من كليوباطره نفسها .

هذه المرأة التى أرادت أن تهدم روما الخالدة ، وتضع مكانها الإسكندرية ، التى كانت تحبها كثيراً .

لكن أوكتافيوس يتمشّى بسرعة إلى عرش الرومان ، عرش يوليوس قيصر ، فكان أول بلد فكّر فيه ، مصر ، وأوّل امرأة خطرت على باله ، كليوباطره .

فكّر فيها ، لا ليحبها ، كما فعل يوليوس قيصر ، ومارك أنطونيوس .

فكّر فيها لينتقم منها ، ويثأر لأخته أوكتافيا الجميلة ، زوجة مارك أنطونيوس ، التى هجرها ليلهو مع كليوباطره .

ألم ير أخته تبكى ، وتتألم ، وتشقى ، لأن كليوباطره أخذت منها زوجها القائد العظيم ؟

ولا يزال ذلك العسكرى العظيم — مارك أنطونيوس — جالساً عند قدميها ؟



أوكتافيا أخت أوكتافيوس (أوغسطوس قيصر) وزوجة مارك أنتونى

* * *

وها هى الآن فى أنطاكية ، حيث عقد زواجه الرسمىّ عليها .

لكن أسطول أوكتافيوس ، سار وراءهما إلى مكان بالقرب من أنطاكية .

لقد ابتدأت المعركة البحرية فى أكتيوم ، فهربت كليوباطره بأسطولها .

وتبعها مارك أنطونيوس إلى الإسكندرية .

لقد أصبح من المحقّق سقوط مصر فى يد « أوكتافيوس » .

* * *

وسقط « مارك أنطونيوس » قتيلاً حين طعن نفسه بسيفه .

أمّا « كليوباطره » فقد فشلت مع « أوكتافيوس » ، فلم يتأثّر بجمالها ولم يهتمّ لمناوراتها وعروضها ، وعرفت أنه يريد أن يحملها إلى روما ، ليجرّها وراءه فى مركبته الذهبية .

لقد أدركت أنها سائرة إلى الموت لا محالة .

فكان همّها الأول ، أن تنقذ جواهر التاج العديمة النظير .

فبنت لها حرزاً منيعاً وضعتها فيه .

ثم ظهرت عاطفة الأمومة فى قلبها ، لأوّل مرة !

فأرادت أن تنقذ أولادها من هذه النهاية المحزنة .

فأرسلت سيزرون ، ابنها من يوليوس قيصر إلى بلاد الحبشة ، على أن يسافر منها إلى الهند .

لقد كانت تخاف على سيزرون من أخيه أوكتافيوس .

ألم تقتل كليوباطره أختها الجميلة « أريزونا » فى سبيل العرش !

فلم لا يقتل « أوكتافيوس » أخاه « سيزرون » فى سبيل العرش أيضاً ؟

إن أوكتافيوس كان ابن يوليوس قيصر ، بالتبنّى ، وابن أخته بالحقيقة .

أما سيزرون فقد كان ابنه الحقيقى من كليوباطره .

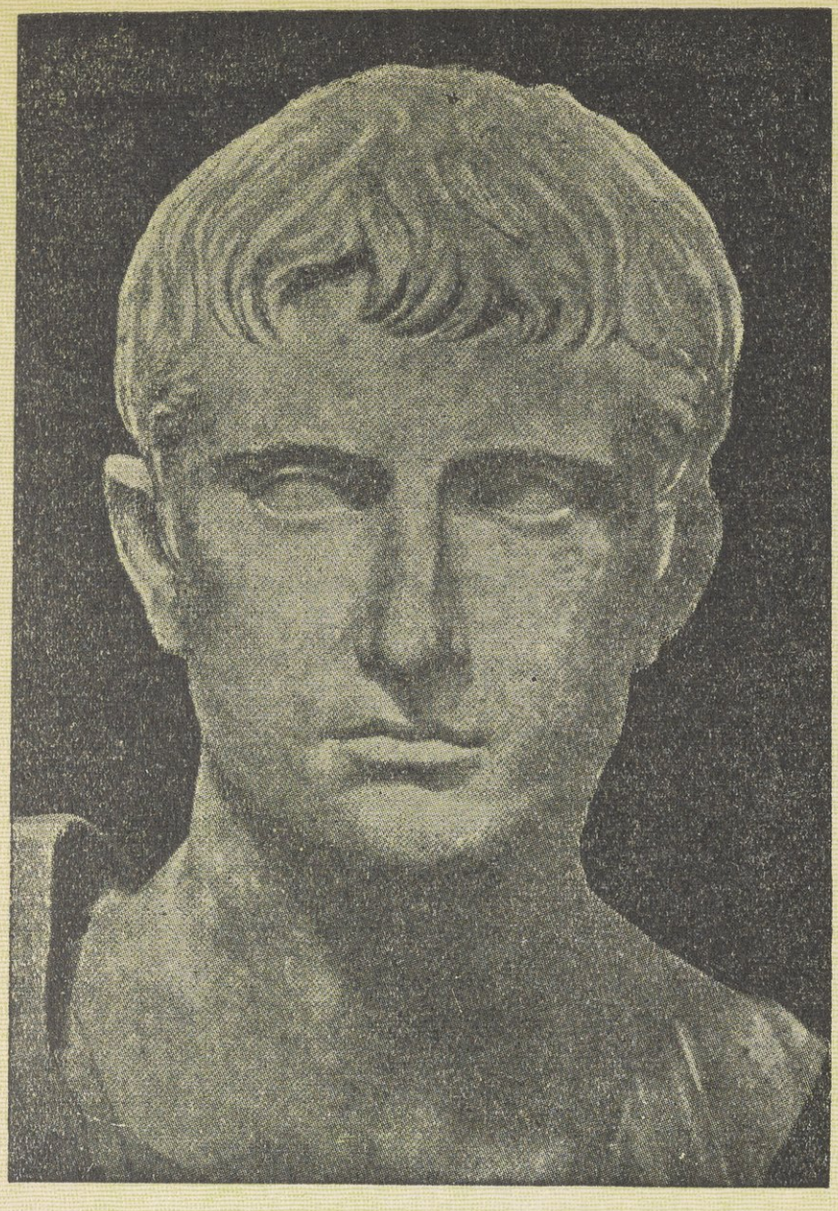

أوكتافيوس (أوغسطوس قيصر)

وكان أوكتافيوس يخشى أن يكبر سيزرون ، وينازعه الملك ، والزّعامة ، لأن الشعب فى روما ، كان لا يزال يحبّ يوليوس قيصر .

وعلم أوكتافيوس ، أن سيزرون هرب سائراً فى صعيد مصر . فأرسل الرّسل فى أثره ، واحتال عليه ، وأقنعه بالرجوع إلى الإسكندرية .

ووعده أن ينادى به ملكاً على مصر .

وكان سيزرون فى السابعة عشر من عمره ، لا يعرف حيل الرجال ، ومطامعهم ، فقبل أن يعود إلى الإسكندرية ، متّبعاً بذلك نصائح معلّمه ، ومدرّبه — ردون .

وكان أوكتافيوس قد اشترى ردون بالمال ، وسيزرون لا يدرى .

وأرسل أوكتافيوس جنوده ، وأمرهم أن يقابلوا سيزرون خارج الإسكندرية ، ويقتلوه !

فقتلوه حسب أمر أوكتافيوس .

واعتذر أوكتافيوس إلى روما ، أن أمّه لم تكن رومانية .

أما « انتيلوس » بن مارك أنطونى من فولفيا ، فقد التجأ إلى الهيكل الذى بنته كليوباطره ليوليوس قيصر ، حيث لا يجوز القتل ، وسفك الدماء .

لكن أوكتافيوس أمر جنوده فجرّوا هذا الفتى البرىء ، إلى خارج المعبد ، وذبحوه ذبح الأغنام .

* * *

وهذه كليوباطره — أنظر إليها — إنها تبتسم للموت .

لقد اختبرت اليوم أربعين نوعاً من السّموم ، فى أربعين رجلاً من أسرى الحرب .

لقد ماتوا جميعهم ، بعد أن ذاقوا عذاباً أليماً .

أما الذى لسعته الأفعى ، فقد مات ، دون أن يشعر بألم .

إنهـا تمـدّ يدها للأفعى .

وبموتهـا تنتهى دولة البطالسـة فى مصر .

* * *

إن النزاع على عرش روما ، كان عنيفاً ، بين مارك انتونى ، وأوكتافيوس .

لكن مارك إنتونى مات .

ومات ابنـه أيضاً .

ومات ابن يوليوس قيصر الوحيـد .

فاستطاع أوكتافيوس أن ينادى بنفسه ، إمبراطوراً على روما ، تحت اسم « أوغسطوس قيصر » .

وأفسح له التاريخ صفحات كثيرة ، ضمن طيّات مجلّداته .

لقد سجّل التاريخ ، أن إمبراطورية الاسكندر الكبير ، إنهارت كلهـا بعد موته ، إلا دولة البطالسة فى مصر — وبقيت هذه الدولة إلى القرن الثالث بعد الميـلاد حين هجم الامبراطور الرومانى « أورليان » على الاسكندرية ، فهـدم قصور البطالسة ، وحطّم دورها ، وأزال معابدها ، وهياكلها ، واستولى على مصر بأجمعهـا .

فأصبحت يامصر ، مستعمرة رومانيـة ، إلى أن استولى عليك العرب سـنة ٦٣٩ بعـد المسيح .

وفى عهـد « المُقَوقس » آخر حكام مصر .

وقد اختلف المؤرخون فى من هو هذا « المقوقس » الذى حكم مصر ، بالنيـابة عن الرومان .

لكن المؤرخ الشهير « بطلر » يؤكّد بالحجج ، والبراهين الدّامغة ، أن المُقوقس كان هو نفسه بطريرك الأقباط « كورس » وقد عيّنه الامبراطور الرومانى « هرقل » حاكما على مصر .

وقد كان المقوقس هذا — رجلاً قبطياً اسمه « جرجس خوكيوس » ، فلما دخل العرب إلى مصر لقّبوه « بالمقوقس » .

ويقول المؤرخون ومنهم « سمث » ودائرة المعارف البريطانية إن « المُقوقس » هذا كان على اتّصالٍ وثيق بقادة العرب والإسلام — وأنه كان يراسلهم سراً ، وقد مهّد لهم الطريق لغزو مصر ، عن طريق سوريا والعريش — ثم سافر إلى الإسكندرية وسلّمهم إياها — بعد إن هرب الرومان بمراكبهم .

وأنه اعتنق الإسلام سراً ، ولم يجاهر به مطلقاً .

وربما أنه اعتنق الإسلام ، طمعاً بالبقاء فى الحكم ، فلما أدرك عمرو بن العاص غايته ، عزله من الحكم — ولا أدرى ، إذا كان لهذا السبب بعينه ، لقّبه المسلمون « بالمُقَوقس » .

أما فى مراسلاته معهم — فقد دعوه بعظيم القبط .

* * *

وإنى أعتقد ، أن نجم الاسكندرية أخذ فى الهبوط ، والأفول ، بعد دخول العرب إلى مصر ، وما كان فى ذلك الوقت ، من احتراق مكتبتها الشهيرة .

فتفرّق فلاسفتها ، وهاجر علماؤها ، وأطباؤها ، وخيرة جهابذتها إلى كل بلد ومكان .

وانتقلت الفلسفة ، والعلم ، والتعلم ، والمدارس ، من

الاسكندرية ، إلى انطاكية فى سوريا .

ولم تقم للاسكندرية قائمة منـــذ ذلك الحين .

أما العاصمة ، فانتقلت إلى الفسطاط ، حيث عسكرت جيوش المسلمين ، بقيـــادة عمرو بن العاص .

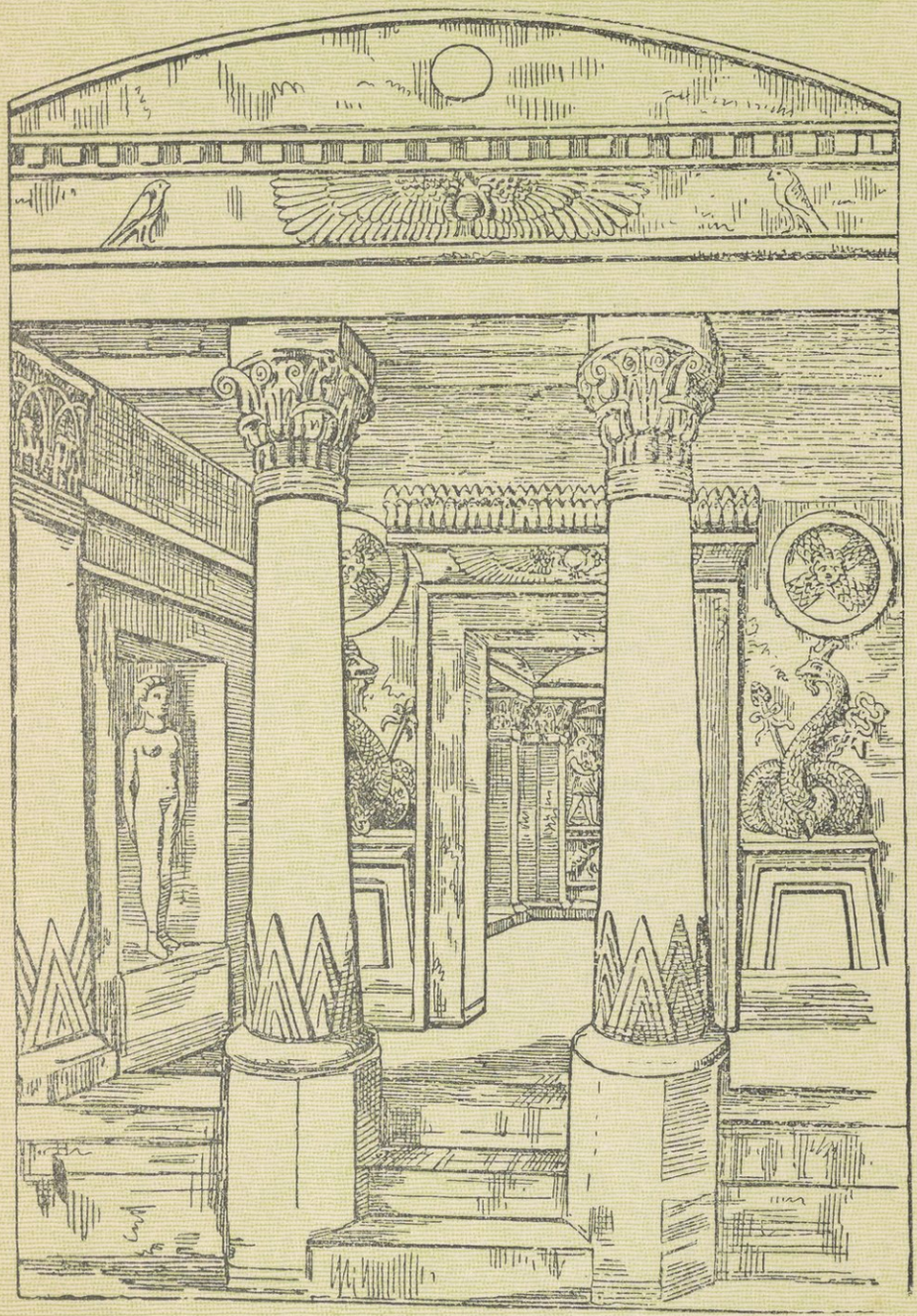

مقابر البطالسة في كوم الشقافة فى الأسكندرة وهي تحت الأرض كمقابر سقارة وهنا يمتزج فن البناء المصري بالبناء الرومانى كما ترى في الرسوم والأعمدة

التاريخ المتوسط

العرب سنة ٦٥٠ ميلادية

ها أنى أرى الآن جيشاً عرمرماً ، يخرج من الصحراء ، مندفعاً نحو مصر .

هذه هى المرّة الثانية ، التى يغزوك فيها الرُّعاة ، يا مصر .

إن رعاة الأمس (الهكسوس) استفادوا كثيراً من علومك ، ومن شعبك ، ومن تقاليدك .

أما رعاة اليوم (العرب) فسوف يفيدونك كثيراً ، ويعلّمون شعبك ديناً جديداً — إنهم يحملون مشعل التهذيب الحديث ، والدّين الجديد .

هذا الشّاب الآتى فى المقدّمة ، المعقود فوق رأسه اللّواء ، هو عمرو بن العاص ، داهية السياسة والحرب ، وفاتح مصر .

هو الذى سيصون خلافة معاوية فى الشام ، ويضع الأساس ، لدولة بنى أميّة فى دمشق .

* * *

لقد كتب إلى أمير المؤمنين ، عمر بن الخطاب ، يقول :

« مصر ، تربة غبراء ، وشجرة خضراء ، يجرى وسطها

نهر ميمون الغدوات ، مبارك الرّوحات ، أرضها درّة بيضاء ، فعنبرة سوداء ، فزبرجدة خضراء ، فتعالى الله الفعّال كما يشاء » .

وجاء كتاب أمير المؤمنين ، سطر واحد يقول :

« لله درّك يا عمر ، وصفتَ لى مصر ، كأنى شاهدتها » .

* * *

وهذا بطريرك الأقباط الأرثوذكس ، يتوسط بين عمر بن العاص ، والمُقوقس عظيم القبط ، كما كان يخاطبه العرب .

فيسلّمه المُقوقس مصر ، ويدفع له جزية ، دينارين عن كل ذكر .

لقد جاء المُقوقس من منفيس ، حيث كان يقيم ، ليسلّم المسلمين مدينة « بابل » (الذى بناها الفرس قبل الميلاد ، فى المكان الذى تقوم عليه مصر القديمة الآن — ولم تكن القاهرة قد وُجدت بعد) — وحصن « بابل » الذى يقوم مكانه الآن دير مارى جرجس — فاستلمه العرب من المُقَوْقس .

وكان المُقَوْقس آخر والٍ حكم مصر ، بالنيابة عن الرومان ، وربما أنه كان من أصلٍ يونانى كما ذكر بعض المؤرخين .

* * *

وهذا عمرو بن العاص — اسمعه ينادى فى المصريين :

الإسلام — أم الجزية — أم السيف !

لقد ساهم فى الخطأ العظيم ، الذى ارتكبه قادة الإسلام قبله

بزمن طويل ، إذ لو استبعد الجزية ، هو ومن جاء قبله ، لكان الشرق اليوم دولة واحدة ، وديناً واحداً ، وشعباً واحداً .

* * *

إننا نحن الأقليات ، فريسة الخطأ القديم .

أنتم يا إخواننا مسلمو اليوم ، كنتم نصارى الأمس ، الذين أحببتم التسامح والتساهل ، فدخلتم فى دين الله أفواجاً أفواجاً .

ونحن نصارى اليوم ، إخوانكم المتعصّبون لديننا ، ودينكم بالأمس ، دفعنا الجزية صاغرين ، راضين ، وحافظنا على ديننا ، آمنين ، مطمئنين .

لكنا أوجدنا لكم ولنا مشكلة اليوم ، مشكلة المشاكل ، مشكلة الشرق ، مشكلة الأقليّات ، العقدة التى لولاها لكان الشرق بأجمعه دولة واحدة ، وأمّة واحدة ، وديناً واحداً .

نحن المخطئون ، وأنتم المسئولون ! !

ولولاكم ، ولولا جزيتكم ، لما كنا كما نحن الآن — بل كنا بحق ، لنا ما لكم ، وعلينا ما عليكم .

لكن الجزية كانت قضاءاً مبرماً على الشرق .

وكانت سبباً من أسباب ذلّه وانقسامه .

* * *

وهذا هو عمرو بن العاص ، يترك مصر ، بعد أن ولّاه عليها عمر بن الخطاب ، لأن الخليفة عثمان بن عفّان عزله من الولاية ، وولّى مكانه عبد الله بن أبى سرح .

* * *

الخلافة الأموية

من ٦٦١ إلى ٧٧٤ ميلادية

سقط « عثمان بن عفّان » قتيلاً بخناجر الثائرين ، فانتقلت الخلافة إلى بنى أميّة ، وعلى رأسهم معاوية بن أبى سفيان .

هؤلاء هم الأمويّون ، يمرّون عليكِ يا مصر ، كما مرّت من قبلهم قوافل الدول ، وجحافل الممالك .

وها هو عمرو بن العاص ، يعود إليكِ حاكماً للمرة الثانية من قِبَل الخليفة « معاوية بن أبى سفيان » .

لقد خطر لعمرو ، وهو يتمشى على ضفاف النيل أن يستقلّ بمصر ، ويجعلها ملكا له ، ولأولاده من بعده .

ولا غرو ! فقد كانت مصر ، منذ أول الفتح الإسلامى ، تتبوأ مركزاً ممتازاً بين جميع ولايات الخلفاء المسلمين .

لكن عمرو بن العاص كان يحتاج إلى المال ، ليؤسّس دولة له فى مصر .

أنظر إليه جالساً مع مشايخ مصر وعمدها ، يسألهم عن كنوز الفراعنة .

اسمعهم يقولون له ، حين أعيتهم الحيل « إنها مخبوءة فى رأس الأهرام » ، وعليه — صدرت أوامر « عمرو بن العاص » بهدم الأهرام من رأسه .

وهذه معاول الفعلة المصريين تشتغل بالهدم .

لقد هدموا خمسة أمتار ، فلم يجدوا شيئاً ، فتوقفوا عن الهدم .

وها إنى أرى « عبد الله بن الزبير » ، يثور على بنى أمية ، ويدّعى لنفسه الخلافة ، فيقوم مع جماعة من مصر ، فيعيّن من قِبَلِه « عبد الرحمن بن عتبة » ، والياً على مصر .

لكن « مروان بن الحكم » يبطش بثورته ، ويهزم جيشه فى مصر .

وقد زارك الكثيرون من خلفاء بنى أمية .

هذا يزيد بن معاوية ، وعمر بن عبد العزيز ، وهشّام وعبد الملك بن هشام ، والوليد بن عبد الملك ، يجلسون حول الأهرام ، مندهشين تائهين فى هذه المدنيّة العظيمة ، التى جعلت مصر فوق جميع الأمم والشعوب .

لكن الدولة الأموية ، أشرفت على الزوال ، لأن بنى أميّة يحاربون بعضهم بعضاً ، فى سبيل الخلافة .

هذا جيش عدوهم اللّدود ، « أبى مسلم الخراسانى » ، يفتتح البلاد ، ويدعو لمبايعة العباسيين .

لقد بايعوا الخلافة فى الكوفة سراً ، لأبى العباس .

واندحرت الخلافة الأموية ، فى موقعة الزّاب ، بالقرب من الموصل .

فتراجع الخليفة مروان الثانى ، آخر خلفاء بنى أمية بجيشه ، عائداً إلى دمشق ، فتبعه عبد الله بن على العباسى

وخانه أهل الشام ، فهرب إلى مصر ، ملتجئاً إليها ، ليتحصن فيها ويتّخذها قاعدة لاسترداد ملكه المفقود ، وهو يطمع أيضاً أن ينشىء فى مصر ، خلافة إسلامية ، عربية ، أموية .

لكنه فشل أيضاً ، وقتل وهو يقاتل فى الصعيد ، فى قرية بوصير .

وبموته انقرض ملك بنى أميّة ، بعد أن حكم منهم أربعة عشر خليفة .

وانتقلت الخلافة إلى بنى العباس ، فدخلوا مصر ، وأصبحت مصر تستظلّ بلواء الخلافة العباسية ، وسلطانها الدينى .

* * *

الخلافة العباسية

من ٧٥٠ الى ٩٠٩ ميلادية

لقد سمع خلفاء بنى العباس ، الكثير عنكِ يا مصر .

فجاؤوا من بغداد ، ليقفوا أمام معابدك ، وهياكلك العجيبة .

أنظرى إلى المنصور ، الفيلسوف الحكيم ، يأخذ العبر ، من مصر ، وتاريخ مصر .

وهذا هو هارون الرشيد ، يذهب إلى مقابر طيبة ، وبنى حسن ، ويركع أمام المعابد والهياكل ، قائلاً :

« أشهد أن لا إله إلا الله ، وكل من عليها فان » .

وهـذا هو ابنه المأمون ، يزور مصر ، ويأمر ، فتُفتح له أبواب الأهرام ، فيدخل ، ليفتش عن كنوز الفراعنـة الأقدمين فلا يجد شيئا .

* * *

الدولة الطولونيـــة

احمد بن طولون من ٨٦٨ إلى ٩٠٤ ميـــلادية

وبقيتِ يا مصر خاضعة للدولة العباسية إلى أن قام « أحمد ابن طولون » ، واستولى عليك ، ووضع أسس الدولة الطولونية .

وكان أحمد بن طولون مملوكا تركياً ، ولّاه على مصر ، الخليفة المعتز بالله سنة ٢٥٤ هـ .

لقد جاء ابن طولون إلى مصر فقيراً معـــدماً ، لا يملك شيئاً ، لـكنه كان على جانبٍ عظيم ، من العـلم ، والأدب ، والدّهـــاء .

ولمـا مات ، خلّف ثروة لا تقل عن الثلاثة ملايين جنيه فى ذلك الزمن ، أو ما يوازى العشرين مليوناً اليوم .

وكان ابن طولون ، أول من اقتطع البلاد السورية ، عن مملكة الخـــلافة ، وجمع بين ملك مصر ، والشـــام ، فى الإســـلام .

وقويت مملكة ابن طولون ، وامتدّ نفوذه ، حتى أن ملك الروم ، أخذ يتزلّف إليه ، ويتقرّب منه ، بالهـدايا ، والعطـايا .

وادّعى ابن طولون الخلافة لنفسه ، بمصر ، فجنّـد له

الخليفة المعتضد بالله ، جيشاً عظيماً ، فلم يستطع التغلب عليه ، فاضطر إلى مراعاته ، والاتّفاق معه .

وكان ابن طولون حكيماً عادلاً ، على جانب عظيم من الفضيلة ، والتقوى ، وخوف الله ، وحسن السيرة ، وعلوّ الهمّة ، وبعد النظر ، ولكنه كان قاسياً يستلذ القتل ، وسفك الدماء .

وخاف الخليفة فى بغداد على ملكه ، وخلافته ، ورغب فى التقرب من ابن طولون .

واتصل بالخليفة ، أن لابن طولون ، كريمة جميلة ، تعدّ من أجمل بنات عصرها ، وتسمّى : « قطر الندى » فطلب إليه أن يزوّجه إياها ، فكان كذلك .

وحملت معها إلى بغداد ثروة عظيمة ، لا تقدّر بمال .

لكن هذا الزواج السياسى ، أضعف مركز ابن طولون ، وقضى على مطامعه بالخلافة ، ناهيك أنه أفرغ خزائن مصر ، من المال ، والثروة .

وعلى أيام ابن طولون ، جرت أحداث فى فلسطين ، والشام ، فتغلب عليها .

ومنها الحرب بين مردة لبنان ، والأمير نعمان ، متسلّم مدينة بيروت ، ودام القتال سبعة أيام ، على نهر بيروت ، ونهر الكلب ، فانتصرت جيوش ابن طولون ، وقطع رؤوس أعدائه وأرسلها إلى الخليفة فى بغداد .

وقد بنى مسجده المعروف باسمه ، على جبل « يشكور » ، فى المكان

الذى يقال إن موسى كلّم الله منه .

وقد توسّع أحمد بن طولون ، فمدّ ملكه من مصر إلى الشام ، واستولى على حلب ، وأنطاكية ، وبلاد كيليكيه ، وارتفع علم مصر فوق جميع هذه البلاد الشرقية ، التى ظلت تابعة لمصر ، إلى أن قام سيف الدولة بن حمدان ، فأسّس ملكه فى حلب ، وانتزع أنطاكية ، وكيليكيه ، من يد مصر .

وحكم أحمد بن طولون ، سبعة وثلاثين سنة فى مصر .

وجاء بعده ابنه « خمارويه » ، الملقّب بأبى الجيش ، وفى أيامه ظهر القرامطة الباطنيون .

وعاد الحكم بعده إلى العباسيين ، فى خلافة المكتفى بالله .

فسحقوا الدولة الطولونية الزاهرة ، وأرسلوا جميع الذكور من نسل أحمد بن طولون إلى بغداد ، كرهائن ، لكى لا يقوم أحد منهم يطالب بالعرش .

* * *

الدولة الأخشيدية

من ٩٠٥ إلى ٩٠٩ ميلادية

لكنّ العباسيين لم يستطيعوا أن يوطّدوا سلطانهم الفعلى فى مصر فحكمها باسمهم زعماء أقوياء ، مثل : ثكن الخزرى ، وذكا الرومى ، وابن كيغلغ ، إلى أن جاءت دولة الأخشيديين بزعامة « محمد بن طغج » ، واستخلصت مصر من يد

ابن كيغلغ ، أما كلمة « طغج » فمعناها « عبد الرحمن » .

وأنعم الخليفة العباس على « ابن طغج » بلقب الأخشيد ، أى ملك الملوك .

وخطر للأخشيد أن يبنى دولة مستقلة فى مصر ، له ، ولأبنائه من بعده .

وأراد أن يخلع نير العباسيين ، ويستقل بالملك ، فأرسل العباسيون جيشهم بقيادة قائدهم الأكبر « محمد بن رائق » فجرت بينه وبين الأخشيد ، حروب فى حمص ، ودمشق ، انتهت باستقرار البلاد الشامية للأخشيد .

وكان سيف الدولة « بن حمدان » صاحب حلب ، يطمع فى دمشق ، ويرغب فى احتلالها ، فجيَّش جيشاً عظيماً ، وسار إليها .

لكن « محمد بن طغج الأخشيدى » وقف فى سبيله ، بعد أن كاد أن يدخلها ، ويستولى عليها .

وجرت المعركة الفاصلة ، فى مرج عذراء ، خارج أسوار دمشق ، فدارت الدائرة على سيف الدولة ، الذى عاد مكسوراً ، ولم يطمع فى دمشق بعد ذلك .

وتوفى الأخشيد فى دمشق ، قبل أن يثبّت أساس ملكه فى مصر ، فخلفه ولده ، ثم أخوه « على بن الأخشيد » الذى آل الأمر على أيامه ، إلى كافور .

* * *

وكان «كافور» عبداً أسود، اغتصب عرش مصر من ابن سيده.

وقد كان من الحبشة، لكنه كان سياسياً، وحكيماً، عادلاً.

وقد جعل منه «المتنبّي» شخصية مشهورة فى التاريخ، إذ مدحه أفضل المدح، ثم هجاه وذمّه، بأشدّ الهجاء والذمّ.

لقد فارق «المتنبي» أميره سيف الدولة ساخطاً غاضباً، فالتجأ إلى مصر، يطلب ولاية يحكمها ليكون صاحب دولة كما كان سيف الدولة صاحب حلب.

فخيّب كافور آمال المتنبي.

وكأنى لا أزال أسمع صوت المتنبي، يلعلع فى سماء مصر، وهو ينشد هجاء كافور:

من علَّم الأسود المخصّى مكرمةً
أقومه البيض، أم آباؤه الصّيدُ
لا تشترى العبد إلَّا والعصا معهُ
إنَّ العبيد لأنجاس مناكيد

ولما توفّى كافور، قام بعده أبو الفوارس، أحمد بن على الأخشيدى، ملكا على مصر.

وساعده الحظ بوزيره القوى، جعفر بن الفرات.

لكن وجود «جعفر» على رأس الدولة، أدّى إلى الخصام مع يعقوب بن كلس، وهو رجل يهودى، اعتنق الإسلام، وأصبح داعية للفاطميين، بل من أكبر رجال الدولة، الذين عبّدوا الطريق أمام الدولة الفاطمية، لغزو مصر وفتحها.

فقد فرّ إلى المغرب الأقصى ، هارباً من ابن الفرات ، ودعا المعزّ لفتح مصر ، بعد أن شرح له أسرارها ، وسهولة الاستيلاء عليها .

وكانت مصر على جانب عظيم من الفوضى ، والظلم ، والاستغلال ، مما شجّع « المعزّ » على غزوها .

فلما جاءت دولة الفاطميين ، كان ليعقوب بن كلس ، اليد الكبرى ، فى حكم مصر .

* * *

خلافة الفاطميين

من ٩٠٩ إلى ١١٧١ ميلادية

هذا هو « القائد جوهر » على رأس جيش كبير ، أرسله المعزّ ابن عبد الله المغربى ، سلطان المغرب الأقصى ، فافتتح مصر وأسّس مدينة القاهرة ، التى دعيت باسمه ، وذلك سنة ٩٥٣ ميلادية .

جاء إلى مصر ، بمائة ألف محارب ، وخمسمائة جمل تحمل الذهب والفضة .

وكانت الطريق لفتح مصر قد تعبّدت بانقراض الدولة الأخشيدية ، وهلاك سيف الدولة فى حلب .

فأنشأ خلافة الفاطميين فى مصر .

إنه الفتح الإسلامى الثانى ، والخلافة الأولى فى مصر .

* * *

لقد أراد علماء مصر ومشايخها أن يباحثوا « المعزّ » فى حسبه ، وأن يطّلعوا على وثيقة نسبه إلى فاطمة ، ابنة الرسول الكريم « محمد بن عبد الله » .

فجمعهم فى قصره ، ثم دخل عليهم ، واستلّ سيفه وصاح : « هذا حسبى » .

ثم وزع على كل منهم كيساً مملوءاً ذهباً وقال : « وهذا نسبى » .

فقالوا جميعاً : « سمعنا وأطعنا » .

وبذلك استتبّت الخلافة الفاطمية فى مصر .

* * *

وهذا هو الحاكم بأمر الله ، حفيد المعز لدين الله ، الذى كان فى بدء حكمه أفضل الخلفاء الفاطميين .

وكثرت الطوائف الباطنية على أيامه فى مصر ، وكثرت معها الفتن الدينية ، والدسائس السياسية .

وهذه هى مدرسة « دار الحكمة » التى أنشئت خصيصاً لتعليم المبادىء الباطنية ، يساعدها فى ذلك الأزهر الشريف ، الذى أنشأه « جوهر الصقلى » لبث الدعاية ضد الدين الإسلامى .

ولكن الأزهر تحوّل مع الزمن ، ليكون أعظم معهد لهذا الدين ، وأهم مركز لمذهب المسلمين .

وطغى الحاكم بأمر الله ، وقتل العلماء ، والمشايخ ، وكبار رجال الدولة ، فى سبيل المناداة بنفسه إلهاً .

وهدم الكنائس ، ومنها كنيسة القيامة فى القدس الشريف ،

مما كان السبب الأكبر لاستفزاز أوروبا للحروب الصليبية .

وحرق مدينة الفسطاط بأكملها .

وادّعى الألوهية ، وأن الله نفسه حلَّ فيه .

وغيّر الحاكم بأمر الله ، اسمه — إلى الحاكم بأمره ، ونادى به أتباعه إلهاً .

وقد اتفق أكثر مؤرخى العرب ، والأفرنج ، على أن الحاكم بأمر الله ، أصيب بمسة فى عقله ، فأرسلت أخته ، ستّ الملك ، عبيدها ، فاغتالوه فى جبل المقطم ، بالقرب من حلوان .

لقد وجد فى مصر ، على أيام الحاكم بأمر الله ، الخليفة الفاطمى ، عشرات من الدّعاة الأذكياء ، أمثال حمزه بن على ، من بلدة زوزن فى إيران ، ومحمد بن إسماعيل الدرزى ، المعروف باسم « نشتوكين » ، وإسماعيل بن محمد التميمى ، وعبد الله مبارك ، والمقتنى ، وأبو منصور البردعى ، وأبو جعفر الحبال ، وسلامه بن عبد الوهاب ، وحسن الفرغانى ، الملقب بالأخرم ، وكثيرون سواهم .

وقد كان جميع هؤلاء الدعاة ، من أصل فارسى ، ينتمون إلى جمعيات سريّة باطنية ، غايتها نشر الإلحاد ، والقضاء على الدين الإسلامى .

وقد وجد هؤلاء ضالّتهم فى الحاكم بأمر الله ، فأقنعوه أن العزّة الآلهية ، حلّت بعلى بن أبى طالب ، وهى الآن تحلُّ وتتقمّص فيه ، وهو العزّة الآلهية ، نفسها متجسّدة بشخص

الحاكم بأمر الله .

وإنك لتجد فى رسائل « حمزة بن على » دعـــوة صريحة إلى ألوهيَّة الحاكم وتغيير اسمه ــ إلى الحاكم بأمره .

وقال حمزة : كما أن « محمداً » قد فسخ كل الشرائع التى جاءت قبله ، فالحاكم بأمره يفسخ الشريعة الإســـلامية . وينشىء لنفسه شريعةً جديدة .

ويوصى « حمزة بن علىّ » بوجوب عبادة الحاكم ، والاعتراف به ، أنه الإله الواحد وأنه « المـــولى سبحانه هو هو ، فى كل عصر وزمان ، وأنه يظهر فى صور بشرّية كيف شاء وحيث شاء » ويقول أيضاً أنَّ الإسلام قام بالسيف ، والقـــوة ، والعنف ، فهو لا يصلح دينـــاً ، وأن شريعة « محمدَ » خُتمت بالحاكم بأمره .

ثم اختار له « على بن حمزة » اسماً جديداً هو « قائم الزمان » ، وأخذوا له البيعة من الرؤساء والكبراء ورجال الدولة بصفته ــ الإله القادر على كل شىء .

لكن المسلمين فى مصر قاوموا دعوة ألوهيّة الحاكم ، وثاروا عليها ، وعلى القـــائمين بها ، وضحُّوا فى سبيل ذلك بمالهم وأرواحهم ، وأولادهم ، وعرضهم .

لقد كان الحاكم يقف وراء الدعاة ، ويقدّم لهم الأموال ويحميهم من أعدائهم ، فلما لم يجد فى المصريين من يؤمن بألوهيّته ، أو ينادى بدعوته ، أثار على المصريين أعداءهم من

طوائف الأتراك والعبيد ، وفرق المغاربة الذين جاءوا مع أجداده من المغرب الأقصى ، فهجم هؤلاء على المصريين ، ونهبوا متاجرهم ، وعبثوا فى بيوتهم ودورهم ، وخطفوا نساءهم وبناتهم ، وحرقوا قسماً كبيراً من أحيائهم ، ودافع المصريون عن أنفسهم ، فقُتل منهم جمع غفير ، ودامت المعارك ثلاثة أيام بكاملها ، وكادت القاهرة تحترق بكل ما فيها ، لولا أن الحاكم خشى عاقبة عمله وأوقف عبيده عن النهب والقتل . وكم وكم من أشراف المصريات انتحرن ، لكى لا يقعن سبايا فى يد المغاربة والعبيد . وبعد اغتيال الحاكم ، جلس على العرش ابنه « أبو الحسن علىّ » ولقّب « بالملك الظاهر » وحكم مصر تحت رعاية عمته (ست الملك) .

وقد نقم على سياسة أبيه ، وألغى الأحكام الصارمة ، واعتبر أن دعوة والده بالألوهيّة لا أساس لها ، ولا معنى لوجودها ، ونادى فى الناس أنهم أحرار فى أديانهم ، وعقائدهم وأن لا إكراه فى الدين .

وقد طارد الملك الظاهر ، دعاة والده ، وأنصاره من الفارسيين ، وقبض على زعمائهم فشرّد بعضهم ، وقتل أكثرهم إلا من هرب من مصر ، أمثال الدرزى ، وحمزة بن على الزوزى ، واسماعيل التميمى ، الذين فروا إلى حوران والتجأوا إلى بلاد الشام يبشرون أهلها بألوهيّة الحاكم ، وإنك لتجد جميع ذلك مفصّلا فى رسائل « حمزة بن على » المحفوظة فى دار الكتب المصرية .

وبقيت « ست الملك » أربعين سنة تحكم المملكة المصرية ، باسم الملك الظاهر ، وتهتمّ بتدبير شؤونهـا ، والمحافظة على الخلافة ، فأظهرت من الحكمة ، وحسن الإدارة ، وحصافة الرأى ، والحزم ، والعزم ، ما أعاد لدولة الفاطميين ، ما كان لهـا من الكرامة ، على أيام خلفائها الأولين ، من أمثال المعزّ ، وابنه العزيز . ولولا هذه السيدة العاقلة ، لانقرضت خلافة الفاطميين ، بعد موت الحـاكم بأمر الله . وقد اتّسعت مملكة الفاطميين بمصر على أيام « ست الملك » ، وامتدت إلى الفرات ، ومكّة ، والمدينة ، وفلسطين ، وسوريا ، ولبنان ، بمـا فيه بلاد المغرب الأقصى .

فأصبح الخلفاء الفاطميون يحكمون من النيل إلى الفرات ، والخلفاء العباسيون يحكمون من الفرات إلى بغداد ، وأصبح نهر الفرات ، حداً فاصـلاً بين الخلافتين .

أما الخلافة العربيـة الحقيقية ، التى اكتسحت العالم ، ورفعت العَـلَم العربى ، فوق جميع المشرق ، فلم تعد فى الوجود ، وأضاع العباسيون فى بغداد ، والفاطميون فى مصر مجد الخلافة والعرب ، ولم يكن للعباسيين نفوذ سـياسىّ ، أو حربى ، أو عسكرى ، على الكثير من المقاطعات التى كانوا يحكمونهـا ، إذ كانوا يكتفون من عمّالهم ، أن يخطب باسمهم ، من على المنـابر ، والمساجد ، وهكذا أصبحت الخلافة فى مصر ، شبحاً من الأشباح ، حتى أن بنى حمدان ، وهم شيعيون كالفاطميين ، ثاروا على الفاطميين ، وخلعوا نيرهم ، واستقلّوا بحلب وما يتبعها .

إن قيام الدولة الفاطمية ، قضى على الخلافة العباسية .

لكن الفاطميين أنفسهم ، لم يستطيعوا المحافظة على ملكهم ، وخلافتهم ، لقد صرفوا جهودهم لمحاربة الروم فى شمال سوريا .

ثم للقضاء على بنى حمدان فى حلب ، وللتخلّص من القبائل العربية فى فلسطين ، التى كانت تحت زعامة « ابن المفرّج » أمير طىء .

ولقد أرسلت العناية الآلهية للفاطميين ، وزراء عقلاء ، ومستشارين أذكياء ، أخلصوا لهم النُّصح ، وأرادوا لهم الخير ، من أمثال الوزير يعقوب بن كلّس الذى وهو على فراش الموت أرسل وراء العزيز الخليفة الفاطمى ، ونصحه بقوله :

« يا أمير المؤمنين — سالم الروم ما سالموك فهم أمّة قويّة ، لا يمكن التغلب عليها . واقنع من بنى حمدان ، بالدعوة لك من على المنابر .

وحارب « مفرّج بن الجراح » زعيم قبائل طىء والعرب ، ولا تبق عليه — فهو عدوّ للفاطميين ، قريباً منهم ، يهدّدهم كل يوم ، ويمنع توسّعهم فى الملك ».

لكن الفاطميين ظلُّوا فى حرب مستمرة مع الروم ، فاستضعفوا بعملهم هذا ملكهم ، وجيشهم ، وانصرف الروم عن محاربة العباسيين وأشياعهم ، إلى محاربة الفاطميين .

وحاربوا « بنى حمدان » حتى اضطر أحفاد الفتى العربى

الصميم ، « سيف الدولة بن حمدان » أن يلجأوا إلى الروم لينقذوهم من ظلم الخلافة الفاطمية فى مصر .

أما مفرّج بن الجراح ، أمير قبائل طيء فى فلسطين ، فقد عجز الفاطميون عن الانتصار عليه ، لأنهم وزّعوا قواتهم لمحاربة الروم ، وبنى حمدان ، فوقف فى طريق توسّعهم إلى دمشق وشمال سوريا ولم تنقطع ثورته عليهم ، وعلى ملكهم .

وهكذا انقضى عهد الفاطميين فى مصر ، وكان كله عهد حروب ، وفتن ، ومصائب ، ومشاكل ، وانحلّت دولة الخلافة التى أسسها المعزّ .

ووقعت مصر فريسة للفوضى ، والاضطرابات ، والقلاقل ، والظلم ، والاستبداد . والطغيان .

* * *

دولة الأيوبيين (١١٧١ إلى ١٢٥٠ ميلادية)

واستدرك الأمر صلاح الدين الأيوبى — الملك العادل — وسبق الزّمن فعلّم الأوروبيين أن فى الشرق ملوكاً عادلين ، وأن لا حاجة لجيوش الصليبيين لإنقاذ النصارى ، أو لحماية الأقليات .

جاء « صلاح الدين بن يوسف بن أيوب » إلى مصر فاتحاً مع عمه « أسد الدين شيراكوه » .

لقد أرسلهما الملك العادل « نور الدين محمود بن زنكى » صاحب حلب ، لكى يستوليا على مصر ، ويحكماها باسمه .

فجاء « صلاح الدين » إلى الاسكندرية ، ومنها إلى مصر .

وكانت الخلافة لا تزال للفاطميين ، وعليها الخليفة « العاضد » .

وأرسل نور الدين ، أمراً لصلاح الدين الأيوبى ، بقطع الخطبة للفاطميين من على المنابر ، وأن يخطبوا للخليفة المستضىء العباسى .

وراجعه صلاح الدين خوف الفتنة ، لكن نور الدين أصرّ على تنفيذ أوامره ، فأطاع صلاح الدين . وكان الخليفة الفاطمى العاضد مريضاً . فمات قبل أن يعلم بقطع الخطبة له فى المساجد .

ولما مات — جلس « صلاح الدين » يتقبّل التعازى ، ثم استولى على قصر الخلافة وجميع ما فيه ، فقويت شوكته ، وأصبح ملك مصر الحقيقى . وقد حكم فى مصر أربعاً وعشرين سنة ، وفتح الشام وجميع البلاد العربية .

وكان السلطان « صلاح الدين الأيوبى » ، أول ملك مدّ يده إلى الأزهر ، وحوّله من دار للدعاية الباطنية ، إلى جامع للمسلمين .

وله الفضل الأكبر فيما وصل إليه هذا الجامع العظيم ، الذى أصبح نقطة الارتكاز للمسلمين ، والجامعة الكبرى للشرق .

يالسخرية القضاء والقدر يا مصر .

إن الجامع الأزهر ، أنشىء ليكون مركزاً للدعاية الفاطمية ، والجمعيات السرّية الباطنية لهدم الإسلام ، والقضاء على الخلافة العباسية فى بغداد ، فتحوّل بفضل « صلاح الدين » إلى مركز دينى عظيم ، وجامعة كبرى للمسلمين .

ثم بنى القلعة المشهورة فى مصر .

وافتتح صلاح الدين فلسطين ، وسوريا ، ومدّ ملكه إلى أطراف العراق .

وحارب الصليبيين ، وله معهم معارك كثيرة مشهورة ، ووقائع تاريخية مع ملوكهم ، خصوصاً ريكاردوس قلب الأسد ، ملك الانكليز .

وكان الملك لويس التاسع ملك فرنسا ، قد زحف بجيشه نحو الضفة الغربية من النيل ، فتصدّى له جيش صلاح الدين ودارت المعركة فى « فارسكور » بالقرب من المنصورة ، فانهزم الجيش الفرنساوى ، ووقع الملك لويس التاسع أسيراً فحمله جيش صلاح الدين إلى المنصورة ، وسجنوه فى دار ابن لقمان ، التى لا تزال قائمة إلى الآن .

وساد السكون والسلام حيناً من الزمن على أيام الدولة الأيوبيّة ، إلى أن توفى الملك الصالح ، فجلست مكانه على العرش زوجته « شجرة الدّر » .

أنتِ يا مصر ، البلد الاسلامى الوحيد ، الذى جلس على عرشه امرأة .

وكانت هذه المرأة ، رغم ذكائها ، وعقلها ، آخر ملوك الأيوبيين .

لقد كتب الخليفة العباسى من بغداد ، يقول لأهل مصر : « إذا لم يكن عندكم رجل فى مصر يتولّى الملك ، فأفيدونا لنرسل إليكم رجلاً من بغداد » .

واضطرت شجرة الدرّ أن تتنازل عن الملك ، فتزوجت الأمير صفر إيبك الشركسى ، فتولى الملك مكانها . وبذلك انتقل الملك من الأيوبيين – إلى الشراكسة التركمان .

ولا يزال لشجرة الدرّ ، قبة عظيمة فى شارع الخليفة فى مصر طرازها كطراز قبّة الخلفاء العباسيين .

وهى مدفونة تحت هذه القبة .

* * *

الشراكسة

من ١٢٥٠ إلى ١٥١٧ ميلادية

وكان الشراكسة يلقّبون بالمماليك ، لأنهم كانوا عبيداً للأيوبيين ، إلى أن تزوّج صفر إيبك الشركسى ، بشجرة الدّر ، فلقّب نفسه بالمعزّ .

ومن أشهر ملوك الشراكسة فى مصر : الملك « الظاهر بيبرس » الذى تولّى الحكم فى مصر سنة ١٢٧٧ .

ويقال ، أنه قتل جميع الذكور من ذريّة صلاح الدين الأيوبى ليخلو له الملك . وهو الذى حارب الصليبيين واشتهر بالفروسيّة وحسن الإدارة والتدبير ، وقد كان معروفاً باسم « بيبرس البندقدارى » إلى أن لُقّب « بالملك الظاهر » ، ولم يكتف بعرش مصر ، بل سار بجيشه إلى الشام ، وافتتحها ، وأقيمت له الخطبة فيها ، من على منابر الجوامع .

وفتح فلسطين ، وحمص ، وحماه ، وحلب ، وعرفه ، وطرابلس .

وقد قطع جميع الأشجار من بساتين طرابلس ، ودمّر القرى الواقعة بالقرب منها . فنزل إليه اللبنانيون ، المعروفون بالمردة ، فاضطر إلى الذهاب إلى حصن الأكراد ، ومن هناك إلى حلب وأنطاكية .

وأرسل جيوشه فغزت بلاد الأرمن .

ويقال أنه مات مسموماً فى دمشق ، انتقاماً منه ، لقتله الملك العادل آخر ملوك بنى أيوب ، والقضاء على دولة الأيوبيين .

واستولى على الملك بعده ابنه ، فخلعوه وأقاموا مكانه الملك المنصور قلاوون الصالحى ، الذى وطّد حكم المماليك ، فى الشام .

ومن ملوكهم ، الأشرف « قايتباى » الذى حكم مصر مدة طويلة ، وحارب فى الشام ، ولبنان .

وقد كان آخر ملوك الشراكسة « قانوصة الغورىّ » وهو المشهور بمصر بالسلطان الغورىّ .

وسار السلطان الغورىّ إلى بلاد الشام ، لمحاربة السلطان سليم الأول ، الذى اكتسح البلاد السورية ، وأخضعها لملكه .

وأراد السلطان الغورى القضاء على جيش بنى عثمان قبل أن يصل إلى مصر ، والتقت جيوشهما فى مرج دابق بجوار حلب ، وأرسل السلطان سليم الأول رسله إلى الملك الغورى ، مسترضياً خاضعاً ، واحتال عليه ، فانطلت الحيلة على السلطان الغورى .

ثم فجأة هجم السلطان سليم الأول العثمانى ، على جيش الملك الغورى وقتل الغورى فى المعركة ، وجىء برأسه إلى السلطان سليم .

ونادى المصريون ، بعد موت السلطان الغورى « بطومانباى » ملكا وبايعوه على مصر ، فجاء السلطان سليم الأول ، إلى مصر وقتل الملك الجديد طومان باى ، واستولى على الدولة المصرية ، وضمها إلى أملاك آل عثمان .

وكان السلطان الغورىّ آخر ملوك الشراكسة الذين حكموا مصر ، والشام ، ولبنان ، ومسجد الغورىّ معروف ومشهور فى شارع الغوريةّ فى مصر ، ويعتبر تحفة من تحف الدهر . . ولما دخله السلطان سليم اندهش من زخرفته وقال لمن حوله :

هذا مخزن تاجر لا جامع ؟ ! .

* * *

الأتراك

من ١٥١٧ إلى ١٧٦٥ ميلادية

ها إنى أرى الأتراك الآن ، بقيادة سلطانهم سليم الأول ابن بيازيد العثمانى ، يهجم على مصر فيفتحها ، ويستولى عليها سنة ١٥١٧ .

لقد بقيتِ يا مصر ولاية عثمانية ، تحكمكِ الآستانة إلى سنة ١٧٦٥ ميلادية ، حيث اتفق السلطان مصطفى الثالث ، مع المماليك البحرية (وهم غير مماليك الأيوبيين الشراكسة)

وولّاهم عليك - وترك لهم الحكم والسيادة ، على شرط أن يجمعوا له الأموال الأميرية ، ويرسلونها إلى الاستانة العلية ، تحت مراقبة وزير تركى ، يبقى فى مصر ، ليمثل الباب العالى أى عظمة السلطان العثمانى .

وفى زمن السلطان سليم الثالث ، تمرّد هؤلاء المماليك على دولة الأتراك ، وعصوا أمرها ، ورفضوا جمع الضرائب ، وامتنعوا عن إرسال الأموال الأميرية إلى الأستانة العلية .

* * *

دولة المماليك

سنة ١٧٦٥ ميلادية

وحكم المماليك باسم الأتراك ، وظلموا واستبدّوا ، فعانى المصريون الأمرّين من حكمهم وظلمهم .

وكانت اتفاقية سلاطين الأتراك مع المماليك ، سياسة خرقاء بل السبب الأكبر للقضاء على الحكم التركى فى مصر ، لأنهم أخطأوا جداً فى تسليم مصر للمماليك ، يستبدّون بشعبها كيف شاؤوا وأرادوا .

* * *

نابليون

سنة ١٧٩٨ ميلادية

وجاء نابليون إلى مصر سنة ١٧٩٨ ميلادية ، يقود مائة وثلاثين ألف محارب ، ونزل بالقرب من الإسكندرية .

وأرسل السلطان العثمانى، حملة كبيرة لمحاربة نابليون، وإخراجه من مصر.

وانتصر نابليون على الأتراك، وربح معركة أبى قير البرية.

واتحد المماليك لمحاربة نابليون بقيادة مراد بك، لكن نابليون شرّدهم إلى أقصى الصعيد، وهرب الكثيرون منهم إلى الحجاز.

وانكسر أسطول نابليون فى معركة أبى قير البحرية، وأصبح نابليون وجيشه شبه أسراء فى مصر، فعاد نابليون إلى فرنسا فى مركب شراعى ووصل سالماً، رغم الأميرال نلسون وأسطوله العظيم، الرابض فى مياه البحر المتوسط.

وترك القيادة فى مصر لصديقه الجنرال كليبر، لكن شاباً سورياً متعصباً متحمساً من مدينة حلب هجم على كليبر، وطعنه بخنجر، فأرداه قتيلاً.

وسقط كليبر فى المكان الذى تقع عليه لوكاندة شبرد الآن، وانتهت بذلك الحملة الفرنسية على مصر.

* * *

الدولة العلوية الخديوية

محمد على باشا

من ١٨٠٤ إلى ١٨٤٩ ميلادية

وخرج الأومباشى الصغير نابليون من مصر، فدخلها الأومباشى الكبير محمد على باشا.

لقد حضر محمد على ، مع الجيوش السلطانية التركية ، لمحاربة الفرنسيين ، وإخراجهم من مصر .

لقد دخل مصر جندياً بسيطاً ، فأصبح ملكاً عظيماً .

واشتهر هذا الجندى الباسل ، بالشجاعة والإقدام ، والعدل ، والحلم ، وسرعة الخاطر ، والذكاء الحاد ، فارتقى بسرعة من أومباشى إلى قائمقام .

ثم تقلَّد زمام الأحكام بمصر سنة ١٨٠٤ ، وتعهد بمبلغ معيَّن من المال ، يدفعه لدولة الأتراك ، ونادى الشعب به « باشا مصر » فاضطر الباب العالى ، إلى الاعتراف بحكمه .

وكان حكم محمد على باشا مثالا عالياً للعدل ، والإنصاف ، والرحمة ، والفضيلة .

ولم تر مصر عدلاً ونزاهة فى الحكم ، كما عرفت فى عهد هذا العاهل الكبير .

وليس فى تاريخه ما قد ينتقد عليه ، سوى مذبحة المماليك المشهورة ، وربما أنه كان على حقّ فيها .

وكاد هذا المؤسس العظيم لعرش مصر المجيد ، أن يمد سلطانه على جميع ممالك الشرق ، من رأس الرجاء الصالح ، إلى الآستانة العلية .

فحارب الوهابيين بمكة ، وانتصر عليهم .

وأرسل ابنه إبراهيم باشا ، فافتتح سوريا ، وفلسطين ، ولبنان والأناضول .

وكان جيشه الظافر يمرّ فى لبنان ، وفى كل مكان ، وهو مثال الجندى الكامل ، فلا نهب ، ولا سلب ، ولا تعدّ على أموال الناس ، وبيوتهم وأملاكهم .

ولا يزال أهل لبنان ، يذكرون إبراهيم باشا ، وعدله ، ونزاهة حكمه حتى هذا اليوم . وربما أن محبة اللبنانيين للمصريين ، جاءت عن طريق محبتهم لإبراهيم باشا .

وكاد أن يصل هذا الجيش المنتصر ، إلى أسوار القسطنطينية .

لكن أوربا خافت من بطش الدولة المصرية الجديدة ، فأرسلت جيوشها وأساطيلها وأرجعت الفاتح العظيم ، إبراهيم باشا إلى الحدود المعروفة اليوم ، بحدود الدولة المصرية .

إن أوربا فضّلت أن تر تركيا المريضة ، رابضة على البوسفور لا أن تر الدولة المصرية ، الفتية ، الجديدة ، رافعة علمها ، على الآستانة العليّة .

* * *

وعادت مصر ، فانكمشت ضمن حدودها التى نعرفها اليوم .

وحكم مصر بعد محمد على — الخديوى إبراهيم باشا — ثم أخوه عباس باشا — ثم عمه محمد سعيد باشا — ثم ابن أخيه إسماعيل باشا ، بن إبراهيم باشا ، بن محمد على باشا الكبير — ثم توفيق باشا — ثم عباس حلمى باشا — ثم السلطان حسين كامل — ثم جلالة الملك فؤاد الأول ، مؤسس الدولة المصرية الجديدة وصاحب الأيادى البيضاء على مصر .

المملكة المصرية

وأرى فيكِ اليوم يا مصر ، شعباً تفرّد بسلامة خُلقه ، وطيبة قلبه .

فالمصرى يكاد يكون صنفاً لوحده ، بين أمم الأرض ، فى ظرفه ، وأنسه ، ودماثته ، وهشاشته ، وبشاشته .

لقد طفتُ العالم يا مصر ، وزرت أوربا ، وأمريكا ، وقسما كبيراً من الشرق ، فرأيت الأمم والشعوب ، وخصوصاً الألمان ، والأمريكان ، والانجليز ، يهجرون بلادهم ، ومع رحبها تضيق بهم ، فيقصدون سواها ، ويجعلونها وطناً لهم .

أما المصرى فلا يهجر مصر ، ولا يخرج منها ، ولا يرضى أن يعيش بعيداً عنها . بل إذا انتقل فى مصر نفسها ، من بلدٍ إلى بلدٍ آخر ، تأوّه وأنشد « يا هل ترى نرجع الأوطان » .

فى مصر لا تضيق رحب البلاد بالسكان ، ولا تخرج بهم مذاهب رزقهم .

والتفتُّ إلى فقرائكِ يا مصر ، وهم جيش عظيم ، يملأون الشوارع ، فى كل مدينة ، ويعدّون بالملايين والملايين ، فى كل مزرعة ، وعزبة .

رأيتهم حفاة الأقدام ، مكشوفى الرؤوس ، عراة الصدور . لكنى نظرت إلى وجوههم ، وإلى أبدانهم ، فإذا هى قويّة

نشيطة مرحة ، تلوح عليها هيئة الشبع . وهم يضحكون للحياة . ساخرين من الكون ، راضين بما قسم الله لهم ، معتبرين القناعة كنزٌ لا يفنى ، لأنهم لا يعرفون ما هو الجوع ، فى بلاد تبشم[1] فيها الناس ولا تفنى العناقيد[2] .

* * *

إن حياة هذا الفلاح يا مصر ، تتصّل بأعظم أمجاد التاريخ ، منذ قديم الزمان ، إلى الآن .

* * *

هذا هو ابن الفراعنة — الأقدمين الميامين .

أنظرى إلى وجهه ، وملامحه ، وتقاطيع جبينه ، وسواد عيونه .

إنه شديد الشّبه ، بأجداده الفراعنة .

وإنك لتجد فى شوارع مصر ، عشرات من خوفو ، ورمسيس ، وأحمس ، وساتى ، واخناتون ، وتوت عنخ آمون .

بل بين هؤلاء الفلّاحات ، كثيرات من أمثال حتشبسوت ، وأميس ، وتى ، ونفرتيتى .

* * *

قف فى أى شارع فى مصر ، وحدّق وتأمل فى وجوه الرجال والسيدات .

---

(١) تبشم تشبع .

(٢) اشارة الي قصيدة المتنبي التى يعرض فيها بملكها كافور الأخشيدى ومنها هذا البيت.

نامت نواطير مصر عن ثعالبها ... فقد بشمن ولا تفنى العناقيدُ

إنه ليخيّل إليكِ ، أن فى مصر بوتقة واحدة ، يصبُّون فيها أنموذجاً واحداً من الرجال والنساء هو شكل الفراعنة الأقدمين ، لم يتغيَّر منذ ذلك اليوم — إلى هذا اليوم .

* * *

فمنذ سنين ، كان العمّال المصريون يحفرون التراب ، للتّنقيب عن الآثار ، تحت إدارة مسبيرو .

فوجدوا تمثالاً من الخشب ، يعود إلى أيام الدُّول الأولى .

فصاح العمال حين رأوه « هذا شيخ بلدنا » لأن ملامحه ، تطابق ملامح شيخ بلدهم — أو كأن شيخ البلد فى القرن العشرين شديد الشبه بشيخ البلد فى القرون الأولى ، من التاريخ .

وعُرف التمثال من ذلك اليوم ، بتمثال « شيخ البلد » وهو موجود الآن فى متحف القاهرة .

وهو تمثال من أيام الدولة الثانية — لكنه شديد الشبه بكثيرين من مصريّى هذه الأيام .

وكم ، وكم ، من رجل فى البلد ، وفى المدينة ، على تشابه تامّ ، مع رسوم الفراعنة الأقدمين .

هؤلاء المصريين ! ! لم يتغيّر شكلهم الجسدىّ منذ آلاف السّنين .

* * *

أنظر إليهم جيداً ، وأنت تسير فى شوارع القاهرة ، أو عزب الأرياف .



شيخ البلد — تمثاله كما كان منذ سبعة آلاف سنة

فهُم هُم بالأمس — فراعنة العالم .

وهُم هُم اليوم — أحفادُ أولئك الفراعنة .

* * *

فلا حول ولا قوّة إلا بالله ! !

رباعيات عمر الخيام

بقلم توفيق مفرج

صدرت الطبعة الثالثة من رباعيات عمر الخيام لواضعه صاحب هذا الكتاب وقد طبع ثلاث مرات فى خلال سنتين .

* * *

وقد جاءت هذه الرسالة إلى المؤلف من حضرة صاحب المقام الرفيع ، الرئيس الجليل مصطفى النحاس باشا ، بعد أن تفضل فاطلع على الكتاب عند انتهاء الطبع . ويسرّ المؤلف كثيراً ، أن ينشر هذه الرسالة هنا ، مفتخراً شاكراً ومنها ما يأتى :

* * *

« تحيّة طيّبة — وبعد :

فقد تصفّحت كتابك « رباعيات عمر الخيام » فأعجبت به ، ولا غرو ، فقد حوت مقدمته بحثاً فلسفياً ، إجتماعياً ، مستفيضاً ، كما جاء المجهود الذى بذلته فى ترجمة هذه الرباعيات ، مجهوداً عظيماً ، أهنئك عليه .

وتقبل خالص تحياتى »

مصطفى النحاس

٦ فبراير سنة ١٩٤٧

كلمة شكر وتقدير

لحضرات الكتاب ، والأدباء ، والمجلات ، والصحف المصرية

تفضل فريق من كبار الكتاب ، والأدباء ، وبعض المجلات والجرائد كالمقتطف ، والأهرام ، والمصرى ، وصوت الأمة ، والمقطم ، والبلاغ ، والبورص أجبسيان ، والمصور ، والسوادى ، ورابطة الشباب ، والشعلة ، والصباح ، فنشروا عن كتاب عمر الخيام بعد صدور الطبعة الأولى ما أوجب علىَّ الشكر الجزيل لحضراتهم ، والممنونية على تشجيعهم لشخصى وتقريظهم لكتابى .

* * *

وقد وصلتنى رسالة من أديب فاضل من صفوف الشعب المصرى الكريم . وأنى أشكر لحضرته حسن ظنه بى وأنشر من رسالته ما يأتى :

* * *

ربما يندهش سيدى عندما يتلو توقيعى على هذه الرسالة ، ولكنى أقدمت على تحريرها — وسموت بها لمخاطبتك — لأنك أحدثت فى حياتى انقلاباً — من الواجب على أن أشعرك بمدى تأثيرك السحرى على القراء — وكيف أنك تسوسهم بحلو حديثك ، وكمال معناك ، وعلوّ سجاياك — إلى جنات النعيم — وفردوس دنيا الخلود — وكيف تعود بهم إلى الهاوية — وتسلمهم إلى الشيطان ، وتدعوهم إلى ارتشاف بنت الحان — وهم فى كلا الحالين أطوع لك من بنانك . وها أنذا فرد من آلاف القراء . وآلاف المعجبين . أسجل إعجابى على صفحات كتاب بسيط — يصلك من أقل الناس — كما وصلتك رسالة من زعيم البلاد . فتكون بذلك قد جمعت قلوب الشعب من أكبرهم مقاماً وسمواً وعظمة إلى أصغرهم ذكراً وعلماً وأدباً .

الداعى

مصطفى كامل عزب

بمحكمة حلوان الوطنية

من بحث طويل فى مجلة "المقتطف" الغراء

منذ سنين أخرج الأستاذ توفيق مفرج كتابه «آلام وأحلام» الذى ضم مجموعة من خواطر المؤلف أرسلها شعراً منثوراً فى نغم متساو وعاطفة جياشة وكان لى نصيب الإشادة بذلك الكتاب فى هذه المجلة وقتذاك، ثم مضت الأعوام والأستاذ توفيق مفرج فى عزلة عن قرائه حتى طلع علينهم أخيراً بكتاب جديد عن رباعيات عمر الخيام. طبعه على ورق جميل بالألوان وزينه بواحد وثلاثين رسماً عن حياة عمر الخيام.

وليس الكتاب ترجمة لرباعيات الخيام. وإنما اتّبع المؤلف فيه غيرما اتبع كثير ممن نقلوا إلى العربية هذه الرباعيات سواء عن الإنجليزية أو الفارسية.. فقد درس المؤلف فلسفة الخيام دراسة تعمق واستوعب فى نفسه هذه الفلسفة والاتجاهات الخيامية ثم خرج من الجو الخيامى بروح ونغم جميل.

فهو قد وضع رباعيات الخيام من خلال فلسفة الخيام. شرب كأسه فاستطاع أن يؤلف من النشوة التى أخذ بها أناشيد جديدة فيها خمر معتقة قديمة، لها جمال الجديد فى تصويره، وجلال القديم فى تعبيره.

هذه هى الطريقة التى انتهجها الأستاذ توفيق مفرج فأحسن النهج ووفّق فى الوصول إلى أفق الخيام، وشرب من كأسه فانتشى، ولم تأخذه النشوة الساحرة دون أن يستطيع التعبير الصادق عن تلك الروح التى فتنت الكثيرين وخلدت فى آداب الأمم بفلسفة وشعر خالدين على مر الزمان، وإننا لنعتقد صدور هذا الكتاب فتح جديد فى اللغة العربية.

ويكفى تقريظاً للكتاب الرسالة التى أرسلها رفعة النحاس باشا إلى مؤلفه بعد اطلاعه عليه.

* * *

من رسالة لصاحب الفضيلة الحاج أمين الحسينى مفتى فلسطين الأكبر

كتاب قيم، يدل على جهدكم الأدبى الموفق، وعنايتكم الكبيرة.

* * *

من بحث لحضرة الأستاذ اسكندر الرياشى نقيب الصحافيين فى بيروت وصاحب جريدة الصحافى التائه.

صاحب كتاب عمر الخيام — مليونير أدب، ومليونير ذهب.

كتاب آلام وأحلام

بقلم توفيق مفرج

لدينا مجموعة مما تكرم به كبار المؤلفين وعظماء الكتاب والمفكرين لكتاب « آلام وأحلام » ننشر منها بعضها مقدمين لجميع الذين تكرموا علينا بالتشجيع أو الثناء غاية الشكر ولحضراتهم واجب الفضل . ونعتذر للذين لم نتمكن من نشر رسائلهم ونشكرهم .

* * *

هذا مقال ممتع طويل ، لحضرة صاحب المعالى المؤرخ الفيلسوف الدكتور محمد حسين هيكل باشا ، رئيس مجلس الشيوخ الحالى ووزير المعارف سابقاً . وقد نشر معاليه هذه الرسالة فى جريدة المقطم الأغر . نختصر منها ما يأتى :

* * *

الأستاذ توفيق مفرج ، رجل عديد نواحى الحياة ، فبينا يعمل فى السياسة إذا به يتنقل منها إلى الصحافة محرراً ، ثم يعمل فى نواحى غير التحرير من الصحافة . وقد نشر أخيراً كتابه « آلام وأحلام » فكان مظهراً جديداً من مظاهر تعدد نواحى حياته . ولقد اشتغل بالصحافة والأدب وكتب وألف ، فأحب هذا النوع من الكتابة والتأليف أيضاً مما يجعل لهذا الكتاب طابعاً خاصاً جديراً بأن يكون ناحية جديدة من نواحى حياة الأستاذ « مفرج » .

ما تكاد عيناك تقع على صورة الكتاب حتى تأخذك الدهشة . ورق جميل ملون تلويناً غريباً . وتفتحه فتأخذك لجمال طباعته دهشة أخرى . فكل صفحة ملونة بلون وردى مع أن الورق جميل فى غير حاجة إلى هذا اللون الذى يلفت النظر . كذلك ترجع عند دهشتك فترى أن المؤلف اختار هذا اللون لنا .

فإذا قدرت هذا الجمال الذى ذكرته فيما كتب الأستاذ توفيق مفرج فكذلك لأننى أحسست حين قراءته بهذه الهزة التى يحس الإنسان فيها أمام الجمال الفنى .

الفن فى تعدد نواحى جماله يسحر دائماً — وكل إبداع فى الفن حسن .

لهذا نقدم للأستاذ « توفيق مفرج » تهنئتنا بكتابه الذى كشف عن صورة ناحية من نواحى حياته المتعددة .

آلام وأحلام

رأى صاحب الفضيلة المغفور له الأستاذ الأكبر

الشيخ مصطفى عبد الرازق باشا

شيخ الجامع الأزهر وقد نشره فضيلته فى مجلة الهلال الغراء

ألف الأستاذ توفيق مفرج مجموعة من الشعر المنثور وأصدرها ضمن كتاب أنيق بعنوان « آلام وأحلام » وقد كتب فضيلة الأستاذ مصطفى باشا عبدالرازق هذه الكلمة التى تغنينا عن تقريظ الكتاب . (مجلة الهلال)

فى كل صناعة أهل الفن والهواة ، وكثيراً ما يكون للهواة أثر عظيم فى نهضة الفن ومجهود خصيب . لكن الأدب كان دائماً من بين الصناعات قوى الروح ، قاهر السلطان .

فهو يحيل هواته صناعا ، ويغلب كل استعداد لهم وكل صفة وكل عمل حتى لا يكونوا إلا أدباء . وإنا لنعرف فى التاريخ العربى شواهد تغلّب فيها الأدب حتى على الأمارة والملك كما فى حال ابن المعتز الذى ذهب عنه ملكه وسلطانه ولم يحفظ له الدهر إلا لقب الشاعر الأديب .

وهل يعرف الناس « القاضى الفاضل » إلا كاتباً ، و« البهاء زهيراً » إلا شاعراً . أما الوزارة والرياسة ، فقد طغى عليهما الأدب وغمرهما غمراً .

على أن العصور الحديثة تظهر هواة لا يزالون ظاهرين فى عوالم أخرى .

وإنا لا ندرى أضَعفَ سلطان الأدب فلم تعد له غلبته الأولى ؟ أم أن روح الزمن أصبح يأبى أن يكون الأدب وحده شغلا شاغلا إلا إن هيأته له الفطرة ، ليبتدع نماذج من جمال البيان وسحره ، يهتدى بهديها ذوق البشر .

وكتاب « آلام وأحلام » للسيد توفيق مفرج أثر أدبىّ من آثار هواة الأدب .

نعرف ذلك فى شكل الكتاب من قبل أن نقرأه ، إذ نجد فضل تروّ فى تخير لون الغلاف ، والورق ، وتناسب الأشكال ، وتنويع الخطوط ، وترتيب الأوضاع .

وكل أولئك يشعر بنوع من التأنق قلما تجده إلا عند هواة الفنون الجميلة، العارفين لفضلها، الخبيرين بما يكون للطف المهارة فى عرضها من خلابة وتأثير.

وتعرف ذلك من الكتاب حين تقرأه، فإن الكتاب، بمجموعة قصائد ومقالات من الشعر المنثور الذى يحاول أن يحدث فى النفس أثر الأوزان والقوافى، وموسيقى النظم من غير سبيل الأوزان والقوافى المعروفة، وإن لم يخل من نوع التقطيع يشبه أن يكون تنغيما مع الركون إلى ألوان من الاستعارات المستغربة والصور.

ومع تحرى ألفاظ وتراكيب، كثيراً ما يكون لنبوها عن الألف — روعة بين الإعجاب والعجب.

ست وتسعون صفحة لا يقصد بها كاتبها أن يهدم شيئاً فى الحياة ولا أن يبنى.

وإنما قصد بها أن يرسم من آلامه وأحلامه العزيزة، صورة يطمع أن يخلدها، ما لجمال الفن والأدب من خلود.

هل يصنع ذلك إلا هواة الأدب، الذين يتخذونه لذاذة لأذواقهم، وإطاراً جميلاً لما تحفظه نفوسهم من ذكريات باكية أو ضاحكة.

وهواة الأدب، أجرأ على التحلل من قيوده المرسومة، وابتداع البدع فيه. حتى ليسرفوا فى ذلك أحياناً.

وبالجملة فالأستاذ توفيق مفرج يستحق كل ثناء على ما أخرج للناس من كتاب أنيق، فيه للناس روعة، وللنظر جمال وبهجة.

* * *

من كتاب للأستاذ الكبير محمد فريد وجدى

لم أقرأ من الشعر المنثور أجود ولا أطيب مما قرأته فى «آلام وأحلام» فالكاتب كما أبدع فيما كتب، أبدع فيما صنع. فجاء كتابه كله إبداعا فى إبداع.

* * *

من نقد طويل نشر فى مجلة المقتطف

«آلام وأحلام» صورة مصغرة لهذه الحياة — هو كتاب الفن فى جبين اللغة العربية، هو مجموعة من النغم السامى اقتطفها المؤلف من سماء الإلهام.

وكتاب لشاعر مصر والأقطار العربية خليل بك مطران أرسله للمؤلف ونشره فى جريدة الأهرام .

إلى حضرة صديقى الألمعى توفيق بك مفرج .

كتابك « آلام وأحلام » راقنى منظره لإتقانه الذى لم أر له مثيلا فى كتبنا العربية . وراعنى ما ضمنته من طريف الفكر ، وبارع البيان ، وجديد الأسلوب . ولقد طالعته شغفاً به إلى أن فرغت منه ، وصدرت عنه بهذه الأبيات ، تلقفها الطرس عن القلم لساعتها ، فإن لم تكن وافية بما أردت ، رجوت أن تكون دالة عليه ، وهى :

أقولُ للحِذْنِ الأبرِّ الذى ... أهدى وما إهداؤه باليسير
يا مخرجاً ما جاشَ فى صدره ... وجالَ أخفى جولةٍ فى الضمير
طرائفُ الأفكارِ أجريتَها ... فى أىِّ قولٍ عبقريٍّ مُنير
منتظم ، منتثرٍ ، ضاحكٍ ... باكٍ ، شجىٍّ ، مُتَشَظٍّ ، قرير
يُحرِّكُ الطَّودَ إذا ثارَ أو ... يَهدأ رفقا فيهزّ السَّرير
هذا هو الشِّعرُ الطَّليقُ الذى ... ليس له كاتبهُ بالأسير
رقَّت معانيه وألفاظهُ ... فهو شُعاعُ الوحى وهى الأثير

المخلص

خليل مطران

* * *

من مقال لحضرة الاستاذ خليل بك ثابت رئيس تحرير المقطم وعضو الشيوخ

« آلام وأحلام » مطبوع طبعا متقنا على ورق جميل لوّنت أرضه تحت الحروف فجاء بهجة للناظرين — ولذة للقارئين .

* * *

من مقال لصاحب الفضيلة الشيخ احمد مراد البكرى شيخ مشايخ الطرق الصوفية

مجموعة فذة من صور الحياة ، فكل مقالة منها فلسفة بذاتها فى أدق تصوير فى الإيجاز والإعجاز .

* * *

i 13752121
B 12196400

١١٤

فهرس الكتاب

الإهداء ٣
مصادر الكتاب ٥
يا مصر ٧
التحنيط ٢٤
الطب عند قدماء المصريين ... ٢٦
هياكل ومعابد قدماء المصريين ٢٩
لغة المصريين ٣٧
ديانة المصريين ٣٩
عبادة الأشجار ٤٢
الدّين ٤٤
عبادة العجل ٤٩
القطط ٥٣
آلهة قدماء المصريين ٥٤
كتاب الموتى ٦٠
النقش والحفر فى أعمدة الهياكل ٦٤
«كا» و «با» ٦٥
مرافعة الميت أمام القضاء الالهى ٦٧
الشعب المصرى ٦٩
قصة أوزوريس ومراثى إيزيس ٧٠
العائلة ٧٥
اليونان مستعمرة مصرية ... ٧٨
الدُّول المصرية ٨٠
التاريخ القديم ٨٢
التاريخ المتوسط ٩٣
الدُّول الحديثة ١٠٢
نفرتيتى — أو — تادوجيبا ١٢٠
الدُّول الحديثة ١٥٥
التاريخ الحديث والعصر اليونانى المصرى ١٦٩
منارة الاسكندرية ١٧٦
كليوباطرة ١٨٧
التاريخ المتوسط ٢٠٠
الخلافة الأموية ٢٠٣
الخلافة العباسية ٢٠٥
الدولة الطولونية ٢٠٦
الدولة الأخشيدية ٢٠٨
خلافة الفاطميين ٢١١
دولة الأيوبيين ٢١٨
الشراكسة ٢٢١
الأتراك ٢٢٣
دولة المماليك ٢٢٤
نابليون ٢٢٤
الدولة العلوية الخديوية ... ٢٢٥
المملكة المصرية ٢٢٨

A.U.C.

3 APR 1989

main
0000000807 79
DT 77 M9x